كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

أحمد عرابي
الزعيم المفترى عليه

محمود الخفيف



كتاب الهلال

LAL
سلسلة شهرية

K

رئيس مجلس الإدارة :

العدد ٢٤٥ ربيع الثانى ١٣٩١ – يونية ١٩٧١
No. 245 — June 1971
مركز الادارة
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عدداً) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ – فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج•ع•م•) – والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ••

كتاب الهلال

اهداءات ٢٠٠١

أد. محمود دياب

جراح بالمستشفى الملكي المصري



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين ال

الغـــلاف بريشـــــة
الفنـــان حلمى التونى

محمود الخفيف

أحمد عرابى

الزعيم المفترى عليه

الجزء الأول

دار الهلال

الاهداء

الى الأشبال النواهض الميامين من شباب هذا الجيل ، فى وادينا المبارك ، وفى الأقطار العربية الشقيقة أهدى سيرة هذا الزعيم المصرى الفلاح ، الذى جاهد فى سبيل الحق ومات على دين الحق ، والذى آن أن ينصفه التاريخ وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية .

محمود الخفيف

مقدمة

كان المصريون الى عهد قريب يذكرون اسم عرابى فلا يبتعث هذا الاسم وا أسفاه فى أذهانهم الا صـــور العنف والنزق وتراهم وان لم يقصـــدوا يقرنون اسم عرابى بمعانى الهزيمة والاحتلال والمذلة كأن هذه المعانى من مرادفاته

وما أذكر مجلسا تطرق الحديث فيه الى عرابى الا وسرت فى الوجوه كآبة ، وتسابقت الالسن الى الهزء به وتعديد مساوئه وابراز مثالبه ، اللهم الا قلة لا يعجبهم هذا الكلام ولكنهم لا يعرفون كيف يدفعون عنه هـــذا الظلم ..

وكنت أبدا أحـــد المخالفين الذين يحسون فى قرارة أنفسهم ان الرجل مظلوم وأنه مفترى عليـــه ، وكنت أسأل نفسى دائما : أما آن للتاريخ أن ينصف هـــذا المصرى الفـــلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟

والحق أنه قل أن نجد فى رجالنا رجلا ضاعت حسناته فى سيئاته كما ضاعت حسنات عرابى فيما افترى عليه من سيئات ، كذلك قل أن نجد فى رجالنا رجلا كرهه أكثر بنى قومه مضللين ، واستنكروا أعمـــاله جاهلين بقدر ما كره هؤلاء عرابيا واستنكروا ما فعل وما أسند

اليه من الاعمال زورا وافكا ، وفى ذلك دليل قوى على أن التاريخ قد يظلم عامدا كما قد يخطىء غير عامد ، وفيه كذلك دليل على أن الامور كثيراً ما تجرى فيه كما يشاء الحظ لا كما يكون العدل والقسطاس ، فيكون نصيب بعض الرجال من التعظيم والتوقير بقدر ما يتوافى لهم من حظ لا ندرى كيف اتفق لهم دون غيرهم ، بينما يجنى على كثير من ذوى النفوس الصحيحة والعظمة الصادقة ما يلحق بهم من سوء الطالع وما يحيط بهم من نحس الايام ...

وما كان عرابى فيما أعتقد الا طالب حق يلحق به فى طلب الحق الخطأ والصواب كما يلحق بغيره ، ولعلى استطعت أن أجلو ذلك فى سيرته بقدر ما وصلت اليه من الادلة فى تلك السيرة التى بالغ كثير من ذوى الاغراض فى تشويهها والحط من قدر صاحبها

ومهما يكن من الامر فما أحسب ان فى الناقمين على عرابى من يستطيع أن يمارى فى أنه كان زعيم حركة وداعية فكرة وأنه ، أخطأ أو أصاب ، كان مخلصا فيما يفعل أو يقول ، وأنه قبل ذلك كله وفوق ذلك كله كان أول مصرى فلاح فى مصر الحديثة نجم من بين عامة الفلاحين فى قرية من قرى مصر فاضطلع بقضية من القضايا الوطنية الكبرى ، ونادى على رأس المنادين بمطالب مصر ، وصار اسمه فى ظرف هام من ظروف نهوضها علما على الجهاد ورمزا للمقاومة ومثلا للقومية حتى شاءت الاقدار فامتشق الحسام وسار على رأس جيش من بنيها الفلاحين يذود عن أراضيها ويقف غير طامع ولا هازل فى وجه الغادرين الباطشين من أعدائها

بهذه الروح كتبت عن عرابى ، وعلى هذا الاساس بينت سيرته فالاخلاص فى الرجال هو عندى مقياس

بطولتهم بل هو فيما أرى أصح المقاييس وأهمها ، أما الصواب والخطأ وما اليهما فأمور توجد فى الابطال وغير الابطال ، ولا فرق فيهما فى كثير ولا قليل بين هؤلاء وهؤلاء ...

وانى اذ كنت أكتب سيرة عرابى كانت تقوم فى ذهنى المفتريات التى افتريت عليه ولكن ذلك لم يضعف قط احساسى بأنه كان شديد الاخلاص لقضيته متوقد الحمية فى وطنيته شديد الانفة فى قوميته وليس بضائره بعد ذلك ما يرميه به المبطلون أوالمغرضون، ولو قد واتاه الحظ الأعمى كما واتى الآلاف غيره من الزعماء والقواد فانتصر فى معركة التل الكبير ، أو لو أنه لم يحط به من الخيانة فى أصرح صورها وأقبحها ما أحاط به وأبلى فى تلك المعركة بعض البلاء أو قتل فى غمرتها لرأينا اليوم له التماثيل فى عواصمنا ولزخرت الكتب بالثناء عليه

وعندى أنه من أكبر الظلم أن تنسى حسناته وهى لعمر الحق كثيرة ولا تذكر الا أخطاؤه ما اقترفه وما افترى عليه منها لتساق أدلة على ما يشاء بعض المؤرخين نعته به ...

ولقد كان هذا الظلم الذى لقيه الرجل على أيدى فريق من بنى قومه هو حافزى للكتابة فأخذت أنشر سيرته تباعا فى مجلة الرسالة الغراء ، وما أن رأى بعض أبنائه المقال الرابع حتى تفضلوا بزيارتى بدار المجلة معبرين لى عن شكرانهم ثم وضعوا بين يدى مذكراته المخطوطة وبعض الكتب التى كانت ترد اليه فى منفاه وغيرها من الوثائق والصور العظيمة القيمة ، مما أثنى عليهم من أجله أعظم الثناء ...

ومما طبت له نفسا ما أفضى الى به أحدهم ومؤداه أن والده رحمه الله تنبأ بأن الذى سيدافع عنه هو شاب

من شباب الجيل القادم الذى لم يفسده الاحتلال ...

وما زادتنى هذه النبوءة الا اهتماما بدراسة سيرته لعلى أكون هذا الشاب الذى يحسن أن يدافع عن عرابى، ولقد كنت قبل هذا كما ذكرت أحس أنه مظلوم وأن أعداءه بالغوا فى الكيد له والزراية عليه ، وآلمنى من هذا الظلم فضلا عما يلحق عرابيا منه أنه ينال كذلك من حركة مصر القومية على يديه تلك الحركة الجليلة التى حاول المبطلون تشويهها .

***

وبعد فهذا كتابى أقدمه للقراء ، فان كنت وفقت الى ما أحببت فحسبى جزاء على ما بذلت من جهـــد أنى أنصفت مظلوما قضى نحبه ولم ينصـــفه أحد ، وأنى بسطت سيرة الحركة القومية ولعل فى هذا البسط عبرة وذكرى لهذا الجيل الذى يتوثب ويتطلع الى المجد ، وان كنت قصرت عما أردت فعذرى أن هــذا جهد ما استطعت ، ولتكن هذه خطوة متواضعة يسرنى أن أشهد بعدها خطوات يخطوها غيرى من الـــكرام الكاتبين فى سبيل هذا الوطن الذى نخلص له الحب والولاء .

وفقنا الله للعمل لمصر وهيأ لمصر المكان المرجو من العزة والسؤدد والحرية .

محمود الخفيف

الصبى القروى

يجد كتاب التراجم الذين يتناولون سير العظماء طائفة من الانباء التى تجلو حياة هؤلاء ابان طفولتهم فيستعرضونها مستخرجين منها ما يعدونه من أمارات النجابة ومن بشائر النبوغ والتبريز ، أو ما يرون أنه من الشواهد على قوة الشخصية وبعد الهمة ومضاء العزيمة وما اليها مما تقوم عليه العظمة .

ونحن اذ نتكلم عن أحمد عرابى تعوزنا المصادر التى يمكن أن نعلم منها الكثير عن سيرته وخلاله فى طفولته وقصارانا أن نقول انه ولد فى شهر مارس سنة ١٨٤١ فى هرية رزنة ، وهى قرية بالشرقية تقع غير بعيد من مدينة الزقازيق ...

ونشأ الصبى القروى كما ينشأ الآلاف مثله فى قرى مصر على نمط من العيش لا نحسبه يختلف كثيرا أو قليلا فى قرية عنه فى أخرى من هاتيك القرى التى نبتت منذ الازل على ماء النيل .

نشأ فى هذه القرية الصغيرة ذلك الصبى الذى قدر له أن يجرى اسمه يوما ما على كل لسان فى مصر ، والذى صارت حياته فيما بعد فصلا من تاريخ وطنه ، والذى تداولت اسمه ألسن الساسة فى انجلترا وفرنسا دهرا طويلا ، والذى اجبر الخديو على النزول اليه حيث

وقف على رأس الجيش يوم عابدين ليسمعه كلمة الامة ، والذى يحتل جهاده أبرز مكان فى كل كتاب تناول ما تعارف المؤرخون على تسميته المسألة المصرية ...

ودرج الصبى القروى بين لداته فى هرية رزنة عرضة للأوبئة المختلفة ، يحيط به فى قريتـــه الجهل والفقر والمرض أينما اتجه ، ولا يجد حوله من مظاهر الحياة والعمران مثل ما يجده من ينشأ فى مدينة كبيرة أو يتلقى العلم فى مدرسة منظمة .

وكان أبوه محمد عرابى شـــيخ هرية رزنة أو على الاصح أحد « مشايخها » على حد الاصــطلاح الادارى فكانت تقسم القرى فى تلك الايام أقساما يسمى الواحد منها «حصة» ويعين على كل حصة شيخ يختار لبروز شخصيته اما بالثراء أو بالقوة أو بالاستنارة بشىء من التعليم أو بها جميعا ، ولم تكن وظيفة العمدة على النحو القائم فى القرى الآن قد عرفت بعد .

ويذكر عرابى عن أبيه فى مذكراته (١) أنه كان «شيخا جليلا رئيسا على عشيرته عالما ورعا تقيا نقيا موصوفا بالعفة والامانة » ، ونراه عند ذكر نسبه يعدد آباءه حتى يصل الى السيد صالح البلاسى فيذكر أنه ينسب الى بلاس وهى كما يقول قرية صغيرة ببطائح العراق ، كما يذكر أنه أول من هبط مصر من أجـــداده وأنه تزوج بالسيدة صفية شقيقة السيد أحمد الرفاعى الصيادى، وما يزال عرابى يرتقى بنسبه اذ يذكر آباءه بعد البلاسى هذا حتى يصله بالامام موسى الـكاظم بن الامام جعفر الصـــادق بن الامام محمد الباقر بن الامام على الزاهر زين العابدين بن الامام الحسين رضى الله عنه .

(١) كشف الستار عن سر الاسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية .

ويذكر عرابى كذلك فيما يذكره من انباء والده قوله :
« وكان قد أمر والدى بترتيب درس فقه فى المسجد الذى جدده للعامة بعد عصر كل يوم وبعد صلاة العشاء فتفقه عامة أهل البلد فى دينهم وصحت عبادتهم وحسن حالهم بفضل قيام المرحوم والدى على تعليم قومه واهل بلده » .

وادخله أبوه مكتب القرية وهو كما يقول من منشآته فيها ، وفى هذا المكتب فتحت عينا الصبى على نور العلم فحفظ شيئا من القرآن الكريم وتعلم مبادىء القراءة والكتابة ...

***

ويمكننا أن نتصور حال هذا الصبى فى أول عهده بالتعليم قياسا على ما نعرف من حال امثاله من ابناء المكاتب فى كل قرية ، وهى حال تكاد أن تكون فى القرى جميعا واحدة فلا فرق بين مكتب ومكتب الا بقدر مايكون من فرق بين قرية وقرية .

فهذا صبى فى جلباب طويل من القطن او التيل وفوق راسه قلنسوة ، يخطر بين صبية مثله الى المكتب وتحت ابطه لوح من الصفيح وبيده محبرة فيها لأفلام الغاب خزانة أو هى محبرة ذات « مقلمة » كما يقول أبناء المكتب ، وهو لايمتاز عن بقية الصبية فى شيء الا بما عسى أن يكون فى قدميه من نعل لأنه ابن شيخ البلد وأكثرهم حفاة ، وما يحضر فى جيبه من فطائر يأكلها متى جاع أو يدفعها الى « الفقيه » على جوعه فى حين لايوجد فى جيوب لداته الا الخبز اليابس ...

وفى المكتب يجلس الصبى على الارض بين أقرانه ولعل العريف يرفعه درجة فيجلسه على حصير او على دكة من الخشب ثم يكتب له بعض كلمات فى لوحه ليكتب

مثلها ، أو بعض أرقام الحساب ليقلد رسمها ؛ فلا يضع لوحه الا حين يتلو العريف على الصبية بعض سور القرآن الصغيرة جملة فجملة فيرددون ما يتلو فى نغمة مثل نغمته ، ويردد الصبى كما يفعلون ولكنه أفصح منهم لسانا وأسرع حفظا ، فالفصاحة هى أول ما يظهر من صفات ذلك الصبى وبها يتحدث العريف الى أبيه !

وتعهده صراف القرية كذلك ميخائيل غطاس فعلمه مبادىء الحساب ، وكان تعلم الحساب يحدث عادة على يد هؤلاء الصيارفة وبخاصة لأبناء المشايخ الذين يتصل بهم هؤلاء ويحرصون على مودتهم ورضائهم .

***

ومات أبوه وهو فى الثامنة من عمره ، ولكن يتمه لم يحل بينه وبين أن ينال قسطا من التعليم فى الازهر ، فقد أرسله أخوه الاكبر محمد عرابى الى هناك عسى أن يكون عالما من علمائه ، ولكن الصبى لم يلبث بالازهر الا أربع سنوات تعلم فيها على طريقة الازهر يومئذ شيئا من الفقه والتفسير والنحو ، وحفظ الصبى القرآن بالضرورة كما يفعل من يلتحقون بهذا الجامع العتيد .

وعاد الصبى الى قريته ولسنا نعلم ما الذى حمله على العودة ، أكان ذلك نفورا من التعليم وركونا الى البطالة ، أم كان لرغبة منه فى أن يسلك فى الحياة سبيلا غير سبيل الازهر ؟ ذلك ما لا نستطيع أن نتبينه على وجه اليقين . وكان من الممكن أن يعيش هذا الصبى القروى بقية عمره فى تلك القرية زارعا ثم يموت فيها كما يعيش ويموت سواه من الفلاحين .

ولكن الاقدار تخرجه بعد قليل من القرية ليغدو فيما بعد رجلا من رجال مصر ، بل ليكون أول مصرى فلاح ينطق بحق مصر وتتمثل فى حركته الروح القومية لمصر

وقد استيقظت من سبات طويل وأخذت تنفض عنها غبار القرون ، أجل أخرجت الاقدار هذا الفلاح من قريته ليقف وجها لوجه تلقاء خديو مصر يعلن اليه فى بسالة وفى غير طيش أن « أهل مصر ليسوا عبيدا وأنهم لن يورثوا بعد اليوم » ويفتتح بهذه الوقفة وبهذه الكلمة فصلا جديدا فى تاريخ هذه البلاد فيكون فضله فضل الرواد يخطون الخطوة الاولى فيظل لهم الفضل ويظل لهم الحمد وان اتسعت بعدهم الخطوات وتوالت الوثبات ، وما نحسب خطوة عرابى فى طريق الحرية والقومية كانت أقل خطرا من وثبة سعد ، ذلك الفلاح الذى نهض من بعده والذى غضب مثل غضبته ووثب مثل وثبته واتجه نفس وجهته ، ولكنه لم يكن من رجال السيف فلم يشهر الا القلم سلاحا ولم يمتط الا أعواد المنابر مجاهدة وكفاحا

***

ونحب أن نقف عند أمرين فى نشأته كان لهما أثر بعيد فى تكوين خلقه وخلق شخصيته ، أما أولهما فهو أن أباه كان شيخا فى القرية ، وأما الثانى فهو أنه فى التحدث عن نسبه يصل أجداده بالحسين عليه السلام

كان يجد أبناء الحكام فى القرى حتى وان لم يكن حظ آبائهم من الثراء كبيرا أنهم فى موضع يصغر دونه موضع أبناء الزراع ، ففيهم على لداتهم شيء من الترفع وفى نفوسهم شيء من الكبر على من حولهم من الناس ، اذ يجد الصبى منهم أباه محاطا بالتوقير مخوف الجانب يتقدم الناس اذا سار ويفسح له صدر المجلس اذا جلس ، وتبدو عليه اذا كان ذا مال آثار النعمة فى مظهره وملبسه كما تبدو تلك الآثار فى مسكنه وفيما يقتنى من دواب وفيما يقوم على خدمته من خدم أو يلوذ به من أتباع أو يحيط به من بطانة ، لذلك كان اذا خرج هؤلاء

الابناء من القرية الى مجال أوسع منها خرجوا وفى انفسهم ذلك الاعتزاز الذى ألفوه فى بيئتهم الاولى فما يحبون أن يسمـــعوا كلمة نابية بل انهم ليكرهون أن يجدوا عدم الاكتراث لهم بله التطاول عليهم ، ولقد يوحى الى الصبى منهم ما غرس فى نفسه منذ صغره أن يثور على الوضع الجديد اما باظهار القوة البدنية على من كانوا فى مثل سنه ، أو بالتفاخر عليهم بالمال والنسب ، واما بالعناد والشـــغب على من لهم عليه حق الطـــاعة من المربين والرؤساء ، ولقد يسرف هؤلاء فيتوهمون المذلة فيما ليس فيه مذلة ، أو يفسرون بالاهـــانة ما لم يقصد به أية اهانة فيبدون لذلك كثيرا من الاباء ويغالون فيه حتى ينقلب اباؤهم شراسة أو حتى يحسبه الناس شراسة.

***

ونحس من سيرة عرابى أنه كان أحد هؤلاء ، فلما قدر له أن يخالط قوما كانوا ينظرون الى المصريين جميعـا نظرة الاحتقار ويجعلون نعتهم بالفلاحين مســبة لهم ، ثارت فى نفسه الحمية ثم عصفت فى رأسه النخوة فكان صوته أول صوت مصرى مثل القومية المصرية وان كان بذلك يفصح عن شعور غيره ممن أحسوا مثل احساسه ولكن لم يكن لهم مثل جرأته وقوة شخصيته .

وزاد الحمية تسـعرا فى نفس عرابى ثانى الامرين اللذين أشرنا اليهما وذلك وصله أجداده بالحسين بن على رضى الله عنهما ، فسواء أصحت هذه الصلة أم لم تصح فقد كان بها مؤمنا ، وكان ايمانه بها كفيلا أن يملأه انفة وعزة فمن كان مثله كما يزعم شريفا عربيا ينتمى الى الحسين عز عليه أن يستذل وبخاصة بأيدى قوم يرى أنهم مهما علوا فهم دونه علوا وشرفا ، وانك لتلمح اعتزازه بنسبه فى تمثله ببيت الفرزدق « أولئك آبائى » فى خاتمة

كلامه عن نسبه فى مذكراته .

بقى الصبى فى قريته لايعلم ماذا يكون من امره فى غده ، ولا يخالط الا الفلاحين من أبناء القرية ، أما الشراكسة المترفعين الذين يمقتون الفلاحين فلم يك يعلم من أمرهم شيئا ولا كان يسمع يومئذ بوجودهم ، وأنى له ذلك فى قريته ، ولكن الاقدار عما قريب سترمى به الى حيث يجدنفسه كما يجد بنى قومه موضع ازدراء هؤلاء ، فلا يطيق هذا الفلاح المصرى ترفعهم وكبرياءهم والتمتع بأكبر المناصب فى الجيش ، واذ ذاك يناضل عن قوميته ويغضب لكرامته ويكون فى هذه الدائرة الضيقة وان لم يقصد ممثلا مصر كلها التى كرهت الاجانب يومئذ وقد استيقظت فيها روح القومية ، تلك الروح التى تتمثل فيما امتلأت به نفس ذلك الفتى القروى القادم من قرية مصرية .

فى صفوف الجيش

لم يطل بالصبى المقام بالازهر ، ولم يطل به كذلك المقام فى قريته ، فان القدر الذى لم يشأ له أن يكون شيخا من أشياخ الازهر ، ولا فلاحا من فلاحى القرية ، قد شاء لهأن يكون جنديا فى صفوف الجيش .

أراد سعيد باشا أن ينهض بالجيش المصرى ، فأمر أن يكون فى صفوفه أبناء المشايخ والاعيان ، كيلا يحتقر الجندى فى نظر الناس ، اذ كانوا لايرون الا المستضعفين والفقراء يحشدون ويساقون الى الجيش ليكونوا عسكره ، أما ضباطه وقواده فكان أكثرهم من الشركس.
وكان بين من ألحق بالجيش من أبناء الاعيان هذا الفتى الازهرى القروى ، وكان يومئذ فى الرابعة عشرة من عمره ، وبالتحاقه بالجيش تبدأ مرحلة جديدة فى حياته ، ثم تنتهى من ناحية أخرى مرحلة تعليمه ، ومن ذلك ترى ان كل ما ناله هذا الفتى من المعرفة لم يعد ما تلقاه فى المكتب ثم فى الازهر حتى سن اليفاعة ، اللهم الا ما كان من مطالعاته فيما بعد ، وهى أمر لا نستطيع تحديده ...

انتظم عرابى فى سلك الجيش جنديا صغيرا ، ولكن حظه من القراءة والكتابة على قلته ، والمامه بشىء من علم الحساب قد أجدى عليه من أول الامر فعين فى عمل

من أعمال الكتابة بالاورطة الرابعة من آلاى المشاة الاول (١) .

وما لبث أن رقي عرابى بعد سنتين الى رتبة ملازم ثان ، ثم الى رتبة ملازم أول، فيوزباشى فى نفس السنة ، وكان يومئذ فى السابعة عشرة ، ولم يمر عامان بعد ذلك حتى وصل الى رتبة قائمقام ، وكان عرابى أول مصرى وصل الى هذه الرتبة كما يقول فى مذكراته .

وصل هذا الجندى من رتبة الجاويش الى رتبة قائمقام فى أقل من اربع سنوات وما كان ذلك عن حظوة له عند أحد ، وانما كان سلاحه ذلك القدر من العلم الذى أشرنا اليه ، فبه تمكن عرابى أن يدرس القوانين العسكرية ويجتاز بها الامتحان متفوقا ، ويدلنا ذلك على ندرة المتعلمين فى ذلك الجيش ، ولا شك فى أن هذا الترقى السريع قد بث فى نفس الفتى القروى كثيرا من الطموح والاقدام ...

على أنه كان طموحا بطبعه ، جريئا فى عصر كثيرا ما كانت تعد الجرأة فيه ضربا من العصيان والتمرد كما سيأتى بيانه ، ولسوف نرى من مواقفه فى ذلك العصر ما يزيد معنى بسالته وضوحا ، ويظهرها مضاعفة .

وأول ما عرف عنه فى الجندية كراهته للعنصر الشركسى ، فكان لايفتأ يقارن بين نصيب هذا العنصر ونصيب المصريين من المناصب ، فلا تزيده المقارنة الا

---

(١) ويذكر عرابى فى تاريخ حياته الذى كتبه لمستر بلنت والحقه هذا بكتابه ، أنه كره أن يعمل هذا العمل الكتابى لانه لا مجال فيه للترقى . وبما انه كان يطمع أن يكون ذا شخصية كمدير الاقليم ، فقد الح على رئيسه أن يلحقه بصفوف الجيش ، ولكن رئيسه أفهمه أنه يخسر بذلك ، لان أجره فى وظيفته هذه ستون قرشا فى الشهر وأجر الجندى خمسة عشر فحسب ، وما زال عرابى بهذا الرئيس حتى الحقه بالجيش فى مرتبة جاويش .

غضبا وكراهية لهؤلاء الاجانب ...

أليست هذه النزعة فيه هى نزعته الوطنية فى الجيش يوم تبدأ الحركة العسكرية ؟ ثم السنا نجد فيها جانبا من الوطنية ونحس معنى من معانيها ؟

ولكن بعض المؤرخين لا يفهم هذا من جانب عرابى الا على أنه ضرب من الانانية والجشع ، بل لقد يسرف بعضهم فيرمونه بالتبجح قائلين : ما لهذا الفلاح وعليا المراتب فى غير جدارة ؟ وانهم فى الحق ليمتدحونه بذلك من حيث لايشعرون ولئن كان الطموح بالنفس والشعور بالقومية تبجحا ، فماذا نسمى التقاعد والتخاذل والاستخذاء أمام الاجنبى ؟ الا ليت كل تبجح يكون كتبجح عرابى هذا ، فما أجدره بالاعجاب والثناء .

وكيف يستطيع رجل فى مثل موقفه أن يقنع المكابرين أن نزعته كانت قومية يقصد بها بنى قومه جميعا ؟ وأى عيب فى أن يبدأ بنفسه فيرقى بها ؟ أليس مصريا ؟ وهل كان يعتز الا بمصريته اذ اعتز بنفسه ؟ على أنه لو أراد بالرقى نفسه فحسب دون أى اعتبار قومى فما وجه العيب فى ذلك ؟ أيكون من العيب أن يتطلع الانسان الى المعالى ، ولا يكون من العيب أن يرضى بتقدم غيره عليه فى غير حق ، حتى ولو كان ذلك الغير أجنبيا ؟

كره عرابى الاجانب فى الجيش كرها شديدا ، وبخاصة هؤلاء الشراكسة المتعصبين لانفسهم المترفعين على المصريين واستقر هذا الكره فى أعماق نفسه ، ولسوف يجر عليه عنتا كثيرا وضيقا ، ولكنه لن يأبه لذلك ، ولسوف يظل على عناده واصراره حتى يصبح الامر أمر الوطنيين جميعا فى الجيش لا أمر أحمد عرابى فحسب .

وظل عرابى فى مرحلته الاولى فى الجندية ساخطا على هؤلاء الاتراك والشركس لا يفتر سخطه ولا ينقطع عليهم

شعبه ، يكيدون له ويكيد لهم ، وانا لنلمس فى هــذا سببا قويا من أسباب زعامته للحركة العسكرية فيما بعد ، فلسوف يلتقى فى دار هذا المتبرم الساخط رؤوس الساخطين الحانقين من رجال الجندية يوم يزمعون أن يشتكوا الى الحكومة فى أوائل عهد توفيق مما يلحق بهم من أذى من جراء سياسة وزير الجهــادية الشركسى عثمان رفقى ...

ويذكرعرابى فى مذكراته ما كان بينه وبين سعيد باشا من حسن الصلة حتى لقد اختاره ياورا له فى زيارته المدينة المنورة ، فكان على مقربة منه أثناء هذه الرحلة وقد أهدى اليه هــذا الوالى كما يذكر تاريخ نابليون مترجما الى العربية ، ولقد قرأ عرابى هذا التاريخ كله فى ليلة ، كما قال فى مذكراته عن نفسه التىكتبها لمستر بلنت والتى أثبتها هذا فى آخر كتابه ، وقد ذكر فيها عرابى أن سعيدا ألقى بالكتاب مغضبا على الارض اذ رأى أن نابليون استطاع أن يفتح مصر بثلاثين ألف جندى ، وتناول عرابى الكتاب فلم ينم حتى أتمه ، وجاء الى سعيد ينبئه أن نابليون استطاع ذلك بالجيش المدرب ، وأن سعيدا يستطيع أن يجعل لمصر جيشا مدربا على نمط جيش نابليون ، ولست أستطيع أن أتبين على وجه اليقين ماتركته قراءة مثل هذا التاريخ من أثر فى نفسه ، فلم يعلق هو على ذلك الا بقوله : « ولمـا طالعت ذلك الكتاب شـعرت بحاجة بلادنا الى حكومة شـورية دستورية ، فكان ذلك سببا لمطالعتى كثيرا من التواريخ العربية » (١) .

ولست أدرى كيف توحى قراءة تاريخ نابليون بحاجة مصر الى حكومة شورية دستورية ؟ على أن قراءة سيرة

(١) كشـف الستار عن سر الاسرار .

ذلك الجندى المغامر الفذ الذى وصل بجده الى قمة المجد الحربى وبلغ اوج الشهرة والجاه ، توحى الى كل من يقرؤها معانى الاقدام والبطولة وتملأ النفس تطلعا وحماسة ، وعلى هذا فلا يصعب أن نتصور ماعسى أن تلقيه تلك السيرة من المعانى فى نفس كنفس عرابى الجندى المتطلع المتوثب ...

ويشيرعرابى فى مذكراته الى أنسعيدا كان يميل الى المصريين فى الجيش ويريد أن يرفع عنهم ما لحقهم من غبن على يد الشركس ، كما يشير الى أنه كانت لسعيد نزعة وطنية تتجلى فى محبته لمصر وللمصريين ، وفى رغبته أن ينالوا قسطهم الحق من الترقى فى الجيش .

وما يعنينا من ذكر هذه العلاقة بين سعيد وعرابى الا ما فيها من اقبال عرابى على كل من يحب المصريين ، فهذا الاقبال دليل على أن النزعة الوطنية القومية كانت منبعثة من أعماق نفسه ، وعلى أن شغبهعلى الشركس والترك لم يك بدافع الاثرة كما يحلو لبعض الناس أن يرموه ...

ويقول عرابى ان ميول سعيد الوطنية قد تبينت فى خطبة ألقاها فى حفل جمع كثيرا من علية القوم ، وقد أثبت عرابى فى مذكراته بضعة أسطر تحت عنوان : خطبة المرحوم سعيد باشا ، وبدأها بقوله : قال مرتجلا .

فهل أثبت عرابى خطبة الباشا وهو يلقيها ؟ اذا صح ذلك كان لكلام سعيد الذى يورده عرابى أهميتـــه فى الدلالة على اتجاه هذا الوالى يومئذ ، واذا كان عرابى يذكر ما وعته ذاكرته فحسب ، فان فى هذا الذى يذكره عن سعيد ما هو كاف لان يكشف عن نزعته ، وقد جاء فى هذه الخطبة قول سعيد حسبما أثبت عرابى « وحيث أنى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا

الشعب واهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لان يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الاجانب ، وقد وطدت نفسى على ابراز هذا الرأى من الفكر الى العمل » .

يقول عرابى : « فلما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الامراء والعظماء غاضبين حانقين مدهوشين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحا واستبشارا . وأما أنا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر فى أساس نظام مصر للمصريين . وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هـذه النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الامة المصرية الكريمة » .

ولقد كتب عرابى هذه الآراء بعد الثورة ، ولعل فى ذلك ما يدعو الى ضعف الثقة فى قيمتهـا عند بعض المؤرخين ، كما هو الحال مثلا فى مذكرات نابليون التى كتبها فى منفاه فى سانت هيلانة ، فلقـد أخذها بعض المؤرخين على أنها دفاع من جانب نابليون عن أعماله بعد أن خلا الى نفسه فنظر وتدبر .

ولكن أعمال عرابى التى لاينكرها المؤرخون ، حتى المغرضون منهم ، لاتتناقض مع كثير مما جاء فى مذكراته ، وعلى الاقل فى هذا الجانب الذى نتلمس فيه الدليل على ما نحسه من أن عرابيا قد اتجه منذ نشأته اتجاها وطنيا قوميا ، وهذا أمر نراه على جانب عظيم من الاهمية ، ففى هذه النزعة القومية نرى عرابيا الحقيقى . أما عرابى الذى صوره خيال المغرضين من المؤرخين والمدافعين عن الاحتلال من كتاب الانجليز فما أبعده عن هذا ، وهل كان يحلو لهؤلاء الذين اسـتغلوا حركة عرابى أقبح استغلال الا أن يصوروه أقبح صورة ، فلا يكون عندهم الا جنديا جاهلا مغرورا ، واتته الظروف فراح يخبط

فى حماقته لا يلوى على شىء ، وما زال فى جنونه يلوح بسيفه حتى اضطر آخر الامر الى أن يسلمه صاغرا الى قائد جيش الاحتلال الانجليزى ...

ما كانت حركة عرابى عسكرية بحتة كما يتصور البعض ، وما كان هو بالاحمق ولا بالمجنون ، وانما كان لابد أن تلتقى الحركة العسكرية ، وهى لا تخلو من الصفة الوطنية ، بالحركة الوطنية العامة ، ولقد تم هذا الالتقاء فى شخص عرابى ، وكان النجاح حليفه فيما طلب باسم الامة يوم عابدين ، ولا لوم عليه بعد ذلك ولا جناح أن تحاك الدسائس وتوقد نار الفتنة تنفيذا لسياسة مرسومة سوف نميط اللثام عنها بكل ما وسعنا من حجة

هذه النزعة الوطنية القومية فى نفس هذا المصرى الفلاح مع ما توافر له من صفات الغيرة والبسالة هى التى جعلت اليه قيادة الحركتين يوم التقتا ، وما نشير اليها الآن هذه الاشارة فى غير موضعها من سيرته الا لنبين هنا أنها نزعة أصيلة فيه جاشت بها نفسه منذ شب ، وكانت الثورة التى نشير اليها هى مظهرها فيما بعد . كتب فى ذلك مستر بلنت وكان من أصدقاء عرابى يقول فى علاقة عرابى بسعيد : « وقد حظى عرابى ، وكان شابا حسن الطلعة ، بعطفه ، حتى لقد اختاره أركان حرب له ورافقه الى المدينة فى السنة التى سبقت وفاته وقد كون عرابى آراءه السياسية الاولى أثناء هذه الصلة القريبة بسعيد ، وهذه الآراء هى المساواة بين طبقات الامة ، وما يجب للفلاح من احترام باعتباره العنصر الغالب فى القومية المصرية ، وهذا الدفاع عن حقوق الفلاح هو الذى جعل لعرابى ميزة بين مصلحى ذلك العصر . فقد كانت حركة الازهر ترمى الى اصلاح حال المسلمين عامة بغير تمييز بينما كانت حركة عرابى فى

جوهرها قوامها الجنسية ، وهذا جعلها أوضح فى معنى القومية ومن ثم قدر لها أن تكون أكثر شهرة وذيوعا »

ولقد كان لصلة عرابى بسعيد على هذا النحو أثرها فى حنق عرابى على اسماعيل فلم يكن فى قلب هذا الوالى شيء مما كان فى قلب سلفه من الميل الى المصريين ، بل لعل ميله كان الى الشراكسة ، وقد أدى ذلك منه الى ازدياد كراهية عرابى لهؤلاء واضطغانه عليهم ، اذ يرى أن كل حظوة لهم عند الوالى انما هى على حساب الوطنيين

وقويت فى نفسه النزعة الوطنية ، وزادها قوة اتصاله بتلك الحركة الوليدة التى أخذت تدب فى جسم الامة وقد كرتتها الكوارث من وراء سياسة اسماعيل وذيون اسماعيل .

وازدادت كذلك فى نفسه نزعة التمرد والسخط ، وتجلت فى مواقف له كان من أهمها ما كان بينه وبين خسرو باشا الذى ما زال يكيد له ويسعى بالوشاية به عند أولى الامر حتى رفت من الجندية .

وكان خسرو هذا شركسيا ، وقد رقى حتى أصبح فى مرتبة اللواء وصار رئيسا لعرابى الذى كان يومئذ قائمقاما للآلاى السادس، ويذكر عرابى أنه رقى «لا بعلمه ومعارفه ، بل لكونه شركسيا ومن الخارجين على الدولة العلية مع ابراهيم باشا بن محمد على باشا فى تلك الفتنة الدهماء التى دكدكت سياج الاسلام وكسرت شوكة الدولة العلية الحامية لجميع الموحدين » .

ويعزو عرابى سبب رفته الى أن خسرو قد سار بالوقيعة بينه وبين وزير الجهادية متهما اياه بأنه «صلب الرأى شرس الاخلاق لا ينقاد لاوامره ولا يحفل بما يصدر منها عن ديوان الجهادية » ، ثم يقول عرابى معقبا على ذلك : « وما بى والله من شراسة ، ولكنى جبلت على

حب العدل والانصاف وبغض الظلم والاجحاف » .

ويذكر عرابى سببين للخلاف بينه وبين خسرو ، أولهما أنه لم يشايعه فيما ذهب اليه من رغبة فى ترقية أحد الضباط ممن كان عرابى من ممتحنيهم وكان فى نظر عرابى لايستحق الترقية بينما كان خسرو شديد الرغبة فى ترقيته ، هذا فى الوقت الذى أبعد فيه خسرو عن الترقية ضابطا آخر يستحقها ، وأوعز خسرو الى أحد الضباط فدبر مكيدة لعرابى ، فاتهم باساءة استعمال سلطته وحكم عليه بالحبس واحدا وعشرين يوما ، ولكنه رفع ظلامة الى المجلس العسكرى الاعلى فقضى ببراءته.

أما السبب الثانى ، ولعله فيما أحس أقوى السببين، فهو أن خسرو سعى سعيه حتى حرم عرابى من أرض أنعم عليه بها الخديو اسماعيل فيمن أنعم عليهم من رجال الجيش ، وذلك عقب حفلة سر فيها الخديو من حسن نظام الجند .

وما زال خسرو يكيد له حتى رفت من الجندية كما أسلفنا ، ولنا أن نتصور مبلغ ماوقع فى نفسه من السخط والثورة على خسرو وعلى الشراكسة جميعا فى شخص خسرو .

والذى يعنينا مما كان بينه وبين خسرو أنه يصور لنا شدة الخلاف بين عرابى ورؤسائه فى الجيش مهما كانت أسباب ذلك الخلاف .

كذلك يكشف لنا ما علق به عرابى على هذه القصة عن ناحية من نواحى عقله ، فلقد راح يذكر ما حل بمن آذوه من مصائب معددا أسماءهم مبينا ما لحق بكل منهم موردا ذلك على أنه انتقام له من الله ... وفى هذا نوع من السذاجة فى رأى من ينظرون الى مثل هذه العقائد نظرة يقولون أنها حرة ، ونوع من الايمان فى نظر

آخرين لايعرفون هذه النظرة التى يصفها أصحابها هذا الوصف ، كما أن فيه دليلا على ما كان للدين من سلطان على عقل عرابى وقلبه .

على أن خصومه قد استغلوا هذه الناحية الدينية من حياته استغلالا مرذولا اذ يحاولون أن يسوقوها دليلا على أنه كان رجلا لايختلف كثيرا عن عامة الناس فى جميع أفكاره ونزعاته ، وليتهم يشعرون انهم بهذا التعميم الذى لا مبرر له انما ينالون من عقولهم ، وأنهم يسيئون الى أنفسهم ولا يسيئون اليه .

كان للدين سلطان على عرابى ما فى ذلك شك ، ولكن تلك كانت نزعة العصر ، على أننا نسأل : ماذا يضيره من ذلك ؟ وكيف يساق هذا على أنه من مساوئه وخليق به أن يعد من حسناته ؟ وهل عاب أحد هذا العيب على كرمول ، وهو جندى مثله ، فى تزمته وتقشفه وصرامته فى دينه ؟ وهب أن عرابيا كان يغلو أحيانا فيخلط بين ما يتصل بالدين وما يتصل بالسياسة فهل مال به ذلك عن منهاجه السياسى أو صرفه عن وجهته التى عمل على بلوغها ؟ وهل يستطيع أحد من خصومه أن يقيم الدليل على أنه اتخذ يوما من الدين سلاحا فى غير موضعه ؟ أو أنه استغنى بالدعوة الدينية عن الجهاد والقتال حتى النهاية حين عملت خيانة بني قومه ودسائس أعدائه على انتزاع النصر من بين فكيه ؟

ظل عرابى ثلاث سنوات مبعدا عن وظيفته الى أن عفا عنه الخديو بعد أن ظلت ظلامته لديه هذه السنوات الثلاث مهملة لغير سبب ظاهر ، ولقد تأصل فى نفسه كره الاستبداد فى كافة صوره كما استقر فى قلبه حب الانتقام من هؤلاء الشراكسة الذين يراهم أذى ونقمة على العنصر الوطنى .

وطلب عرابى أن يحال على الاعمال المدنية ليبعد عن دسائس اعدائه كما يقول فى مذكراته ، وانه ليذكر أنه بذل فى تلك الاعمال جهدا عظيما ووفر فى احدها للخزانة مبلغا كبيرا كان لولا نشاطه ذاهبا لا محالة الى خزانة احدى الشركات الاجنبية ، ولكنه رأى غيره يكافأ مكافآت مالية . أما هو فكان جزاؤه كما يقول : « وكوفئت أنا على تلك الاعمال الشاقة الجليلة بالتقاعد والراحة من غير معاش لحين ظهور خدمة أخرى فيالله ما أمر وأصعب تلك المكافآت المقلوبة على النفوس الحساسة الشريفة ! وما أكثر العجائب فى الحكومات المطلقة المستبدة الظالمة »

على أن بلنت يذكر فى كتابه أن تكليف عرابى بتلك الاعمال كان على غير رغبته ، وان ذلك كان سببا من أسباب نقمته على العهـــد القائم يومئذ ومن دوافع انضمامه الى الساخطين والمتذمرين .

ولم يلبث عرابى أن أعيـــد الى صفوف الجيش ، وكانت الحكومة تستعد الحملة الحبشية فرقت بعض رجال الجيش الى مناصب أعلى مما كانوا فيها ، ولم يرق عرابى وكان قد جعل على ديوان الحربية فى ذلك الوقت الامير حسين كامل بن اسماعيل باشا ، ويقول عرابى فى مذكراته : « وبعد اختيار المختارين للفرقة الثانية من الذين ترقوا بحضرة الامير المشار اليه قال للذين تأخروا عن الترقى : اجتهدوا أيها الضباط فى التعليم والتمرين حتى تدركوا ما وصـــل اليه اخوانكم الذين ترقوا ، والله يشهد وفطاحل الجهادية أن المتأخرين فى الترقى هم أساتذة الذين ترقوا فى العلوم الحربية وهم أرقى أخلاقا وأدبا ... ولكن الغرض يعمى ويصم ... ثم التفت الامير الى وقال بلهجة الآسف : انى طلبت من أفندينا ترقيتك الى رتبة الميرالاى ، فقال : انك من بتوع

سعيد باشا ، فقاطعته الكلام ، وقلت : انى لست بتاع أحد ، بل خادم الحكومة والوطن وبلـدى هرية رزنة بمديرية الشرقية ، ولكن بتاع سعيد باشا هو راتب باشا لانه ملكه ، فقال : لا تفتر همتك فى تادية واجباتك وانى سابذل جهدى فى ترقيتك عنـد ترتيب الفرقة الثالثة ، فشكرت له وخرجت وأنا شاعر بأنى لا أنال خيرا فى عهد والده لانى متحقق من أن خسرو باشا ، وراتب باشا ورؤساء الشراكسة يعارضون فى ترقيتى بكل ما فى قدرتهم ، وقد سمعت من أحد أمرائهم وهو رجل معتدل غير متعصب لبنى جنسه على ما فيه من غلظة أنه حضر مجلسا لاولئك الشراكسة حيث تذاكروا فى اختيار الذين يريدون ترقيتهم الى الفرقة الثـالثة فعرض عليهم ترقيتى الى رتبة الاميرالاى مراعاة للحق والانصاف فأبوا عليه ذلك ، فقال لهم ربما ترقى قهرا عنكم يوما ما اذا لم يرتق برضائكم واختيـاركم وأنتم تعلمون أنه أقدم القائمقامات وأعلمهم وفيكم من كان تحت امرته فالاولى بكم ألا تعرضوا انفسكم للانتقاد ، ولكنهم لم يزدادوا الا عتوا ونفورا ، ولما ترتبت الفرقة الثانية والثالثة وتم ترقى الضباط ، لم يقدر ناظر الجهادية الامير حسين كامل باشـا على الوفاء بوعده لاصرار السردار راتب باشا على رفض ترقيتى ، ومن الغريب أن الآلاى الذى تحت ادارتى ظل خاليا من ضابط من رتبة الاميرالاى مدة ثمانية أعوام ، وكنت أنا القـائم بوظيفة الاميرالاى بأحسن نظام وأكمل تربية وأدق تعليم وأحسن هيئة عسكرية ، فما أوضح هذا الظلم المبين» .

هذا كلام عرابى ومهما يكن من أمره فان حرمانه من الترقية سواء أكان مرده الى دسائس الشراكسة أم الى أى سبب آخر كان خليقا أن يحمله على الثورة والسخط ،

وأن يميل به الى اعتناق مبادىء الحركة الوطنية التى أخذت تشيع فى نفوس الساخطين على حكم اسماعيل.

والحق عرابى بالحملة الحبشية ، ولكن عمله فى هذه الحملة لم يكن عمل الجندى المحارب ، فقد كان يعمل فى منصب « مأمور مهمات » بمصوع ، ولقد حنق عرابى على تلك الحملة ، فهو ما يفتأ يندد بها فى مذكراته ويصف ما حل فيها بالجيش من كوارث فى غير موجب ، وقد اتهم لورنج القائد الامريكى الجنس فيها بالخيانة ، اذ كان يتصل عن طريق أحد القساوسة بالاحباش ويطلعهم على كل شىء ...

***

ويقول بلنت فى كتابه : « انه قد عاد من الحملة ساخطا كما سخط العائدون على ماكان فيها من الفوضى ، واليها يرجع اتجاه نفسه نحو السياسة ، وازدياد بغضه وغضبه ، ذلك الغضب الذى كان فى ذلك الحين متجها أكثر ما يتجه الى الخديو » .

وفى شهر فبراير عام ١٨٧٨ وقعت مظاهرة الضباط الخطيرة ، تلك المظاهرة التى نلمح فيها بوادر الثورة العسكرية ، ويتلخص هذا الحادث فى أن عددا من الضباط بزعامة البكباشى لطيف سليم قد توجهوا الى وزارة المالية يطالبون بمرتباتهم المتأخرة ، فلما حضر نوبار باشا رئيس الوزراء وكان معه السير ريفرز ولسن وزير المالية هجم هؤلاء الضباط عليهما وأشبعوا نوبار لطما ولكما وراحوا يجرونه من شاربيه ، وامتدت أيديهم كذلك الى وزير المالية ، وكاد يتفاقم الحادث لولا أن خف الى هناك الخديو بنفسه فى فرقة من حرسه حينما نمى اليه ذلك النبأ ، وأمر الخديو باطلاق النار ارهابا ، فأطلقت رصاصات فى الهواء وفر المتظاهرون .

ولكن تهمة القيام بهذه المظاهرة وتدبيرها قد وجهت الى عرابى واثنين آخرين من الضباط ، وعقد لهم مجلس عسكرى يحاكمهم واصدر المجلس حكمه بتوبيخهم وفصل كل منهم عن الآلايه الى جهة بعيدة ، وكانت الاسكندرية من نصيب عرابى وفيها اتصل بكثير من الاوروبيين .

ويدفع عرابى التهمة عن نفسه مقررا أنه لم يكن له يد فيها قط ، اذ كان فى رشيد وقت وقوع الحادث ، ذكر ذلك فى مذكراته وذكره كذلك فى التاريخ الذى كتبه لمستر بلنت بناء على طلبـــه عام ۱۹۰۳ بعد عودته من منفاه ، ولقد اطلع مستر بلنت الشيخ محمد عبده على ما كتب عرابى ، فوافق على براءته من هذا الحادث .

***

ولقد ادى اتهام عرابى على هــذا النحو الى ازدياد كراهته لاسماعيل وعهد اسماعيل ، ولسوف يكون ذلك من أهم الدوافع التى توجهه الى الاتصال بالوطنيين بغية معاونتهم والاستعانة بهم على تنفيذ ما كانوا يأملونه من وجوه الاصلاح ، قال عرابى فى ذلك التاريخ الذى كتبه لصديقه بلنت والذى اثبته هذا فى آخر كتابه : « ولكن قبل أن نفترق اجتمعنـــا فاقترحت أن نتحد ونخلع اسماعيل ، ولو اننا فعلنا ذلك لكان خير حل للقضية ، لانه كان يسر القناصل أن يتخلصوا من اسماعيل على اية صورة ، ثم انه كان يوفر على البلاد ما حدث بعـد ذلك من تعقد فى الامور ، كما كان يوفر تلك الملايين الخمسة عشر التى حملها اسماعيل معه عندما خلع ، ولكنه لم يكن هناك يومئذ من يقود هذه الحركة ، ولذلك فان مقترحى لم ينفذ وان حاز القبول ، وقد القى خلع اسماعيل بعد ذلك عبئا ثقيلا عن كواهلنا وعم الفرح ، ولكن لو اناَ فعلنا ذلك بأنفسنا لكان أفضل اذ اننا كنا

نستطيع أن نتخلص من أسرة محمد على كلها فانه لم يكن فيها حاكم صالح الا سعيد وكنا نستطيع ان نعلن اقامة جمهورية ، وقد اقترح الشيخ جمال الدين على الشيخ محمد عبده أن يقتل اسماعيل عند كوبرى قصر النيل ووافقه محمد عبده على ذلك » .

***

ومن هذا الذى ذكره عرابى يتبين مبلغ حنقه على اسماعيل ، ولولا أن سعيدا كان يعطف على المصريين حقا وان اسماعيل لم يكن يبدو منه ما كان يبدو من سعيد من مظاهر هذا العطف ، لجاز أن يتهم عرابى بأنه يحب سعيدا ويبغض اسماعيل متأثرا بدوافع شخصية .

أما عن اتهام عرابى وزميليه فى هذا الحادث ، فان عرابيا يورد له سببا فهو يتهم اسماعيل بأنه كان المحرض على هذه الفتنة ليتخلص من الوزارة الاوروبية ، ولكى ينفى عن نفسه الشبهة ، فانه اتهم هؤلاء الضباط الثلاثة بأنهم مدبرو الحركة .

يقظة ونهوض

أخذت انجلترا وفرنسا تتنافسان في بسط نفوذهما في مصر منذ حملة بونابرت على هذه البلاد ، ولكنهما وجدتا فى محمد على رجلا يمد سلطانه ولا يفقد ذلك السلطان ، فاكتفت أولاهما بالعمل على تحطيمه وفرحت الثانية بمصادقته . . .

وساقت الاقدار ولاية العهد لإسماعيل قبل موت سعيد ، فاستبشر الناس وارتقبوا الخير في عهد هذا الامير الذى ذاع من صفاته فيهم ما حببه اليهم ، وكانوا قد علموا أنه من ذوى النباهة والحزم وبخاصة في شؤون المال ، ولم يطل ترقب الناس فقد آل اليه الامر عام ١٧٦٣ .

وراحت مصر تستقبل طورا من أطوار تاريخها ، نحار أشد الحيرة ماذا نسميه وباى الصفات ننعته . . . طورا كان غريبا حقا ، تترك غرابته العقول فى دهشة ، وتكلف من يريد الانصاف فى درسه عسراً شديدا .

ما برحت فرنسا وانجلترا تراقبان سير الحوادث في وادى النيل ، أما فرنسا فكانت لا تنى تعمل على أن تزيد نفوذها في مصر ذلك النفوذ الذى وضعت أساسه حملتها على هذه البلاد ، والذى ما فتىء يعظم ويتزايد في عهد محمد على ، وها هو ذا في عهد اسماعيل قد بلغ مبلغا

عظيما حينما اتصل البحران واستطاع دىلسبس أن يجرى بينهما القناة التى سوف تغير مجرى تاريخ هذا الوادى ... وأما انجلترا فكانت دائبة على سياستها تحول دون ظهور قوة فى مصر ، وقد استراحت من محمد على وراحت اليوم تقف فى وجه حفيده وتحرص على أن يظل خاضعا للخليفة ، ولما التقى البحران أصبح همها متجها الى السيطرة على مصر لتسيطر على القناة.

ونصبت كل من الدولتين شباكها وعولت كل منهما على أن تتدخل فى شؤون مصر من طريق المال أولا ثم من طريق السياسة بعد ذلك .

شهدت مصر فى هذا العهد جلائل الاعمال ومظاهر الاستقلال ، كما شهدت عوامل البلى وعناصر الانحلال، شهدت يد التعمير تبعث الحياة والنشاط والقوة فى العاصمة وعلى صفحة الوادى ، وشهدت يد التخريب تهوى بمعولها فى غير رحمة أو هوادة فتزلزل البنيان وتقوض الاركان ، شهدت العظمة الشامخة والثروة الباذخة وشهدت الذلة المستخذية والفقر المستكين ، شهدت دوافع الحرية وشهدت نوازع الاستبداد ، شهدت مواقف البطولة والصدق وشهدت مخازى الدس والبهتان ... شهدت مصر ذلك كله وشهدت زيادة عليه ما تشهده الفريسة تجمعت عليها الذئاب وأوهنها طول الدفاع والجلاد ...

أراد اسماعيل أن يسبق عصره فيما يطلب من أوجه الكمال ، فلن يجمل بمصر وهو واليها أن تكون قطعة من أفريقيا ولا أن تكون جزءا من تركيا ، ولن يهدأ له بال حتى تنتسب مصر الى أوربا ، وحتى تحطم الاصفاد وتطرح عن عنقها نير الاستعباد ...

ولم يمض من عهد هذا الامير الفذ اثنا عشر عاما حتى

غمر مصر فيض من الاصلاح ، وتهيأ لها من أسباب الرقى ما لم يكن يتهيأ مثله فى اقل من قرن اذا سارت الامور سيرها العادى ... ففى تلك الفترة القصيرة وصل بين البحرين وشقت الترع الطويلة تحمل الى انحاء الوادى من مياه النيل وغرينه ما يدرأ عنه رمال الصحراء ، ومدت سكك الحديد وأسلاك البرق ، ونظم البريد ومهدت السبل ، واقيمت الجسور ، وأصلحت الموانىء وشيدت المنائر ، وبنيت المصانع ، وافتتحت دور العلم للبنين والبنات على نحو يذكر بالحمد والاعجاب

وفى تلك الفترة تقلص نفوذ السلطان ، واحاطت بوالى مصر مظاهر السيادة فلقب بالخديو ونظمت ولاية العهد ، وسمح للوالى بمنح الالقاب ، وأطلقت يده فأصلح القضاء وأدخل على النظام الادارى كثيرا من الاصلاح ...

وفى تلك الفترة سارت القاهرة تستبدل حياة بحياة ، ومظهرا بمظهر ، فتتخلص ما وسعها الجهد من أفريقيا ولا تنى تقترب من أوربا ، وراح الخديو العظيم ينشر فيها من مظاهر همته ما جعل أعماله فى هذا المضمار من عجائب القرن التاسع عشر ، وما برحت القاهرة طول عهده غاصة « بالمونة والاحجار » تلك التى كانت هوية الخديو ومسرة فؤاده ...

ولكن اسماعيل وا أسفاه انفق فى سبيل ذلك المجد ما زاد على خمسين مليونا من الجنيهات لم يكن لديه منها شيء يذكر ، ولذلك لم يلبث أن رأى مصر التى اراد ان تكون قطعة من أوربا تساق على رغمه لتكون ملكا لاوربا ! فمن أوربا استدانت تلك الملايين ، ولما عجزت عن دفع دينها كانت رهينة لهذا الدين !

ولما ارادت مصر أن تجد لمشكلتها المالية حلا سنحت الفرصة لانجلترا فراحت تتنكر لمصر وتتربص بها الدوائر

وكان لابد للمسألة المالية أن تنتهى الى ما انتهت اليه من تفلغل الانجليز والفرنسيين فى صميم شؤون مصر .

على أن هـذا التدخل لم يك شرا كله كما اعتاد المؤرخون أن يصوروه ، وحسبنا مما انطوى عليه من عناصر الخير أن قد استيقظت على صخبه وضجيجه مصر ، فانبعثت القومية المصرية ومضت مصر تنفض عن كاهلها غبار القرون على صورة أروع وأقوى مما بدا فى ثورتها على نابليون ثم على كليبر ، ومما ظهر من آمالها وروحها ومشيئتها يوم ذهب أبناؤها وعلى راسهم عمر مكرم والشرقاوى يلبسون محمد على الكرك والقفطان دون أن يرجعوا فى ذلك الى السلطان ...

وتراكمت الديون على مصر حتى أنها لم تك تقل عن تسعين ألف ألف من الجنيهات فى عام ١٨٧٥ ، فمن ديون سائرة كانت فى ذاتها أبلغ ما نال الخديو من معانى الغبن، الى ديون ثابتة فيها أوضح معانى الشره وأقبحها من جانب الدائنين ، الى قروض داخلية لجأ اليها «المفتش» ذلك الذى قام على شؤون مصر المالية فكان فى ذاته عبئا فوق ما أثقلها من عبء ، ومن تلك القروض الدالة على الارتباك والخلل دينا المقابلة والرزنامة ...

عندئذ تحركت انجلترا نحو هدفها ، وكانت أولى حركاتها فى هذا المضمار شراء نصيب مصر من أسهم القناة ، اشتراه دزرائيلى رئيس وزرائها يومئذ بثمن بخس ، ولم يرده عن ذلك عطلة البرلمان فى تلك الاثناء ، وكيف يفوت ذلك الداهية أمر كهذا الامر يجعل مقام بلاده فى القناة كمقام فرنسا أو أعظم ، ويصحح خطأ وقعت فيه انجلترا ألا وهو استهانتها بالمشروع أول الامر ظنا منها أنه لن يتم ، ثم تراخيها فى شراء الاسهم بعد ذلك رغبة فى احباطه ؟

ولكن مصر بعد بيع أسهمها لا تزال فى حاجة الى المال لتدفع به بعض ما جره علبها المال من وبال ، وانى لها المال بعد هذا كله؟ وأية دولة تمد اليها يدها؟ اذا فلتفكر مصر فى الاصلاح ، ولتفكر انجلترا فى اصطياد الفريسة.

طلب الخديوموظفا انجليزيا يدرس لمصر شؤون مالها، ويصلح ما يراه من أوجه الخلل ، فتلكأت انجلترا أول الامر لانها عن دهاء وجشع تحب أن تتدخل ولكنها لا تحب أن تفتح أعين غيرها ...

وجاء الموظف ولكنه كان مزودا من قبل حكومته بأوامر ، فعليه أن يدرس وعليه فوق ذلك أن يحقق ويدقق ثم يرفع الى حكومته تقريرا عما رأى ! وما لهذا أراده اسماعيل فما كان يريد والى مصر الا أن يكون هذا الموظف معينا له على اصلاح مالية البلاد .

ورفع « كيف » التقرير الى حكومته ! وجاد دور دزرائيلى فأعلن فى البرلمان الانجليزى فى غير تردد ولا استحياء انه يرغب عن نشر التقرير لان الخديو رجا منه الا يفعل ، ولعمر الحق ما رجا الخديو منه شيئا ولا أشار الى ذلك من قريب ولا من بعيد ...

ذعر الدائنون وهبطت قيمة أسهم مصر كما يقول رجال المال ، وتلقى الخديو الصدمة العنيفة ممن أمل على أيديهم الاصلاح وقال فى مرارة وغيظ : « لقد احتفروا لى قبرى » وهى كلمة موجعة جامعة ، فبعد هذا التصريح من جانب دزرائيلى سيكون الطوفان...

وما كان فى تقرير «كيف» الا أن مصر « تشكو مما ينتشر فى الشرق من امراض ، منها الجهل والاسراف والاختلاس والاهمال والتبذير ، وأنها تشكو من كثرة النفقات التى سببتها محاولة ادخال مدنية الغرب والتى تترتب على مشروعات لا تجدى نفعا وعلى مشروعات

نافعة ولكنها تنطوى على الخطأ » بل لقد ذكر «كيف» فى عبارة صريحة : « أن مصر تستطيع أن تدفع ما عليها من الديون اذا أحسنت ادارة البلاد » ولكن للسياسة مطامعها وأغراضها ولها من أجل ذلك أساليبها التى كثيرا ما تسخر مما تواضع عليه اغرار الناس من قواعد الخلق والاستقامة .

لم تستطع مصر أن تفلت من دائنيها فكان لابد من اذعانها لمراقبة مندوبيهم واقيم فى مصر « صندوق الدين العام » فكان حكومة صغيرة من الاجانب داخل حكومتها ، ثم وافق الخديو مكرها على تعيين مراقبين أجنبيين : أحدهما انجليزى للدخل ، والآخر فرنسى للصرف ، وعين لهذين موظفين من الاجانب بأجور ضخمة ، وعنى الخديو حقا باصلاح الحال يومئذ ولكن يد الغدر كانت من ورائه تبعث الارتباك وتنصب الشباك .

وقبل الخديو فيما قبل على رغمه تأليف لجنة من الاجانب سميت « لجنة التحقيق العامة » جعل على رأسها دى لسبس ومنحت سلطة واسعة غير محدودة ، فما كادت تعمل حتى اصطدمت ، وكان اصطدامها فى بدء عهدها لسوء حظها ، برجل من رجال مصر كان يتحفز ويتحين الفرصة ليثب وكان هذا الرجل هو محمد شريف باشا ...

استدعت اللجنة شريفا ليمثل أمامها لتستفهمه فتعاظمه الامر فأبى ، فأصرت اللجنة وقد خشيت على هيبتها ونفوذها ، ولكنه خشى هو أيضا على كرامته وكرامة منصبه فأصر كما أصرت ... أيمثل شريف أمام لجنة من الاجانب ؟ ولم لا تنتقل اليه اللجنة وهو العزيز بنزاهته واستقامته ، الكبير بشخصه ومنصبه ، العظيم بوطنيته وكرامته ؟ اذن فليطلق شريف المنصب غير

آسف ، وقد كان ما أراد فاستقال ، وهزت البلاد استقالته بما تنطوى عليه يومئذ من المعانى فلقد كانت وثبة منه فى حينها كأنما جاءت على قدر من الايام ، ففى مصر يتوثب مثله رجال وتخفق بالوطنية قلوب وتضيق من تدخل الاجانب صدور ، وقدر لشريف أن يكون فى تاريخ وطنه من أولئك الاماثل الذين توحى مواقفهم البطولة وتخلق الابطال !

كان فى استقالة شريف معنى الغضب ، ولكنه لم يكن غضب فرد لشخصه فحسب والا لما كان له ما كان يومئذ من خطر ، كان غضب رجل لشخصه ولقوميته معا أمام لجنة من الاجانب تريد أن تظهر بمظهر السيادة ، وتحرص أشد الحرص على ذلك المظهر ، ولذلك كان هذا الغضب ثورة ، وما لبثت تلك الثورة أن بعثت فى كل نفس من نفوس الاحرار ثورة مثلها ، وبذلك تهيأت البلاد لان تثبت للأجانب وجودها ، واغتدى شريف بما فعل أول رجالها ورأس ابطالها .

ورب قائل يقول : وماذا كان فى ذلك الموقف من معانى البطولة ؟ هذا رجل اعتزل منصبه فكيف يكون الاعتزال رجولة ؟ ولكن الذين يعلمون مبلغ نفوذ الاجانب ومبلغ ما منى به المصريون يومئذ من خور وماعرف عنهم اذ ذاك من الحرص على المناصب والالقاب يدركون ما ينطوى عليه موقف شريف من عزة وتضحية ، هذا الى ما سبق استقالته من تحد منه للجنة وسلطانها ، ولو أن الخديو آزر شريفا لما ترك منصبه وكان بذلك يدع اللجنة فى أحرج المواقف كلما أمعن فى عصيانه وترفعه ... ولكن الخديو على جلال قدره طلب الى اللجنة فيما يشبه الرجاء أن تكتفى من شريف بأن يرد على أسئلتها كتابة ، ولما رفضت اللجنة ذلك لم يرد الخديو عليها بعمل أو قول يكون فيه

معنى التأييد لرجله والاستنكار لفعل الاجانب ، ومعنى ذلك أنه لم يبق أمام شريف الا أن يتخذ من استقالته مظهرا من مظاهر الاحتجاج على تدخل الاجانب فى شئون البلاد ، فكان ذلك المظهر أول انذار بالثوره .

أخذت لجنة التحقيق العامة تدرس الحالة ، ولقد جعلت اللجنة هدفها بالضرورة العمل لصالح الدائنين ولذلك لم تأل جهدا فى أن ترجع بكل المساوىء الى الخديو وحكومة الخديو متناسية مافعله الدائنون من مخاطراتهم بأموالهم ابتغاء الربح الوفير وما جره جشعهم على البلاد من دمار ، وما انطوى عليه مكرهم من غدر وبهتان وزور واختلاس .

تعامت اللجنة عما كان يقاسيه الفلاحون يومئذ من شقاء ، ولم تراع فى تقريرها بؤس أولئك الذين أثقلتهم الضرائب وهدهم الجوع ، أولئك المساكين الذين كانوا كثيرا ما يفرون من أرضهم لكثرة ما كان يطلب منهم ، أولئك الذين غمرهم فى سنة من تلك السنين السود سيل جارف لم يكن أقل هولا عليهم من طالبى الضرائب ، الا وهو فيضان النهر على قراهم وأراضيهم ، أولئك الذين أحاط بهم الربويون والامراض معا ، وباتوا يتمنون الموت من قبل أن يلقوه !

وتغافلت اللجنة عن أولئك الاجانب الذين كانوا يهربون بضائعهم وينجون بها من الجمارك ثم لايدفعون عنها شيئا داخل البلاد فى ظل تلك الامتيازات المشؤومة التى كانت من أكبر المساوىء فى مصر ، والتى قل أن يجد المؤرخ مثيلا لما كانت تنطوى عليه من جور ، وما كانت تقوم عليه من باطل وبهتان ، وكذلك تغافلت اللجنة عن أولئك الاجانب الذين تزايد عددهم فى الحكومة المصرية ، والذين كانوا يتقاضون الاجور العالية جزاء على

ما اتصفوا به من الكسل وقلة المروءة وجمود العاطفة ، بينما كانت مرتبات الوطنيين لا تدفع لهم الا فى مشقة وعناء وهى من القلة بحيث كانت تؤدى بالكثيرين الى الاختلاس والتهاون فى العمل ...

واقترحت اللجنة فى قرار تمهيدى أن يتنازل الخديو عن سلطته المطلقة الى وزراء يسألون عن أعمالهم ، أى أن تكون عليهم تبعة ما يعملون ، وأن ينزل عن أملاكه نظير مبلغ معين ، وكذلك تنزل أسرته عن أملاكها ، كل ذلك دون أن تفكر اللجنة فى أن يتنازل الدائنون عن شىء من ديونهم ، وهى تعلم كيف تراكمت تلك الديون وكيف تزايدت أرباحها حتى بلغت ما بلغته .

وقبل الخديو تأليف الوزارة المسئولة فاستدعى نوبار من أوربا وعهد اليه تأليف وزارة يتضامن أعضاؤها فى التبعة وتقوم بالحكم فى البلاد ، ونظر المصريون فاذا وزارة المالية تسند الى رجل انجليزى ، واذا وزارة الاشغال تسند الى رجل فرنسى ، وهكذا يسيطر الاجانب على مصر سيطرة تامة !

ومن غريب أمر هذه الوزارة أنها كانت لا تعبأ بشىء الا بما يرى الاجانب ، فلم يك لمجلس شورى النواب حق اسقاطها ، بل لم يك له حق محاسبتها ، ولم يك للخديو نفسه فى الواقع سلطان عليها ، فكانت الوزارة بهذه الصورة سخرية من سخريات الاجانب هى فى ذاتها من أبلغ نكاياتهم يومئذ بالبلاد وأهل البلاد ...

على أنه سرعان ما دب الخلاف بين الخديو ووزرائه ، أو على الاصح بينه وبين نوبار والوزيرين الاجنبيين ، فلقد كان فى الوزارة رجال غير شريف يدينون بالولاء لحاكم البلاد الاعلى ومن هؤلاء على مبارك ورياض ... وتزايد هذا الخلاف حتى أصبح اسماعيل ولا هم له الا

أن يتخلص من هذه الوزارة التى لم تدع له من السلطة الا اسمها .

وسنحت له الفرصة فى حادث مظاهرة الضباط الذى أشرنا اليه ، فأعلن اسماعيل على أثر الحادث أنه غير مسؤول عن الامن فى البلاد ما دام محروما من السلطان، ومن ثم رأى نوبار أن لا قبل له بمواجهة الحال بعد ذلك فرفع الى الخديو استقالته ، وبذلك تخلص الخديو وتخلصت البلاد من تلك الوزارة التى اعتاد الناس أن يسموها الوزارة الاوربية .

وكانت تولد بالبلاد يومئذ حركة وطنية قوية ، كان باعثها الاول هذا البلاء الذى كانت تعانيه ، ولسوف تلتقى هذه الحركة فيما بعد بالحركة العسكرية التى هى فى جوهرها غضبة قومية على أجانب من جنس آخر هم الشراكسة ، وتتألف من التيارين تلك الثورة التى كان بطلها أحمد عرابى ، والتى تعمد كثير من المؤرخين تشويهها ، والتى أخطأ فهمها عدد منهم ليس بالقليل من جراء ما هوش وافترى كتاب الاحتلال ...

وكان لهذه الحركة الوليدة مركزان : أولهما المركز الرسمى وهو مجلس شورى النواب ، وثانيهما المركز الاهلى وهو بيت السيد البكرى نقيب الاشراف حيث كان يلتقى الاحرار من العلماء والنواب والاعيان وضباط الجيش الناقمين .

وكان قد هبط مصر السيدجمال الدين الافغانى يبث فيها مبادئه ويحمل اليها قبسه ، وكانجمال ذلك الرجل الذى أطلعه الشرق ليضيفه الى كواكبه الزهر ، يرى أن علة العلل فى هذا الشرق المغلوب على أمره أن شعوبه سليبة الارادة تحكم على رغمها وتسخر لحساب الحاكمين ، ولا مخرج لها الا أن تعود حرة كما كانت من

قبل حرة ، ولن يكون هذا الا أن تقوم الشورى مكان الاستبداد ، وأن ينسخ نور العلم ما تراكم فى الشرق من ظلمات بعضها فوق بعض .

وكانت التربة فى مصر صالحة لبذوره فنمت نموا سريعا يحمل على الدهشة ، فما أسرع أنظهرت فى البلاد حركة حرة كأعظم وأجمل ما تكون الحركات الحرة ، وراح تلاميذ جمال الدين يذيعون فى البلاد مبادئه ، يقول فى ذلك الشيخ محمد عبده أنبغ تلاميذه وأحبهم اليه : « وكان طلبة العلم ، طلبة جمال الدين ، ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف الى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه الى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد وبخاصة فى القاهرة » .

***

وظهرت فى تلك الايام الصحافة العربية ، وراح الناس يقرأون فيها نفثات الوطنية وأخذت تهب عليهم من بين سطورها نسمات الحرية ، فانتعشت أرواحهم وهفت الى الانطلاق من الاسر قلوبهم .

وأدى اتصال المصريين بالاجانب ، وقد كثر مجيئهم الى مصر ، الى تتبع الانباء العالمية فى الحرب والسياسة فزادت معرفتهم بأحوال العالم وقارنوا بين حال الشعوب الحرة وبين حالهم ، وراحوا يستنبطون أسباب ما باتوا فيه من شقاء وذلة .

وبهذه العوامل مجتمعة قام فى مصر رأى عام يعد شيئا جديدا حقا فى تاريخها الحديث ، فقد اشتد الوعى القومى ، وكان من أكبر بواعثه ، ذلك العدوان الذى أسرف فيه الاجانب على مصر فى غير حياء أو مبالاة .

أخذت تشتد الروح الوطنية وتتغلغل فى النفوس ،

وكان شريف باشـــا يرقب حركة الاحرار الذين كانوا يجتمعون فى بيت البكرى، وكان لايفتأ ينصح لهم ويشير عليهم بما يعملون ، وكان يتمنى أن يتخـــذ منهم قوة يناوىء بها الاجانب ويحد من سلطان الخديو ، ولن يتم ذلك فيما يرى الا أن يكون الوزراء مسئولين أمام نواب الامة كما هو الحال فى المجالس الاوربية التى تسير وفق القواعد الدستورية ...

وسقطت الوزارة الاوربية ، ولكنها ألفت ثانية برئاسة الامير توفيق ، فلقد رفض قنصلا انجلترا وفرنسا أن يرأس اسماعيل نفسه الوزارة كما طلب ، ولقد أرادت الدولتان على لسان قنصليهما أن يدخل نوبار الوزارة الجديدة فرفض الخديو وصـــمم على الرفض ، ورأت الدولتان مبلغ حرص اسماعيل على ابعـــاد نوبار ، فاشترطتا لقبول ذلك أن يعطى العضـــوان الاوربيان فى الوزارة حق «الفيتو» على قرارات مجلس الوزراء ورضى اسماعيل بذلك ، فصار للعضوين الاوربيين حق ايقاف أى قرار لمجلس الوزراء لايوافقان عليه ، ومعنى ذلك أنهما يحكمان البلاد حكما لا يدع للخديو فى مصر سـلطة أو ظلها ...

وآن لمجلس شورى النواب أن يخطو خطوة ما كان أعظمها من خطوة ، نمى الى المجلس فيما نمى اليه من أنباء الوزارة الاوربية أنها تأتمر بالمجلس وتنوى التخلص منه ، فصمم الاعضاء ألا يتفرقوا وأن يظلوا فى أماكنهم للنظر فى شئون البلاد فى تلك الآونة العصيبة... ألسنا نرى فى ذلك صورة مما حدث فى فرنسا فى مستهل عهد ملكها لويس السادس عشر، حين اشتدت الضائقة المالية ورأى نواب الشعب وجوب العمل على وضع حد لسوء الحال ؟ ولسوف تؤدي الظروف الى أن يصـــبح ذلك

المجلس الذى لم يكن له حول ولا قوة ، هيئة تحاسب الوزراء على أعمالهم وتملك اقصاءهم عن مناصبهم اذا تهاونوا فى حقوق البلاد ، ولقد كان لشريف باشا الفضل كل الفضل فيما ناله المجلس من حقوق حتى ليعد شريف بذلك مؤسس الحركه الدستوريه فى مصر .

وكان المجلس فى وزارة نوبار قد أرسل الى السير ريفرز وزير المالية يدعوه ليحضر أمامه ليسأله عن بعض الامور فسوف وماطل، ثم لم يحضر أو يرسل الى المجلس شيئا مما طلب المجلس أن يطلع عليه من المشروعات ، وضاق المجلس بما فعل وزير المالية ، وفسر عمله بأنه اهانة موجهة الى الامة المصرية فى أشخاص نوابها ...

وفى وزارة الامير توفيق استصدر وزير الداخلية وهو يومئذ رياض باشا أمرا من الخديو الى النواب بأن مدة مجلسهم قد انتهت فعليهم أن ينفضوا ، وذهب رياض يتلو على النواب هذا الامر ، وهنا وقف النواب وقفة جديرة بأن تفخر بها مصر فيما تفخر به من مواقف البطولة ، فلقد رفضوا أن يذعنوا ، وهددوا رياضا بما عسى أن يقع من الحوادث فى البلاد بسبب سياسة الوزارة ، وجعلوا تبعة ذلك عليها ، ولكم نرى من أوجه الشبه بين موقف هذا المجلس ومجلس طبقات الامة فى فرنسا ، حين وقف فيه نواب الشعب الفرنسي يتحدون قرار الملك على أثر صيحة ميرابو المدوية التى نقلت تاريخ فرنسا من فصل الى فصل .

ولكن النواب هنا لم يكونوا فى الحقيقة يتحدون الخديو ، فقد كانوا يعلمون انه يعطف على حركتهم ليتخلص بهم من تدخل الاجانب فى شئون مصر ، ذلك التدخل الذى حرمه كل سلطة ، وانما كان النواب

يتحدون الوزارة الاوربية ويريدون أن يأخذوا السبيل عليها ...

وكانت مطالب المجلس يومئذ تنحصر فى المسألتين الدستورية والمالية ، أما أولاهما فتتلخص فى أن تكون الوزارة مسئولة أمام المجلس بحيث يصبح هيئة لها مكانها الفعلى فى حكومة البلاد ، وأما الثانيه فمؤداها أن يبحث المجلس المسألة المالية دون الاجانب ، وأن يقرر فى أمر الدين والضرائب ما تمليه عليه مصلحة البلاد .

وأصر النواب على ماطلبوا فكانت حركتهم هذه حركة قومية الى أقصى ما يتسع له معنى هذه الكلمة ، وكان يظاهر النواب أحرار البلاد من العلماء والاعيان والتجار، الذين لم تنقطع اجتماعاتهم فى بيت البكرى ، وأخيرا اتفقت كلمتهم جميعا على أن يتوجهوا الى الخديو بما عرف باسم اللائحة الوطنية ، وفيها يعترض النواب على اقتراحات ريفرز ولسن التى كانت ترمى الى اعلان افلاس مصر ويقررون أن ايراد مصر يفي بدفع ديونها ، ويطلبون الى الخديو تقرير مبدأ مسئولية الوزارة أمام المجلس ، وتأليف وزارة وطنية تقوم مقام هذه الوزارة الاوربية التى ضاقت بسياستها البلاد .

ولقد وضعت هذه اللائحة لجنة من النواب تحت اشراف شريف ، فكانت هذه اللائحة الخطيرة كبرى حسناته الى هذه البلاد ، كما كانت أهم خطواته السياسية وأبعدها أثرا فى مجرى الحوادث ، ووقع على اللائحة ستون من أعضاء المجلس ، ومثلهم من العلماء وفى مقدمتهم شيخ الازهر كما وقع البطريرك والحاخام، وكذلك وقع عليها عدد كبير من الاعيان والتجار والموظفين والضباط ، ودفعت بعد ذلك الى الخديو فرأى أن قد حان الوقت ليوجه الى النفوذ الاجنبى ضربة قوية ،

فالبلاد من ورائه تشد ازره ولذلك لم يتردد فى الموافقة على اللائحة ، وسرعان ما هزت البلاد فعلته هزة قوية ، هى هزة الفرح بانتصار الحركة الوطنيــة والامل فى مستقبل تحطم فيه البلاد أغلالها وتنعم بالراحة والرخاء

واســتقالت وزارة توفيق ، فاتجهت الابصــار الى شريف واتفقت عليه القلوب والاهواء وما لبث أن تضاعف سرور البلاد بان أسندت اليه رئاسة الوزارة الوطنيــة وأصبح شريف زعيم الحركة الوطنية ورئيس وزارة الامة

وراح الخديو يكيد للأجانب كيدا شديدا ، وظهر كمن يريد أن يثأر لنفسه فلم يكتف باجابة الوطنيين الى ما طلبوا ، بل لقد ذهب الى حد مشاركتهم مظاهر ابتهاجهم بالعهد الجديد حتى لقد حضر بنفسه حفلا أقامه فى داره السيد على البكرى ودعا اليه كبار رجال الحركة الوطنية فكان موقف الخديو فى ذلك موقف الزعيم .

وتلقى الاجانب الضربة ولكنهم لم يطيشوا أو يذهلوا عما يجب عليهم أن يعملوا ازاء موقف الخديو ومن أجل ذلك لقيت وزارة شريف منهم عنتا بالغا ، فتبددت فى ضوضـــائهم كل دعوة الى الحكمة وضرب الحقد على آذانهم وجعل الغضب على أبصارهم غشاوة ...

ولكن شريفا ظهر يومئذ بمظهر جدير بالاعجاب حقا ، فلا هو خشى جانب الاجانب فتخاذل عما هو بسبيله ، ولا هو مال كل الميل فانقلبت سياسته شططا ، وبذلك جمع شريف بين حمية الوطنى الثائر وكياسة السياسى الماهر وروية المجرب البصير ...

احتج الاجانب على أبعاد الوزيرين الاوربيين واستقال كثير منهم من مناصـــبهم ، وراحت انجلترا وفرنسا تتهددان الخديو وحكومتــه وتنـــددان بهما ، وتوجه الدائنون الى المحاكم المختلطة فرفعوا أمامها القضايا ،

وأعلنت لجنة التحقيق أن الحكومة مفلسة منذ أكثر من عامين ، ولما عرض شريف على هؤلاء الاجانب الصاخبين استعداده لاعادة المراقبة الثنائية وفق ما كانت تقضى به تعهدات الخديو فى حالة ما اذا أخرج الوزيران الاجنبيان أو أحدهما ، رفضوا ذلك الحل مبالغة منهم فى الكيد ، ورغبة فى زيادة الامور حرجا وتعقيدا ؟..

ولكن شريفا لم يلوه حرج الموقف عن وجهته ، وما كانت وجهته الا أن يجعل مرد الامور الى الامة ، ولئن كان يمقت تدخل الاجانب فانه كان كذلك يكره استبداد الخديو بالامر أشد الكراهية ، لذلك جعل محور سياسته أن يكون الوزراء مسئولين أمام مجلس شورى النواب ، وتم له ما أراد فجاء فى كتاب الخديو اليه بتأليف الوزارة عبارات لا تقبل تأويلا فيها يذكر الخديو أنه يرجع بالامور الى الامة ويوافق على مسئولية الوزارة أمام مجلسها .

***

بهذا كان شريف كما ذكرنا أبا الدستور فى مصر فان ذلك المجلس الذى تعهده برعايته منذ نشأته سنة ١٨٦٦ قد تمت له السلطة على يديه سنة ١٨٧٩ فصار الحكم فى مصر دستوريا لا يشوبه شائبة مهما يقل القائلون فى طريقة الانتخاب يومئذ وجهل سواد الناس بأصول الحكم

أجل ان العهد الدستورى فى مصر يرجع الى سنة ١٨٧٩ ، وهذا الدستور انما نالته مصر بجهاد بنيها ، وما كان دستور سنة ١٩٢٣ الا الدستور الثاني للبلاد أو بعبارة أخرى ما كان الا توقدا لتلك الجمرة التى ظلت مطمورة تحت رماد الاحتلال حتى جاء سعد فخلف عرابيا فى قيادة الحركة القومية فأزاح ذلك الرماد ونفخ فى تلك الجمرة فأوقد نارها .

لم تكد البلاد ، وا أسفاه تفرغ من مظاهر فرحها حتى

جاءت الانباء بعزل عاهلها اذ ما زالت انجلترا وفرنسا بالسلطان حتى استطاعتا اقناعه بعزل اسماعيل فخلفه على اريكة مصر ابنه توفيق ، وبخروج اسماعيل من مصر فقدت البلاد الرجل الذى كان يمكن الاعتماد عليه فى مناهضة نفوذ الاجانب .

ورفع شريف استقالته الى الخديو الجديد كما تقضى التقاليد الدستورية ، فطلب اليه الخديو اعادة تأليفها وأشــار توفيق صراحة فى أمره وخطابه أمام مجلس الشورى ميله الى العطف على الامانى القومية كما تظهر فى الحركة الدستورية الوطنية ، وسار شريف على نهجه الدستورى يدعم ما بنت يداه ويجتهد فى توطيد أسسه .

ولكن توفيقا ما لبث حين وصل اليه فرمان توليته أن تنكر للحركة الوطنيــة فما كان فى موقفه الاول الا مدعيا يكتسب الوقت فلما اطمأن الى منصبه بدأ سياسته الجديدة بأن رفض أن يجيب رئيس وزرائه الى ما طلبه بشأن توسيع مجلس الشورى ووضع نظام الحكم على أساس دستورى ثابت ، ورأى شريف فى هذا نية اقصائه عن الحكم فاستقال ، وجاءت استقالته هذه المرة كذلك عاملا قويا من عوامل اذكاء الروح الوطنية واشعال جذوتها

وما كان أحوج الخديو يومئذ الى شريف دون غيره من الرجال ، أجل ما كان أحوجه الى ذلك الرجل الذى كانت تجتمع فيه الرجال ، وتلتقى فى سياسته الآمال .

وما أشبه توفيقا بملك فرنسا لويس السادس عشر ، ذلك الملك المسكين الذى قال عنه بعض المؤرخين انه ورث عن أسلافه الثورة والعرش معا ، فلقد تجمعت عوامل الثورة الفرنسية قبل عهده ، وما زالت تنمو وتتزايد ، وما زالت تلك الاقلام الجبارة أقلام فلتير ، وروسو ، وأضرابهما تحدوها وتمهد الطريق لها حتى جاء عهـــد

ذلك الملك فانفجر البركان وكانت الراجفة التى زلزلت فرنسا زلزالا شديدا .

وأرى توفيقا قد ورث عن سلفه كذلك العرش والثورة فلقد تجمعت عوامل الثورة العرابية فى عهد ذلك الخديو المخلوع ، ثم راحت تحدوها وتمهد لها أقلام جمال الدين وتلاميذه حتى جاء عهد توفيق فرجفت الراجفة .

وما كانت الثورة العرابية حركة عسكرية فحسب كما يحلو لكثير من المؤرخين أن يصوروها عن عمد ، أو عن غفلة ، وان الذين يفعلون ذلك منهم ليأتون من ضروب الخطـأ ما نعجب كيف يحملون على قبوله أنفسهم وعقولهم ، وانما كانت الثورة العرابية اذا أردنا وصفها فى جملة هى التقاء الحركتين الوطنية ، والعسكرية ، واندماجهما ، فلما ذهب عرابى الى الخديو على رأس جنده فى اليوم التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ ذهب يحمل اليه مطالب الجيش ومطالب الامة معا ، ومن ذلك الوقت صار سلاح الثورة السيف وقد كان سلاحهـا القلم ، أو بعبارة أخرى حارت قيادتها بين السيف والقلم

ما لبث المصريون كما أسلفنـا أن فجعوا فى آمالهم بتدخل الدولتين تدخلا جريئا فى شئونهم أدى الى عزل الخديو وتركهم ذاهلين تتنـازع أفئدتهم عوامل الحنق والخوف والتشاؤم من المستقبل .

وتولى قيادة السفينة توفيق ، فما كادت تسير حتى اكتنفتها الرياح الهوج ، وقامت أمامها العقبات من كل جانب ، فها هم أولاء المصريون تتأجج نيران الحقد فى قلوبهم على الاجانب ، ولن يطيقوا بعد اليوم أى جنوح اليهم ، وها هى ذى انجلترا تتحفز وتتربص ، ثم ها هى ذى فرنسا تتحين الفرص لتتغلب على منافستها ، وهناك تركيا جاءت آخر الامر تطلب أن تعيد سلطانها فى مصر

سيرته الاولى فتردها الدولتان المتنافستان على عقبيها .

والربان غير عليم بالسياسة وأنوائها ، ولكنه على الرغم من ذلك يستغنى عن أعلم رجاله بها ، فتخلص من شريف وهو أحوج ما يكون اليه ، وتنكر للحركة الوطنية وكان حقيقا أن يعطف عليها عسى أن يحبه الوطنيون وعسى أن يحملهم هذا الحب على تناسى ما لحق بمنصب الخديوية من هوان صغر به فى أعينهم ، ولكن توفيقا غفل عن هذا أو تغافل عنه لما رآه من اقصاء أبيه عن منصبه على ما كان له فيه من جاه وقوة .

وحل رياض محل شريف فآلم ذلك دعاة الحركة الوطنية وأزعجهم أن يروا رياضا يجارى الخديو فى استكثاره الدستور على المصريين فيقنع بما لايقنع به وطنى مكتفيا بمبدأ مسئولية الوزارة عن أعمالها مستغنيا عن مجلس شورى النواب الذى يحرص عليه الوطنيون كل الحرص .

وجاء قانون التصفية فى عهد رياض فازداد به الوطنيون آلاما على آلامهم ، ورأوا ما فيه من غبن شديد يتجلى فى الغاء دين المقابلة ، وقد اخذ من جيوبهم ، كما رأوا فيه ما هو أكثر من الغبن الا وهو عدم تنازل الاجانب عن شىء من الدين وهم يعلمون كيف كانت تقترض الاموال ومبلغ ما كان يصل مصر منها ، وهم يعلمون كذلك ما كان من مجازفة الاجانب بأموالهم مما يلقى عليهم كثيرا من التبعة ، هذا الى أنهم رأوا مرتبات الموظفين الاجانب فى الحكومة المصرية تبقى على حالها من الارتفاع ، فلم يدر بخلد من وضعوا تلك التصفية أن يراعوا ذلك فى قرارهم فينزلوا بها الى الحد اللائق ...

تلك هى الحركة الوطنية ، أو تلك هى نذر الراجفة ،

وما كانت الحركة العسكرية التى بدأت فى عهد اسماعيل واستفحل أمرها فى عهد توفيق الا بعض هذه الحركة الوطنية العامة ، حتى قدر أن يكون لها القيــادة آخر الامر وأن تسمى بالثورة العرابيــة نسبة الى الجندى الوطنى الثائر أحمد عرابى .

الجندى الثائر

بدأت الثورة العسكرية كما اسلفنا فى عهد اسماعيل ، وكان أول مظهر لها ذلك الحادث الذى اعتدى فيه فريق من الضباط على نوبار أمام وزارة المالية ، وكان ما دفع الضباط الى ذلك الحادث فى الواقع أو ماجعل التحريض أيا كان مصدره ، يحدث أثره فيهم ، ما لحقهم من الضيق بسبب الاستغناء عن عدد كبير منهم ومن تأخر مرتباتهم عنهم ، بينما كان لايلحق بالشراكسة فى الجيش شىء من هذا ...

ويذكر بلنت فى كتابه « التاريخ السرى » حركة لنفر من الضباط المصريين فى شهر مايو سنة ١٨٨٠ ، وكان من بينهم أحمد عرابى . وخلاصة هذه الحركة كما يصفها بلنت ، أن هؤلاء الضباط قدموا شكوى الى وزارة الجهادية من تأخر مرتباتهم ، ونظرت الوزارة فى الامر ، وكان قنصلا انجلترا وفرنسا قد تدخلا فيه والفت لجنة لتحقيق المسألة ، وقد أقرت هذه اللجنة مطالب الضباط ، ولكن رياضا ووزيره رأيا فى ذلك العمل القانونى حركة جريئة ، وخروجا على النظام .

ويقول بلنت : ان قنصل فرنسا البارون دى رنج أبدى كثيرا من العطف على هؤلاء الضباط ، وأصبح محبوبا لديهم ، وكان بين هذا القنصل وبين رياض كثير من الحزازات ...

وكان لعرابى كما يذكر بلنت نشاط ملحوظ فى هذه الحركة ، ولكنه كان معتدلا حتى لقد اكتسب باعتداله ثناء القناصل عليه .

ويتهم بلنت الخديو بأنه وجد فى هذه الحركة فرصة للدس والكيد لوزيره رياض ، فاتصل بالضباط وكان رسـولـه اليهم على فهمى رئيس الآلاى الاول لحرس الخديو ، وكان على فهمى صديقا لعرابى وان لم يكن له ضلع فى هذه الحركة ولا وجهة معينة فى السياسة ...

ويذهب بلنت الى القول بأن توفيقا أخبر الضباط على لسان على فهمى بأن رياضاً ووزير الجهادية يبيتان لهم الكيد، وانهم أن لم يعملوا على اقصائهما عن منصبيهما حاق بهم السـوء ، ولن يبخل الخديو بمعاونتهم لانه يعطف على مطالبهم ...

ولو صح هذا الذى يرويه بلنت لكشف لنا عن جانب من ضعف توفيق ، ذلك الذى يستعين بالضباط على وزيره ، لان يده كانت مغلولة عنه بسلطة الاجانب .

ولكن هذا الذى يذكره بلنت لم يرد ذكره فيما كتبه عرابى فى مذكراته ، ولا فى ذلك الموجز الذى كتبه لبلنت فأثبته فى آخر كتابه ، وما كان عرابى ليسهو عن أمر كهذا لا يخفى ما له من اهمية .

وكذلك لم أقع على ذكر هذا الذى ينسب الى الخديو فيما تناولته من الكتب التى عنيت بتفاصيل الحركة العسكرية ، ولعل بلنت ينفرد بهذه الرواية .

على أن مسلك الخديو لو صحت الواقعة أمر لا يستغرب، فقد استعان اسماعيل نفسه بالضباط على نوبار وزميليه من قبل ، اذ عجز عن مناوأتهم مناوءة علنية خوفا من الاجانب ...

استغنى عن عدد كبير من الجند الوطنيين فى أوائل

عهد توفيق حتى نزل عدد الجيش المصرى عما اتفق عليه فى بداية هذا العهد ، وولى وزارة الجهادية فى حكومة رياض عثمان رفقى الشركسى ، وكأنما جعل هذا الوزير أساس سياسته الكيد للمصريين ما وسعه الكيد ، فلقد راح يذيقهم من كيده ونكاله بقدر ما راح يفيض على الشراكسة من عطفه واحسانه ، ولم يكن ذلك عجيبا من جانبه ، ففى دمه ما فى دم بنى جنسه من بغض قديم للمصريين الذين كانوا فى رأيهم فلاحين لا يصلحون الا ليكونوا عبيدا ...

وكان طبيعيا أن يجعل هـذا الوزير الشركسى أكثر الترقيات فى الجيش للشراكسة ، وأخذ عثمان رفقى يعد مشروع قانون يمنع به ترقية الجند من تحت السلاح لكى يبقى الشراكسة فى الجيش هم العنصر الذى يسود

أما عن كبار الضباط فقد بدأ يعزلهم أو يقصيهم عن مواضعهم ، كما حدث فى أمر احمد عبد الغفار قائمقام السوارى ، اذ عزله رفقى وعين مكانه أحد الشراكسة وهو شاكر طمازة ، وكما حدث فى نقل عبد العال حلمى الى عمل فى ديوان الوزارة ووضع شركسى مكانه طاعن فى السن لا كفاءة له وهو خورشيد نعمان .

وأما عن الجند فقد كانت الحكومة تسخرهم فى أعمال لا تمت بصلة الى الجندية كحفر الترع والزراعة فى أرض الخديو وغير ذلك ، ومما هو جدير بالذكر هنا أن عرابيا عارض معارضة شديدة فى أن يعمل جنوده فى حفر الرياح التوفيقى ، وهذا بلا شك موقف من مواقف شجاعته ، تلك الشجاعة التى يأبى خصومه أبدا الا أن يروها تهورا ، والتى نراها فى أكثر الاحوال على خير ما تكون شجاعة أولى الحمية والاخلاص من الرجال ، وأى مأرب كان لعرابى فى مثل هذا الموقف وفيم تكون معارضته فى أن

يسخر جنده فى مثل تلك الاعمـال اذا لم يكن مبعثها الانصاف والغيرة ؟ وما يكون انصافه وغيرته فى موقف كهذا الا بسالة واقداما .

وكان رجال الجيش بوجه عام يحسون قلة عنـاية الوزارة بالامور العسكرية بل كانوا يلمسون اهمالها هذه الامور فى الوقت الذى اولت فيه شيئا من عنايتها غيرها من المسائل ...

ولو ان الوزارة عالجت هذه الحال بما يقتضيه العدل والانصاف لما قدر للحركتين : الوطنية ، والعسكرية أن تمتزجا فيكون منهما تلك الثورة التى اقترنت باسم عرابى.. لكن كان دون علاجها عقبات ؛ فهناك تعصب رفقى وغطرسته ، وجهل رياض بالشئون الحربية وترفعه عن هؤلاء الفلاحين من الجند، لانه كان يترفع عن الفلاحين جميعا ، ثم هناك دسائس الشراكسة فى الجيش وكيدهم للمصريين ذلك الكيد الذى لم يكن يفتر ...

علم عرابى بما اراده عثمان رفقى بكل من أحمد عبد الغفار وعبد العال حلمى قبل أن ينشر ، اذ كان مدعوا الى وليمة بدار أحد الباشوات ، وقد أنبأه هناك أحـد أصدقائه بما اعتزمه رفقى فقال عرابى غاضبا : « ان هذه لقمة كبيرة لايقوى عثمان رفقى على هضمها » كما جاء فى مذكراته ، ويقول عرابى فى تلك المذكرات : «وبعد تناول الطعام جاءنى ضابط وأخبرنى بأن كثيرا من الضباط ينتظروننى بمنزلى فتوجهت اليهم فى الحال فوجدت من ضمنهم الاميرالاى عبد العال بك حلمى حكمدار الآلاى السودانى الكائن مركزه فى طره ، والبكباشى خضر أفندى من الآلاى المذكور أيضا ، وعلى بك فهمى أميرلاى الحرس الخديوى بقشلاق عابدين والبكباشى محمد أفندى عبيد من الآلاى المذكور، والبكباشى ألفى أفندى يوسف من

الآلاى الرابع البيادة حكمداريتى ، والقائمقام أحمد بك عبد الغفار من الآلاى السوارى وغيرهم . وكانوا جميعا فى هياج عظيم اذ بلغهم صدور أوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم ، فلما رأونى أفضوا الى بما سمعته من نجيب بك واسماعيل باشا كامل من قبل ، فقلت لهم :

قد سمعت هذا من غيركم فماذا تريدون ؟ قالوا : وليس الامر كذلك فقط ، بل انه قد كثر اجتماع العنصر الشركسى فى منزل خسرو باشا الفريق وهم يتذاكرون فى تاريخ دولة المماليك فى كل ليلة بحضور عثمان باشا رفقى ويلعنون خيرى بك لتسليمه واذعانه للسلطان سليم ، ويقولون انه قدحان الوقت لرد بضاعتهم اليهم ، وأنهم لايغلبون من قلة، وظنوا أنهم يملكون مصر ويستبدون بها كما فعل أولئك المماليك من قبل ، ثم عقب الضباط بأنهم قد تحققوا صدق تلك الانباء ممن يوثق بخبره ، فقلت : وماذا تريدون اذن ؟ فقالوا : انما جئناك لنرى رأيك ؟ فقلت : رأيى أن تطيبوا نفوسكم وتهدئوا روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا اليهم النظر فى مصالحكم ، وهم يتخذون من بينهم رئيسا لهم يثقون به كل الثقة ويسمعون قوله ويطيعون أمره ، ويحفظونه بمعاضدتكم اذا أرادت الحكومة به شرا ، فقالوا كلهم :

انا فوضنا اليك هذا لامر ، فليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك . فقلت : كلا ، بل انظروا غيرى وأنا أسمع له وأطيع وأنصح له جهدى ، فقالوا : انا لا نبغى غيرك ولا نثق الا بك ، فأبنت لهم أن الامر عصيب ولا يسع الحكومة الا قتل من يتصدى له فقالوا : نحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا فقلت لهم : أقسموا لى اذن على ذلك فأقسموا ، وفى الحال كتبت عريضة الى رئيس النظار مصطفى رياض باشا مقتضاها الشكوى

من تعصب عثمان رفقي باشا لجنسه واجحافه بحقوق الوطنيين وطلبت فيها أولا : عزل ناظر الجهادية المذكور وتعيين غيره من أبناء الوطن عملا بالقوانين التى بأيدينا ثانيا : تشكيل مجلس نواب من نبهاء الامة تنفيذا للأمر الخديوى الصادر عقب ارتقائه مسند الخديوية ، ثالثا ابلاغ الجيش العامل الى ١٨٫٠٠٠ تطبيقـــا للفرمان السلطانى ، رابعــا : تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للعدل والمساواة بين جميع الموظفين بصرف النظر عن اختلاف الاجناس والمذاهب .

ثم تلوت العريضة المذكورة على مســامع الحاضرين فوافقوا عليها ، وأمضيتها بختمي وختم على بك فهمي وعبد العال بك حلمى ، وبعد ذلك صار ترتيب ما يلزم لحفظ الخديو والعائلة الخديوية والوزراء اذا حدث أي حادث من الضباط الشراكسة مع ترتيب ما يلزم لحفظ البنوك وبيوت التجار الاجانب والوطنيين من مطامع الرعاع ، وكذلك ما يلزم لحفظنا من بطش الحكومة اذا أرادت الايقاع بنا ، وانتهى الاجتماع على ذلك » .

ويتضح من اجتماع الضباط بمنزل عرابى على هذه الصورة وفيهم من لم ينلهم فى أنفسهم شيء من الاذى ان السخط على رفقى كان من كل قلب ، وأن المسألة في حقيقتها كانت شعورا قوميا تجاه تعصب هؤلاء الشراكسة وعلى رأسهم كبيرهم الذى يمكن لهم على حساب المصريين أو الفلاحين كما كانوا يسمونهم ، وفى هذا أبلغ رد على الذين تشاء لهم أهواؤهم أو يدفعهم جهلهم الى تشويه ما كان يدفع عرابيا الى التمرد من نبيل الشعور ، وذلك بقولهم : انه كانت تحركه دوافع شخصية .

ويجدر أن نبين هنا لماذا انضم اليهم رجل مثل على فهمى وقد كان فى حرس الخديو ، والواقع أنه فعل ذلك

نتيجة لسياسة رفقى كذلك ، فقد وشى به رفقى عند الخديو حتى غيره عليه ، وأحس فهمى أن مكانته عند توفيق لم تعد كما كانت ، فانطوت نفسه على الضغن وصمم على أن ينتقم من رفقى متى سنحت الفرصة ، وما لبث أن أحس مثلما كان يحسه عرابى من كراهية هؤلاء الشراكسة جميعا ، والتعصب للقومية المصرية ، وهو بلا ريب نتيجة لتأثره بشخص عرابى بعد مصاحبته وتفطنه الى ميوله وأفكاره .

يذكر عرابى فى مذكراته هذه أنه قد جاء فى الشكوى تشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش ، ويذكر ذلك أيضا فى التاريخ الموجز الذى كتبه عن نفسه وأثبته بلنت فى آخر كتابه ، ولكنى لم أقع فى مصدر آخر على أن العريضة احتوت المطالبة بتشكيل مجلس نيابى وزيادة عدد الجيش ، ولقد علق بلنت على ذلك قائلا : « أظن أن عرابيا قد وقع هنا فى خطأ فخلط بين ما احتوته العريضة وبين هذين المطلبين اللذين جاءا فيما بعد يوم ٩ سبتمبر ، ولكن عرابيا أصر على أن المطالب الثلاثة جاءت أول ما جاءت فى فبراير وأنها كتبت يومذاك » . وقد عرض بلنت ماكتبه عرابى عن تاريخ حياته على الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٣ فى منزله بعين شمس فأقر أكثره ولكنه وضع ملاحظاته على بعضه ومنه محتويات تلك الشكوى ويؤكد الشيخ محمد عبده أنه لم يكن فى تلك الشكوى أية اشارة الى تشكيل مجلس نواب أو الى زيادة عدد الجيش .

ويقول كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » : « لقد جاء فى العريضة أن وزير الحرب عثمان باشا رفقى عامل الضباط المصريين فى الجيش معاملة غير عادلة فيما يتصل بالترقية ، وقد سلك فى ذلك مسلكا كما لو كان هؤلاء أعداءه أو كما لو أن الله قد أرسله ليصب غضبه على

المصريين ، وقد طرد الضباط من فرقهم بغير تحقيق قانوني وعلى ذلك فقد طلب الشاكون مطلبين : أولهما ، أنه يجب اقصاء وزير الحرب لانه غير كفؤ لهذا المنصب العالي ، وثانيهما ، أنه يجب أن يجرى تحقيق يتناول مبلغ كفاءة الذين ظفروا بالرقى » .

هذا ما ذكره كرومر عن محتويات الشكوى ولو أنه كانت بها اشارة الى ذينك المطلبين اللذين أشار اليهما عرابى ما أغفلهما كرومر لما يكون لمثلهما من خطر فى ذلك التاريخ الذى يكتبه ...

ويقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعي فىكتابه « الثورة العرابية » : « ويلوح لنا أن ورود هذه المطالب كلها فى عريضة الضباط أمر مبالغ فيه ومشكوك فى صحته ، فالمستر بلنت ــ وقد قص له عرابي واقعة قصر النيل ــ يقول : ان العريضة كانت مقصورة على عزل عثمان باشا رفقى من منصبه ، والشيخ محمد عبده ينفى رواية عرابى ويقول ان العريضة تتضمن الشكوى من الحيف الذى وقع بالضباط من عثمان رفقي وطلب عزله ، وانه لم يرد بها أية اشارة الى الدستور أو الى زيادة الجيش الى ١٨٫٠٠٠ جندى ، وقال على باشا فهمى فىاستجوابه ان العريضة مقصورة على طلب عزل عثمان رفقى، وذكر البارون دى رنج قنصل فرنسا العام فى مصر فى رسالته عن واقعة قصر النيل أن العربضة مقصورة على اعادة قائمقام الفرسان » ويرى الاستاذ الرافعى أن عرابيا « حين كتب مذكراته بعد وقوع حوادثها بسنين خلط بين مطالب الضباط فى واقعة قصر النيل ومطالبهم بعد انتصارهم فيها » .

وأنا أميل الى ما ذهب اليه الرافعى ، وأحس أن عرابيا لم يعن بالدقة فى بعض تفاصيل هذا الحادث

ومنها ما احتوته العريضة ، فقد ذكر فى ذلك التاريخ الموجز الذى كتبه لبلنت بناء على طلبه أنه علم فى بيت نجم الدين باشا أن عثمان رفقى كان ينوى عزله وعزل عبد العال ، وهذا يخالف ما جاء فى مذكراته ، وكذلك جاء فى ذلك الموجز أن عبد العال اقترح عليه حينما وافاه ومن معه فى منزله الذهاب الى بيت عثمان رفقى والقبض عليه أو قتله ، وأنه رد على عبد العال قائلا : «كلا ، بل نشتكى الى رئيس الوزراء ، فان لم يقبل فالى الخديو» ، وهذا أيضا يخالف ما جاء فى المذكرات ، ومنه يحس المرء أن عرابيا كان يكتب من ذاكرته أحيانا ولذلك كان يختلط عليه الامر فى بعض المسائل .

ومهما يكن من أمر محتويات العريضة ، فالذى تكاد تتفق عليه الروايات أن الضباط طالبوا بعزل عثمان رفقى من منصبه وليس هذا بالامر الهين ، بل انه لجرأة عظيمة فى عهد كذلك العهد ...

يذكر عرابى فى مذكراته أنه بين للضابطين خطورة الحركة ، ولكنهما أصرا عليها فطلب اليهما أن يقسما أمامه أن يخلصا له النية ، ولنا أن نتساءل هنا ، لم اختير عرابى قائدا لهذه الحركة دون غيره ، وقد كان فهمى فى حرس السراى وله صلات برجال الحاشية ، ولم يكن عبد العال دون عرابى مرتبة وخبرة ؟ لم عقد الضباط اجتماعهم فى داره وأرسلوا يطلبونه وقد نمى اليهم مما يدبر رفقى ما نمى ؟

ان اختيار رجل من الرجال دون غيره لقيادة حركة من الحركات أمر ينطوى لاريب على معنى ، فما ولدت الزعامة فى الغالب الا على هذه الصورة ، ففى ذلك الرجل توجد صفات يتميز بها من سواه فتجتمع عليه القلوب والاهواء فى لحظة لا يكون للتنافس الشخصى فيها مجال ،

وهذا فى رأيى من أفضل مقاييس الزعامة وبخاصة اذا كان من يختار معروفا من قبل لمن يختارونه ، فلا يكون اقبالهم عليه اعجابا وقتيا لا يلبث أن يتبين خطأهم فيه.

ولن يشذ عرابى عن هـذه القاعدة ، فانما اختاره الضباط لما عرفوا فيه من صفات الجرأة والحماسة والاخلاص ، ولما عهدوا ما عليه من الصدق وحسن الطوية ، هذا الى أنه كان يفوقهم من ناحية لا غنى عنها لزعيم من الزعماء ألا وهى فصاحة اللسان ، فلقد كان هذا الرجل الذى جعل الجهل فى مقدمة عيوبه أفصح الضباط لسانا ، ولقد كانت الخطابة احدى مواهبه حتى ليعد من أخطب رجال ذلك العهد ، لا فى الجيش فحسب ، بل بين المواطنين جميعا ...

وامتاز أحمد عرابى بشىء آخر لعله خير ما امتاز به ، وذلك أنه كان أكثر المصريين فى الجيش سخطا على الشراكسة وأشدهم نفورا منهم ، وأعظمهم اعتزازا وشعورا بقوميته ، وهذا لعمرى ما سوف يظل التاريخ يذكره عن هذا الرجل الذى جهله أكثر بنى قومه زمنا طويلا ، وما ستظل الاجيال تزداد منه وثوقا حتى يغدو هذا المصرى الفلاح من أحب زعماء مصر الى قلوب أهل مصر ...

وما كان اضطغان عرابى على الشراكسة لدافع شخصى ، فهو مصرى قبل كل اعتبار ، وما يلحقه من أذى أو احتقار على أيدى هؤلاء انما يناله رجلا ويناله مصريا فى وقت واحد ، ولم يقف سوء معاملاتهم عنده حتى يقال انه غضب لما لحقه ، وانما كانت سياسة الشراكسة تعصبا لجنسهم على حساب المصريين ، فكان هـذا الضابط المصرى أكثر أقرانه من المصريين نخوة وأعزهم نفسا ، وفضلا عن هذا كله فقد حظى عرابى نفسه فى أوائل عهد

توفيق بالرقى إلى مرتبة أميرالاى ، وكان ذلك كفيلا أن يزيل ما عسى أن يكون قد بقى فى نفسه مما لحقه من أذى فى عهد اسماعيل .

أعد الضبــاط عريضة بمطالبهم ووقع عليها عرابى وزميلاه ، وذهب ثلاثتهم فرفعوها الى رياض باشا فى منتصف يناير سنة ١٨٨١ وانهم ليعلمون ما كان ينطوى عليه مثل هذا العمل من جرأة فى ذلك الوقت ، وكان عرابى هو الذى يتكلم باسم زميليه وباسم الضــباط جميعا ، كما كان سعد يتكلم حينما ذهب مع زميلين له كذلك فى مستهل الثورة الثانية الى مقر المعتمد البريطانى يرفع مطالب مصر عقب الهدنة التى ختمت بها الحرب العالمية الاولى ...

وكان رياض يكره تقديم العرائض مهما كان من عدالة ما تحتوى من المطالب وكان يلقى فى السجن أو يحكم بالنفى على من يخطون مثل هذه الخطوة ، كما حدث للسيد حسن موسى العقاد فقد نفى الى السودان لانه انتقد الغاء قانون المقابلة على الصــورة التى جاءت بها لجنة التصفية ، وكما حدث لكثيرين غيره ممن أخرجوا من مصر بسبب آرائهم الحرة .

وقابل رياض الضباط مغتاظا محنقا وخاطبهم فى كبرياء وغلظة كما يقول عرابى فقال لهم فيما قال : « ان أمر هذه العريضة مهلك وهو أشد خطرا من عريضة أحمد فنى الذى أرسل الى السودان » .

وكان هذا الفتى قد نفى كذلك لانه طلب المساواة فى المعاملة بغيره من موظفى الديوان محتجا على ما كان يجرى من صور المحسوبية ، وقد قضى فى منفاه نحبه .

يقول عرابى : « فأجبته بأننا لم نطلب الا حقا وعدلا وليس فى طلب الحق من خطر ، وانا لنعتبرك أبا للمصريين

فما هذا التلويح والتخويف ؟ فقال ليس فى البلاد من هو أهل لان يكون عضوا فى مجلس النواب ، فقلت له : انك مصرى وباقى النظار مصريون والخديو أيضا مصرى ، أتظن أن مصر ولدتكم ثم عقمت ؟ كلا فان فيها العلماء والحكماء والنبهاء ، وعلى فرض أن ليس فيها من يليق لان يكون عضوا فى مجلس النواب ، أفلا يمكن انشاء مجلس يستمد من معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية تخرج لنا بعد خمسة أعوام رجالا يخدمون الوطن بصائب فكرهم ، ويعضدون الحكومة فى مشروعاتها الوطنية ؟ فانبهر وكأنما كبر لديه ما سمعه منا ، ثم قال : سننظر بدقة فى طلباتكم هذه ، فانصرفنا على ذلك » .

ويتضمن كلام عرابى هذا أنه طالب بمجلس للنواب ، ولكن بلنت يورد الحادث فى كتابه على صورة أخرى قائلا انه يورده كما علمه من عرابى ، قال عرابى فى رواية بلنت ما ترجمته : « ذهبنا بعريضتنا الى وزارة الداخلية وطلبنا أن نقابل رياضا فأدخلنا حجرة خارجية ودخلنا ننتظر حتى قرأ الوزير العريضة فى حجرة داخلية ، ثم ما لبث أن جاء الينا يقول : ان عريضتكم مهلكة ، ماذا تطلبون ؟ أتطلبون تغيير الوزارة ؟ وماذا تضعون مكانها ، ومن تقترحون ليدير شئون الحكومة ؟ وأجبته قائلا : يا سعادة الباشا ، هل مصر امرأة ولدت ثمانية أبناء ثم عقمت ، وقد أردته بهذا والوزراء السبعة تحت امرته» .

واشتد غضب رياض لمطالبة الثائرين بعزل عثمان رفقى فقد رأى فى هذا الطلب نوعا من التمرد الجرىء اذ ما دخل الجيش فى سياسة الحكومة حتى يطالب بعزل وزير من الوزراء ، وكانت الحكومة لاريب محقة فى هذا الغضب ، ولكنها لم تسلك ازاء هذه الحركة ما كانت تقتضيه السياسة الرشيدة ، فكان عليها أن تنظر فى

مطالب الجيش فتجيب منها ما يزيل أسباب الشكوى ، ثم تقنعهم بعد ذلك بأن ليس من حقهم المطالبة بعزل رفقى

سكت رياض أسبوعين وهو يحاول اقناع الضباط بسحب العريضة ولكنهم يصرون عليها ، وغضب الخديو أشد الغضب وأشار عليه بعض المحيطين به بأتباع العنف نحو الضباط ، ثم نمى الى رياض أن سكوته قد يفسر بأنه ممالأة للجيش وعدم موالاة للخديو ، ويقول بلنت فى كتابه : ان الخديو من ناحيته أراد أن ينتهز هذا الحادث للانتقام من رياض فيوقع العداوة والشحناء بينه وبين رجال الجيش ، وكان من رأى رياض ألا يجعل من المسألة قضية تتجه اليها أذهان الناس ، كما أن رفقيا كان يخشى أن تظهر المحاكمة سوء سياسته .

ولما فطن رياض الى ما قد يفسر به سكوته وافق على محاكمة الضباط ، ووقع الخديو على أمر بمحاكمتهم ، ودعى وزير الجهادية الضباط الثلاثة الى ديوان الجهادية بقصر النيل بحجة الاستعداد لحفلات زفاف أحدى الاميرات ، فأخذتهم من الدعوة ريبة اذ لم تجر العادة بمثل هذا ، وأخذوا للأمر ما يجب من حيطة ، فاتفقوا مع فرقهم ان تذهب اليهم اذا تأخرت عودتهم عن ساعتين ، ثم ذهبوا الى حيث طلب اليهم أن يحضروا ...

وكان الضباط فى الواقع على علم بما دبر لهم ، فلم يكن من العسير عليهم فى مثل ذلك الموقف أن يدركوا ما عسى أن تبيته لهم الحكومة من كيد ، ولقد قيل أن قنصل فرنسا كان على اتصال بهم فأخبرهم بما عقدت الحكومة النية عليه .

وما كاد ثلاثتهم يدخلون وزارة الجهادية وكان ذلك أول فبراير سنة ١٨٨١ حتى ألفوا أنفسهم بين صفوف مسلحة من الشراكسة فقبض عليهم وانتزعت منهم

سيوفهم وأودعوا السجن وهم يسمعون عبارات السب والشماتة يقذفهم بها هؤلاء الشراكسة الاجلاف وكانت كلمة «فلاح» أكثر ما أطلق به ألسنتهم هؤلاء السفهاء من الشراكسة ، وقد ساء وقعها فى نفوس الضباط الثلاثة وفى نفس كل من علم بها من المصريين . وكان دخولهم السجن توطئة لمحاكمتهم فقد انعقد لهم مجلس عسكرى يحاكمهم برئاسة رفقى نفسه .

وعين رفقى ثلاثة غيرهم على آلاياتهم فأحل محمود طاهر محل عرابى ، وخورشيد نعمان محل عبد العال حلمى وخورشيد بسمى محل على فهمى ، وعمل رفقى على تنفيذ هذا الامر ساعة صدوره ...

***

شاع الخبر فى الجند الوطنيين فثارت ثائرتهم ، وكان اكثرهم جرأة واقداما ووفاء الضابط الباسل محمدعبيد بطل التل الكبير فيما بعد ، وكان فى آلاى على فهمى بقشلاق الحرس بعابدين ، فنادى جنده نداءه العسكرى فاحتشدوا ، فأمرهم بالسير الى قصر النيل ، فاعترضه خورشيد بسمى ذلك الذى حل محل فهمى فلم يستمع محمد عبيد اليه ، بل لقد اعتقله فى احدى حجرات القشلاق ، وشهد الخديو تأهب الجند للمسير فأرسل اليهم الفريق راشد باشا حسنى سر ياوره ليصدهم عن سبيلهم فما استمعوا له ، وأرسل توفيق يستدعى عبيدا وبعض اخوانه فرفضوا أن يذهبوا اليه ...

وأجكم عبيد الهجوم على قصر النيل ، ولاذ رفقى بالهرب من احدى النوافذ فى صورة مخزية وهرب أعضاء محكمته ، واعتدى الجند على أفلاطون باشا وستون باشا وبعض من صادفهم من الضباط الاجانب ، وما زال عبيد يبحث عن الضباط الثلاثة هو وجنوده وراحوا يحطمون

الابواب والنوافذ حتى عثروا عليهم ففك عبيد قيودهم وأطلق سراحهم ...

وتحرك آلاى طرة قاصدا قصر النيل ، واستمر رجاله فى سيرهم على الرغم من أنهم علموا أن الضباط الثلاثة قد أخلى سبيلهم ، وعلى الرغم من أن الخديو أرسل لقائدهم خضر أفندى خضر ينهاه عن الحضور ، وتوجه خضر الى عابدين وقد علم أن عرابيا وصاحبيه قد ساروا الى هناك .

ولم يتخلف الا آلاى العباسية وهو آلاى عرابى نفسه ، وقد ندموا بعد ذلك على قعودهم وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، ثم جاءوا عشاء الى عابدين فألقوا معاذيرهم بين يدى عرابى وأكدوا له الولاء .

ويحسن أن نورد هنا ما وصف به عرابى موقفه هو وزميليه بعد أن دخلوا السجن قال : « ولما أقفل علينا باب الغرفة تأوه رفيقى على بك فهمى وقال لا نجاة لنا من الموت وأولادنا صغار ، ثم اشتد جزعه حتى كاد يرمى بنفسه فى النيل من نافذة الغرفة فشجعته متمثلا بقول الامام الشافعى رضى الله عنه :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فرجت وكان يظنها لا تفرج

وتمثل عرابى بأبيات أخرى نسبها الى السيدة زينب رضى الله عنها الى أن قال : « فلا والله ما كانت الا هنيهة حتى جاءت أورطتان من آلاى الحرس الخديوى وأحدق رجالهما بديوان الجهادية وأسرع بعض الضباط والعساكر فأخرجونا من السجن ، ففر ناظر الجهادية ورجال المجلس وغيرهم من المجتمعين وقصدوا جميعا الى

سراى عابدين » ...

وانما نورد هنا ما ذكره عرابى لانه من جهة يصور لنا جانبا من شخصيته وناحية من ثقافته ، ويرينا نزعة اتكاله على الله ، تلك النزعة التى سوف لا تنخلع عنه حتى بعد أن تنخلع عنه عزيمته عند انصراف أنصاره عنه عقب مأساة التل الكبير ، ثم لان كلامه من جهة أخرى متفق مع ما يقول الرواة فلا ضير أن نورد القصة على لسانه .

***

ذهب الضباط الثلاثة ومن ورائهم من أخرجوهم من الاسر الى الخديو يسمعونه شكواهم ، وكان بعض أعوان الخديو يشيرون عليه بأخذهم بالشدة ومعاملتهم معاملة الثائرين ولو أدى الامر الى اطلاق النــــار عليهم وقال البعض انه من العبث أن تلجأ الحكومة الى البطش وليس لديها وسائله ، فالفرق جميعا تؤيد عرابيا ومن معه . والرأى أن يسلك الخديو معهم جانب اللين فيطفىء بذلك نار الفتنة ، وكان ممن أشاروا بهذا الرأى محمود سامى البارودى الذى سوف يغدو من زعماء العرابيين ...

وتغلبت الحكمة على الطيش ، ووضع اللين فى موضع البطش ، فأوفد الخديو الى الضباط الثلاثة ومن ظاهرهم من الجند تحت نوافذ قصره يخبرهم باجابته مطلبهم الاول فقد عزل رفقى ، وطلب اليهم أن يختاروا من يحل محله حتى لا يعودوا الى الشكوى فوقع اختيارهم على البارودى ، ووعدهم الخديو أن ينظر فى بقية مطالبهم وأن يعمل على انصافهم بعد أن أعادهم الى مناصبهم والتمس الضباط الاذن على الخديو فلما مثلوا بين يديه أعربوا له عن امتنانهم وصادق ولائهم لشخصه وعظيم اخلاصهم لعرشه ، ثم انصرفوا وانصرف الجند فرحين مستبشرين .

ولقد كان على الخديو أن يتدبر فى الامر منذ بدايته وينظر ما اذا كان لديه قوة يقمع بها الحركة ان كان لابد من وضع العنف موضع العدل ، فان عدم القوة كانأمامه ان يلجأ الى اللين غير مكره ولا مغلوب على أمره ، ولكنه تصرف على نحو ما رأينا فأفضى به تصرفه الى نتائج خطرة وسوف تؤثر أثرها فى مجرى الحوادث ، فظفر الجند بمطالبهم فى عنف . وعجز الحكومة عن مقاومتهم وسلوكها ذلك المسلك الشائن قد وضع الخديو وحكومته فى موضع الضعف وأحل عرابيا وحزبه محل التوثب والتطلع وجعلهم مناط الامل والرجاء ، هذا الى ما تركه هذا الحادث من سخيمة فى نفس الخديو يصعب بعدها كل تفاهم ، ويسهل أن يلبس فيها كل حق بالباطل ، وما بثه من حذر وريبة فى نفوس الجند بحيث يرون فى كل حركة من حركات الحكومة شبح الغدر ويلبسان كل عمل من أعمالها ثوب الرياء ...

الفلاح الزعيم

أدى حادث قصر النيل وانتصار عرابى وزميلاه على هذه الصورة التى وصفنا الى ذيوع صيت عرابى على نحو لم يسبق لفلاح قبله فى مصر منذ قرون ، فما يذكر تاريخ مصر منذ أن منيت بالفتح والقهر أن قام من بنيها رجل من أعماق القرى فتمرد على ما يعتقد أنه ظلم يحيق به وببنى جنسه ، كما تمرد واجترأ هذا الفلاح فأبعد من الوزارة شركسيا قوى الشوكة وأملى رغبته على رئيس الحكومة بل وعلى الخديو املاء ونال بغيته غلابا ، ولم يك بالذى يغفل عما كان عسيا أن يؤدى اليه صنيعه هذا من هلاك ...

والحق أن هذا العمل بومذاك كان بالغ الجرأة ، فقد كان المصريون يدينون بالطاعة للخديو ويهابون سلطانه وجاهه ، ويرون فيه سيدا وضعه الخليفة حيث كان ليطاع ولتعنو له الوجوه ، وماكان يتصور أحد أن يذهب الى مقر سلطانه رجل نشأ فى قرية ومن ورائه جند فلاحون مثله فيقولون له : نحن نريد ونحن نطلب ثم يظفرون بما أرادوا وينقلبون لم يمسسهم العذاب الاليم

وسرعان ما دار اسم ذلك الفلاح الثائر الظافر على كل لسان فى القاهرة وسمع بذلك الاسم من لم يسمع به من قبل من الاجانب ومن لم يكن يعرفه من المصريين ...

ولم يقف الامر عند القاهرة ، فقد رن هذا الاسم فى القرى وتغلغل فى أعماقها فأفاق على رنينه أولئك الاعيان والشيوخ الذين تعودوا منذ القدم أن يخضعوا خضوعا مطلقـــا للأتراك والشراكسة الذين كانوا ينظرون الى الفلاحين جميعا مهما يكن من ثراء بعضهم نظرتهم الى دوابهم ، والذين كرههم الفلاحون بقـــدر ما خافوهم ، ولـكنهم لم يجدوا من الاذعان لهم من بد ...

عجب أولئك الفلاحون أن يجرؤ رجل منهم على تحدى الخديو والرؤساء الشراكسة ، فتعلقوا بهذا الرجل ولم يروه ، ورغب الكثيرون منهم فى رؤيته ، فقدموا الى القاهرة يحملون اليه الهدايا ويعربون له عن محبتهم اياه واعجابهم بمبادئه التى كان قوامها انصاف الفلاحين فى الجيش ، وراح عرابى يخطبهم شاكرا اياهم باثا فيهم روح الحرية والاباء .

وليت شعرى ماذا تكون الزعامة اذا لم تكن هـــذه زعامة ؟ ألسنا نرى الآن فى عرابى شخصيتين : شخصية الجندى الذى يسير بمطالب الجند على رأس الجند ، ثم شخصية الفلاح الزعيم الذى بدأ الفلاحون به يرفعون رؤوسهم وقد خفضوها أجيالا طويلة ؟ الا انى لألمس فى تلك الصحوة فجر عصر جديد للقومية المصرية ، كان عرابى أول مؤذن به ، ألمس ذلك الفجر الذى ســوف ينبلج صباحه بعد قليل على صيحة أخرى كانت صدى لهذه الصيحة هتف بها فلاح آخر برز من القرى كما برز عرابى ، وذلك هو سعد ابن مصر العظيم وأحد أبطالها ومفخرة رجالها ...

ولئن كان جمال قد أيقظ الغافين فى المدن ، فان عرابيا قد بعث باقدامه أهل القرى من مراقدهم ، فان عمله هذا أوحى اليهم أنه من الممكن أن يخرج من بينهم من

يشمخ بأنفه على أولئك الذين طالما استذلوا فى مصر الرقاب ...

ولقى عرابى وقد أصبح فى رأى الناس حامى الامة من المظالم تأييدا من العلماء الذين أعجبوا بجرأته وحميته

ولم يبلغ عرابى هـذه المكانة فى نفوس الناس بعلم اشتهر به او فلسفة عمل على تمكينها فى النفوس ، أو آراء فى الاصلاح والنهوض عمل على اذاعتها فى الناس كما فعل جمال الدين وكما فعل من بعده تلميذه محمد عبده وانما بلغ عرابى ما بلغه من الصيت بحميته وغيرته ثم بصلابة عوده وجرأته ، وكانت تلك الخلال هى أخص ما يطلب يومذاك ، حيث كان يحيط بالنـاس البطش والتخويف ويقعد بهم الذل والخوف .

وعلى الذين ينكرون اقدار الرجال ان يتـدبروا فى موقف عرابى هذا ، ثم لينظروا بعد ذلك هل كان صنعه ضئيلا كما يزعمون ، ولـكنا لا نوجه القول الى هؤلاء وأمثالهم ممن يكتمون الحق وهم يعلمون ...

وهل ذاع صيت ميرابو واغتـدى فى قومه زعيما بفلسفته وثقافته وهو المفكر الواسع الافق ، أم كان ذلك بصيحة منه تحدى بها القوة فملأت أسماع قومه ونفذت الى كل قلب فى فرنسا يؤمن بالحرية ، يوم كانت فرنسا فى مفترق الطرق اما الى الحرية ، واما الى العبودية ؟

ولو أن جاندارك كتبت ألف كتاب أو خطبت الناس ألف خطبة ، أكان ذلك يساوى لبسها الدرع واعتلاءها صهوة جواد وسيرها تقود الرجال مؤمنة اما الى القبر ، واما الى النصر ؟

ان الخطوة الاولى فى كل حركة تتطلب اقداما وبسالة كانت وما تزال هى التى تنقل التاريخ من صفحة الى صفحة ، وما يغفل عن قيمة الاقدام وخطره وبعد أثره

الا مكابر جحد به واستيقنته نفسه ...

وما ندعى أن عرابيا قد اتفقت له صفات الزعامة كلها أو اكثرها ، ولكننا منه تلقاء صفة لن تقوم بدونها زعامة ، تلك هي الشجاعة التى يأبى معها الرجل ان يذل ، ويزيد فى جلال هذه الشجاعة بروزها فى وقت كذلك الوقت الذى نتحدث عنه ، ذلك الوقت الذى لم يكن يجد فيه الشجاع الا قليلا ممن يتاسى بهم او يسير على نهجهم ، والذى ألف فيه الذل حتى نسى الناس أنهم فى ذل ، والذى لم يكن فيه لذى النخوة عاصـــم من قانون أو دستور أو رأى عام ، أو ما اليها مما يستعصم به الناس اليوم من جور الطاغين ومكر المستبدين .

***

يقول بلنت فى كتابه : « كان تاريخ هـــذه القلاقل العسكرية فى قصر النيل هو أول فبراير سنة ١٨٨١ ، وقد حدث وكنت لا ازال فى مصر ولكن بعد أن غادرت القاهرة ، ولست أتذكر أنى سمعت اسم عرابى يذكر قبل حدوثها ، ولكن الدور الذى لعبه فى ذلك اليوم قد أكسبه شهرة سريعة ، وسرعان ما صار اسمه على كل لســـان ، اسم رجل نجح فى تحدى الحكومة والظهور عليها واحداث تغيير فى الوزراء ، وأصبح مقامه فى بضعة أسابيع مقام رجل ذى نفوذ وقوة فى مصر أو على الاقل أصبح يعزى اليه القوة وصارت تتقاطر عليه كما هى العادة فى مصر الظلامات من أناس عانوا الظلم ويطلبون معونته للوصول الى العدالة ، ولقد أذاع صيته خارج القاهرة ظهوره فى ثورته بمظهر الذى يحمى الفلاحين من جور الحكام الشراكسة ، واتصل به كثيرون من الاعيان ومشايخ البلاد ، وكان يرد على كل بما يسعه من رد حسن أو بما يدخل فى طوقه المحدود من عون ، وكان

يؤثر فى الناس تأثيرا حسنا أينما لقوه بحسن محضره وبابتسامته الجذابة وفصاحته فى الحوار ، ولقد اتفق كل الاتفاق لعرابى فى مظهره الشخصى من المواهب ما يهيئه الى ما ندب له من دور يلعبه فى تاريخ مصر ممثلا طبقته ، فهو فلاح كأدق ما تكون صورة الفلاح ، طويل القامة ، ثقيل الساقين ، بطىء الحركة الى حد ما ، وبهذه الصفات تتمثل لنا فيه قوة البدن المتلىء التى هى من خصائص الفلاح العامل فى دلتا النيل ، ولم يكن له شىء من خفة الجندى وكان فى ملامحه شىء من ذلك السكون الذى أكسبه الوقار والذى يلمحه المرء فى وجوه مشايخ القرى ، وكانت ملامحه مظلمة فى حال سكونه ، وكانت لعينيه نظرة جامدة كنظرة الحالم ، وليس يفطن المرء الا حين يبتسم أو يتكلم الى ما بنفسه من ذكاء عظيم وعطف ، فعندئذ يشرق وجهه كما يشرق المنظر المظلم بنور الشمس ... ويجب أن نذكر أنه فى تاريخ مصر كله لم يبرز فى مدى ثلاثة قرون على الاقل فلاح بسيط الى أن يصبح ذا مكانة سياسية لها خطرها ؛ أو إلى أن يصبح داعية اصلاح أو الى أن يهمس بكلمة تدعو حقا الى الثورة » .

***

والحق أن مجرد غضبة مصرى فى مثل ذلك الوقت لمصريته ودفاعه عن قوميته كان يعد من ضروب الشجاعة التى تبلغ، لما أحاط بها من ملابسات، حد البطولة ، ولن ينكر على عرابى المصرى الفلاح ما فى غضبته من معانى الزعامة والبطولة الا مغرض أو جاهل ، وهو لم يغضب فحسب ولم يعلن غضبه حتى رأى الخوف فنكص وانما طالب رئيس الوزراء بما اعتقد أنه الحق غير هياب ولا متلعثم ، وأخذ يعد العدة بعدها لما عسى أن يدبر له من

كيد ، ولم يرض من الغنيمة بنجاته مما وقع فيه ، وانما ذهب على رأس جنده وحمل الخديو على اجابة مايريده الجيش ، فأبعد من منصبه ذلك الوزير الشركسى الذى كان يبعد المصريين من مناصبهم لا لشيء سوى أنهم مصريون ...

بهذا الذى فعله ذلك الفلاح الثائر حقت له الزعامة على الفلاحين من بنى قومه ولكن الامر لم يقتصر على الفلاحين ، فقد بات يخطب وده رجال الحزب الوطنى كما سنبينه فى موضعه ...

***

وأصبح بيت عرابى مقصد الكثيرين من الاحرار كما كان موئل رجال الجيش ، ولم يجعل منه الوطنيون أداة لتنفيذ أغراضهم كما زين البغى أو الجهل لبعض المؤرخين أن يقولوا ، فلقد كان مؤمنا بمبدأ الشورى كايمانهم به كما كان يكره المستبدين من الشراكسة ومن المصريين أكثر مما كان الوطنيون يكرهونهم ، ولقد تجلى من قبل ميله الى كل من يعطف على المصريين فى علاقته بسعيد باشا وشدة ولائه له ...

وهكذا أصبح عرابى الفلاح ملتقى الآمال ، يحرص على الصلة به الوطنيون والجند والفلاحون ؛ ولقد بلغ من ذيوع صيته أن أصبح توفيق يغار منه حتى ما يستطيع أن يخفى تلك الغيرة .

ومما ذكره بلنت فى هذا الصدد قوله : «وكان توفيق كما رأينا رجلا متقلب الاهواء ، فبينما كان لايزال ينوى أن يعتمد على الجيش للتخلص من رياض ، كانت تساوره نوبات من الحقد على عرابى لما يرى من سرعة ذيوع صيته وكان هذا الصيت جد ملحوظ طيلة اشهر الصيف وقد أدى الى اتصاله بعدد كبير من شيوخ القرى

وأعيانها أولئك الذين كانت دعوة تحرير الفلاح ، تلك الدعوة التى تولى قيادها ، شيئا تتوق اليه نفوسهم ، وأخذ الناس فى الاقاليم يذكرونه بقولهم : « الوحيد » وقد استحق هذه التسمية حقا فانه كان فى مدى عدة قرون الرجل الوحيد من صميم عنصر الفلاحين الخالص الذى استطاع أن يقاوم بنجاح طغيان رجال الطبقة الحاكمة من الاتراك والشراكسة » .

***

آن لمصر بعد طول المذلة أن تجد الرجل الذى يترجم عن آمالها ويدافع عن حقوقها وينطق باسمها فاتجهت كما اتجه الجيش الى هذا الفلاح الزعيم .

وعندى أن الحركة التى تعد مكملة لثورة عرابى أو بعثا لها هى ثورة مصر الثانية سنة ١٩١٩ ، وأن الزعيم الذى يلحق جهاده بجهاد أحمد عرابى وتضاف مبادئه الى المبادىء التى دعا اليها أحمد عرابى هو سعد زغلول الفلاح الزعيم الثانى، ولكن فى صورة غير صورة سابقه ، وفى ظروف غير ظروفه ومجال أوسع من مجاله وان اتفقا فى روح مبادئهما وقومية بواعثهما واغراضهما ، كل من الثورة التى حمل لواءها ...

وما ننسى أن سعدا قد أعطى هذا الزعيم الاول حقه اذ كان يستعرض ذات مرة أطوار الوطنية المصرية فذكر له ما لايمكن أن ينسى له من فضل .

الوطنيون والعسكريون

بينا مبلغ ما أصيب به الاحرار فى آمالهم منذ أن عزل اسماعيل وعين توفيق ، ورأينا ما صدم النفوس من خيبة اذ استكثر توفيق الدستور على مصر، الامر الذى أغضب شريفا فاستقال ، وحل محله رياض ...

لم يكن لرياض مثل ما كان لشريف فى قلوب الوطنيين من محبة ، فقد كان على الرغم مما اشتهر به من براعة واستقامةمتكبرا محافظا يسىء الظن بالوطنيينوحركاتهم ويوجس خوفا منها ، كما كان فى خلقه شيء من الغموض والتحفظ فلم يكن له مثل صراحة شريف ولا مثل شجاعته الادبية واقدامه ونزعته الدستورية الحرة ...

وقد استطاع رياض أن يجعل من نفسه الحاكم المطلق الفعلي للبلاد ، وذلك بضمانه رضاء توفيق ، بأن جعل له حق رئاسة مجلس الوزراء متى أراد ، وقد حرص فى الوقت نفسه على السير فى ادارة شئون البلاد وفقا لمبدأ مسئولية الوزارة عن أعمالها ، ذلك المبدأ الذى قرره اسماعيل فى أغسطس سنة ١٨٧٨ ، والذى بمقتضاه لا يتنصل وزير من مسئولية عمله برده الى مشيئة الخديو كما كان الحال قبل تقرير هذا المبدأ ...

وكانت تطغى على الرأى العام المصرى روح الاستياء العام ، فكان عهد وزارة رياض كجميع العهود التى تتهيأ

فيها الامم للثورات ، فتكون فى نفس كل امرىء ثورة وان لم تدر على وجه التحديد ما بواعثها .

والحق ان استياء النفوس هو وليد ما بينا من أسباب تعصب المصريين وسخطهم أثناء حكم اسماعيل باشا ، وجاءت وزارة رياض عقب استقالة شريف من أجل تمسكه بالدستور فلم يبق مجال للأمل وخيم اليأس على النفوس ، حتى لم يعد هناك بد من متنفس لهذا الشعور المكبوت .

ولو أن رياضا فطن الى تلك الحال النفسية لأمكنه أن يعمل على تجنب عواقبها ، ولكن رياضا على حد تعبير الشيخ محمد عبده كان « لا يخالج فكره ريبة فى سكون المصريين الى اطاعة كل ما يؤمرون به حملا لهم على سوابقهم وسالف عهدهم فكان فى غاية الطمأنينة من ناحيتهم ولم ير انه يجب أن ينظر فيما عساه أن يثيرهم من جهة المقابلة فى تنفيذ السلطة أو من ناحية الساخطين عليه من الوطنيين والاجانب » .

أو كما قال عنه انه كان «صادق النية مخلص السريرة فى خدمة البلاد ، ولكن لايبالى فى تأدية ما يراه واجبا عليه بما يجرح القلوب ويؤلم النفوس ، ويظن أن من الواجب على كل أحد أن يعلم حسن نيته ، وأن لم يبينها هو ، وأن يرضى بعمله وأن لم تظهر الغاية الصالحة منه»

وزاد الناس نفورا من العهد كله ، ضعف شخصية توفيق فى ذاته وما لحق منصب الخديو من مهانة بسبب خلع اسماعيل ، فقد ألقى فى روع الناس وبخاصة حين رفض الدستور قاعدة للحكم أن مثله لايرجى خير على يديه وأنه بات صنيعة للأجانب يأتمر بأمرهم من وراء ستار بعد ما رآه من عزل أبيه ، وأن رفضه الدستور لم يكن الا مشايعة للأجانب فى نظرتهم الى المصريين ...

ولم تكن فى مصر طبقة راضية عن وزارة رياض أو عن الحال القائمة يومذاك بوجه عام سواء نسبت الى رياض أم لم تنسب اليه ، فخاصـــة المصريين ، الذين كانوا يدركون حال بلادهم حق الادراك ، والذين أثرت فيهم آراء جمال الدين ، كانوا منذ عهد اسماعيل. ساخطين على تغلغل نفوذ الاجانب فى مصر ، وعلى السياسة التى جرت على مصر العسر والدين ، ومن هؤلاء سوف يتكون الحزب الوطنى فى عهد رياض كما سنبينه فى هذا الفصل

وكان أعيان البلاد ينقمون على رياض الغاء دين المقابلة ، ويرون أن هذا أقبح الغبن اذ تلغى وزارة مصرية دينا اخذ من المصريين ولا تجرؤ على الغـاء شيء من أموال الاجانب ، تلك الاموال التى شعر الناس جميعا بمبلغ ما كان فيها من مغالطة وسرقة .

وكان رجال الجيش ينقمون على رفقى تعصبه لجنسه ويشركون رياضا معه فى هذا الاثم بالضرورة لانه أقره ولم يكن يشكو الجند من تعصب رفقى فحسب ، بل كان يؤلمهم سوء ما يعاملون به مما يدل على الرغبة فى امتهانهم واذلالهم فكان يكتفى بمجرد التهمة ليفصـــل الجندى من الخدمة ، أو تنزع منه درجته أو ينفى الى مكان سحيق فى السودان ولو لم يثبت شيء عليه ، وكان ذلك خليقا أن يملأ النفوس بالحفيظة ويدفعها الى الرغبة فى الانتقام ، فليس الامر أمر ظلم فحسب ، ولكنه بتحيز الحكومة الشراكسة الذين يحتقرون المصريين كان ظلما على ظلم ...

وزاد السخط فى نفوس العسكريين انقـاص وزارة رياض عدد الجيش الى اثنى عشر ألفا أى الى أقل مما يقضى به الفرمان الذى أرسله السلطان الى توفيق والذى يقضى بجعل الجيش ثمانية عشر ألفا ، وقد أدى هـذا

الى صرف عدد من الضباط والجند الى مواطنهم فأصابهم العسر وكانوا من الساخطين ، كل ذلك والشراكسة لايمسهم شيء بل لا يجدون الا التقلب فى النعمة والتمتع بالرقى .

وكان الناس بوجه عام ، ومنهم الفلاحون ، يشعرون أن لا عدالة ولا قانون يحمى المظلومين من تجبر الظالمين ، الحكام منهم وذوى الجاه والثراء ، فالكرباج والسخرة والنفى الى السودان وأمثالها من العقوبات تقع على الناس فى غير رحمة ، بل فى غير حق ، وظل التعذيب والسخرة والاذلال أمورا شائعة فى القرى على أيدى المديرين والاغنياء على الرغم من اصدار رياض أوامره بالكف عنها ، ولقد كان نهيه عنها مما يحمد له ولكن قعوده عن ابطالها كان مما يؤخذ عليه لاريب . ولقد بلغ عدد الذين تقدموا الى شريف باشا يلتمسون منه رفع الظلم عنهم حين ألف وزارته بعد يوم عابدين نيفا وتسعمائة كان تقرر ابعادهم الى السودان !

وكان مما يتألم منه الفلاحون اندساس كثيرين من المرابين الاجانب بينهم والعمل بكافة الحيل على ايقاعهم فى الشرك والاستيلاء على أكثر ما يستطيعون الاستيلاء عليه من أموالهم .

كانت الحكمة تقضى أن يأخذ رياض الامور بالرفق علّه يتجنب انبعاث العاصفة ، ولكنه عمل بسياسته على ثورانها ، ولعل مرد ذلك الى جهله بحقيقة ماكان يحيط به واستبعاده الثورة على المصريين ...

ولعله كذلك خيل اليه أنه قادر بالقمع والعنف على ان يحكم البلاد ، ولذلك رصد عيونه يتعقب الساخطين من الخاصة ، وكان يشتبه فى كل حركة ويخاف من أقل بادرة ...

وانزل العقاب الشديد بمن يعارض سياسته ، ومن ذلك ما حل بالسيد حسن موسى العقاد ، الذى كان كل ذنبه أن دعا الناس الى التوقيع على مظلمة ترفع لولاة الامر مما وقع على الناس من غبن بالفاء دين المقابلة ، وكان جزاؤه على ذلك النفى الى فازوغلى بالسودان ، ومنه ايضا ما لحق الفريق شاهين باشا كنج الوزير السابق فقد جرد من رتبه والقابه لمجرد اتهامه أنه يتصل بالوطنيين الناقمين ...

***

وتعقب رياض الصحف بالتعطيل الوقتى والانذار والالغاء ، بتهمة اثارة الرأى العام ، ومنها جريدتا : «مصر ، والتجارة» ، وقد جاء فى قرار الوزارة بالغائهما قولها : « حيث سبق صدور الانذارات مرارا عديدة وتنبيهات شفاهية من ادارة المطبوعات الى أصحاب الجرائد الاهلية عموما ، والى صاحب امتياز جريدتى « مصر ، والتجارة » خصوصا بعدم خروجهم عن حدود وظائفهم ولا ينشرون ما يوجد تشويش الافكار ، صدر له آخر انذار بأنه اذا رجع لمثل ذلك ، فتلغى جريدتاه بالكلية ، وحيث أنه بعد هذا الانذار لم يترك مسلكه الاول لما نشره فى جريدة التجارة نمرة ١٢٣ الصريح فى أنه لايرجع عما هو عليه ، وحيث ما اعتادت على نشره هاتان الجريدتان ضرره أكثر من نفعه ، اقتضى الحال صدور الحكم بالغائهما مؤبدا » .

وتناول بطش رياض غير هاتين من الصحف فلم تنج فى عهده صحيفة من التعطيل أو الالغاء أو الانذار .

ادت هذه السياسة التى جرى عليها رياض ، إلى أن ينشط الناقمون فى العمل على مقاومته والتخلص من حكمه ، وكان هؤلاء الناقمون هم قادة الحركة الوطنية

الذين كانوا يجتمعون منذ أواخر عهد اسماعيل اى قبل ذلك بنحو اربعة أعوام فى بيت نقيب الاشراف السيد البكرى ، ونظرا لما بثه رياض من عيون تحصى عليهم حركاتهم فقد تركوا القاهرة وجعلوا اجتماعاتهم سرا فى حلوان ، ومن ثم تألف حزب اطلق عليه أول الامر جمعية حلوان ثم صار يعرف بالحزب الوطنى ... وكان من اشهر رجال هذا الحزب محمد سلطان وسليمان اباظة وحسن الشريعى ومحمد شريف واسماعيل راغب وعمر لطفى ، وقد نشروا فى أواخر سنة ١٨٧٩ أول بيان سياسى لهم وطبعوا منه آلاف النسخ وأذاعوها بين الناس ، ولقد جنق رياض أشد الحنق على ناشرى البيان وبذل جهدا كبيرا ليعرف أسماءهم كى يرسلهم الى السودان ، فلم يهتد الى أحد ...

واوفد الحزب أديب اسحق الى أوربا ليدافع عن مبادىء الوطنيين فأنشأ فى باريس جريدة القاهرة ، وكان من أشد الساخطين على رياض لانه عطل له جريدتيه : « مصر ، والتجارة » ، ثم ان أديبا كان من تلاميذ جمال الدين وكان من المؤمنين بالدستور والمبادىء الحرة ، ولقد حمل حملة شديدة على رياض فى جريدته الجديدة وندد باستبداده وقسوته ونسب اليه الظلم والجهل والحمق ، وعاب عليه ما رماه به من الخضوع للأجانب والركون اليهم على حساب أمته ، ولم يدع عيبا يستطيع أن يرميه به الا بالغ فيه وأعاده وكرره ولم يترك غميزة فى خلقه أو فعلة الا ابرزها وراح ينوشه بأوجع الهجاء ، وكان رجال الحزب الوطنى يحصلون سرا على نسخ من هذه الجريدة ويوزعونها فى البلاد ، وكان من بينهم اثنان من المديرين هما : سليمان باشا أباظة مدير الشرقية ، وحسن باشا الشريعى مدير المنيا ...

وكان رجال الحزب الوطنى، يطالبون بالدستور قاعدة للحكم ، ويعملون على منع الاجانب من التدخل فى شئون البلاد لا من ناحية السياسة فحسب ، ولكن من ناحية المال كذلك ، وقد أيقنوا ان الحكم الدستورى الذى يرد فيه كل أمر الى الامة هو وحده العلاج الشافى من كل الادواء القائمة ...

ولكن رجال هـــذا الحزب كانوا لايزالون فى المرحلة السرية من جهادهم خوفا من بطش رياض ومن ورائه توفيق ، وخوفا من نفوذ الاجانب ودسائسهم ، وحسب المرء أن يذكر أن الحكم كان يومئذ وفق العرف ليدرك مبلغ ما كان يتمتع به رياض من سلطة ومبلغ ما كان يخشاه الوطنيون من نكال ...

وفى نفس ذلك الوقت الذى كان فيه يتشاور الوطنيون فيما يعملون ، كان السخط قد بلغ أشـــده فى صفوف الجيش ، على رفقى وسياسته ، ومن ثم على رياض ووزارته ، وكان سخط الجند بلا ريب ناحية من ذلك الاستياء العام الذى شمل مصر كلها ، ولذلك فان من ينظر الى الحركة العسكرية يومئذ على أنها حركة منفصلة انما يخطىء خطـأ كبيرا ، وبخاصة اذا تذكر أن مبعث سخط العسكريين فى جوهره كان تحيز رفقى لبنى جنسه الشراكسة على حســـاب هؤلاء المصريين الذين كانوا ينعتون بالفلاحين .

اذن فقد كان عرابى يمثل ناحية من الحركة الوطنية القومية حين ذهب الى رياض يشكو اليه رفقى، وماكان الجند مدفوعين بمصالحهم وحدها وانما كان يغضبهم الجور ويدفعهم الى الشكوى، ولو لم يكن هناك شراكسة يظفرون دونهم بالرقى والنعمة لـــا كان لحركتهم هذا

الطابع القومى الذى نعجب كيف يمارى فيه الممارون !!
ولن ننسى فى هذا الصدد ان نشير مرة أخرى وقد رأينا مبلغ خوف الناس جميعا من سطوة رياض الى ما كان فى موقف عرابى من جراة وشجاعة وعزة لن يجحدها الا الظالمون ...

***

وكان مما يقضى به منطق الحوادث أن يلتقى الوطنيون والعسكريون ، فهم أبناء أمة واحدة يجمعهم على كره رياض والاستياء من العهد كله ما كان يحيق بهم جميعا من المظالم ، وما كانوا يستشعرونه جميعا فى أنفسهم من أن مرد ذلك الى الحكم المطلق الذى يسير عليه توفيق ووزيره ومن ورائهما تدخل الاجانب .

ولذلك ما كاد عرابى يخطو خطوته حتى حقت له الزعامة كما بينا ، فقد اتجهت اليه القلوب ، اذ هزت الناس جراته وحميته ، وأحس الناس فى دخيلة نفوسهم أن الثورة قد هيىء لها الرجل الذى يقودها .

ولئن زين لبعض الناس أن يقولوا انه ماكان ليستطيع أن يفعل هذا لو لم يكن يستند الى الجيش فانا نقول لهم ولم لم يضطلع بالقضية رجل غيره من رجال الجيش ، ولم يكن أعلاهم مرتبة ؟ ولقد كان معه زميلان حين وثب وثبته فلم لم تنسب الحركة الا اليه ، ولم لم يجر على الالسنة اسم غير اسمه ؟ ومن أدراه أن الجيش لن يخذله اذا جد الجد ؟ وهل قعد به تفكيره فى ذلك وهو ما دار بخلده بالضرورة حين أقدم على هذا الامر الخطير عن أن يخطو خطوته؟ وهل كان يغنيه ما أخذه على زملائه من المواثيق والايمان اذا خاف الجند جانب الحكومة فقعدوا كما قعد آلايه هو عن التحرك من العباسية الا

بعد العشاء ؟ الا انها الحمية التى تقوم عليها كل زعامة من الزعامات ...

وندع للشيخ محمد عبده أن يبين لنا كيف اتجهت النفوس الى عرابى ، قال فى مذكراته عن الثورة العرابية « شاع هذا الخبر بين الناس على حسب العوائد فى مصر ، وعلم الكثير من الاعيان والعلماء والموظفين باصرار الضباط على طلب ماس بالوزارة واحسوا بخلاف بين الخديو ورئيس نظاره ، فهب عند ذلك جميع الراغبين فى تغيير الحال من علماء واعيان وذوات كرام ومقربين من الجناب العالى واتحدت وجهتهم فى الغاية وان اختلفت الدواعى والبواعث ، فطلاب مجلس النواب يؤملون فى التغيير ان ينالوا تشكيله ، والمتضجرون من استبداد بعض المأمورين ، والخائفون من أن يؤخذوا بالشبه يرجون بالتبديل كشفا لكربتهم وامنا على انفسهم ، والواجدون على السلطة الاجنبية يرجون شفاء شيء من وجدهم والذوات الكرام الطامعون فى رجوع سلطتهم على ابدان الرعية واموالها يطمعون فى ارضاء شرههم ، والاجانب الربويون يتطلعون الى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية وقنصل فرنسا البارون درنج يسعى فى الانتقام من رياض باشا ويحب أن يأتى خلف له يمكنه مجاراته فى مطالبه ، والجناب الخديو لايكره أن يتخلى رياض باشا عن رئاسة النظار ، بل تلك أمنية من أمانيه .

فأخذت هذه العوامل جميعها تشتغل لتقوية جانب الضباط وتشجيعهم على الالحاح فى الطلب وكل من وصل اليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه ان يبعث اليهم من يعبر عن أفكاره يؤيد لهم عدالة الطلب ، وموافاته للرغائب الوطنية ، وأن ما يأتيه ناظر الحربية لايمكن الصبر عليه

ثم كانت تأتيهم الاخبار بأن الجناب الخديو لا يأبى اجابة طلبهم بل يحب أن يمكن لهم أمنيتهم وانما رياض باشا هو الذى لايريد ذلك . والله أعلم من اين كانت تأتيهم هذه الاخبار مع أن رياض باشا كان يريد تحقيق الامر حسب ما طلبوا فى تقريرهم كما قدمنا » .

رأى الوطنيون ما أصاب رجال الجيش من ظفر سريع، بينما قد لحقهم هم الفشل، واستطاع توفيق أواستطاع فى واقع الامر رياض أن ياخذ عليهم مسالك القول والعمل فسرعان ما اهتدوا الى الطريق الذى يوصلهم الى اغراضهم فتقربوا من عرابى وتوددوا اليه ، فأخذ شريف يراسله ويعقد بينه وبينه أواصر المودة ، وحذا حذو شريف زعماء حركة الاصلاح فى الازهر وزعماء النواب مثل سلطان باشا ذلك الذى كان يمثل الاعيان كذلك لانه منهم ، واتضح لهؤلاء أنه يجب عليهم أن يستعينوا بهذه القوة الجديدة لاقصاء رياض عن موضعه ، وبعث الدستور الموؤود وتحقيق الاصلاح المنشود .

ويقول بلنت عن ذلك فى كتابه : « وفضلا عن أن عرابيا قد رأى أعيان الفلاحين يسعون اليه ، فانه قد رأى المطالبين بالدستور كذلك يجعلون منه حليفا لهم ، وقد كان الكثيرون منهم أعضاء فى الطبقة الحاكمة وكانوا فى قرارة انفسهم يقاومون حرية الفلاح كما يقاومها رياض نفسه ... وكان شريف رئيس هؤلاء الدستوريين، وقد ادى به مجرى الحوادث فى الصيف الى أن يجد نفسه ذا صلة وثيقة بعرابى وان لم تكن صلة مباشرة ، وذلك كوسيلة لبعث الدستور الذى هو وسيلته لاستئناف سلطته ، ولما كان عرابى على الدوام ميالا الى مبدأ الدستور منعطفا اليه فقد لبى مرحبا بالفكرة ، وزاده اقبالا عليها أن سلطان باشا نفسه أقوى أعيان الفلاحين

يومئذ ، كان من أشد أنصار الدستور وقد اتخذ دور الوسيط فى الصلة بينه وبين شريف » .

والآن نقول : ان الثورة العرابية فى حقيقة أمرها هى التقاء الوطنيين والعسكريين على هـذه الصورة التى بيناها ، ولسنا بحاجة بعد ذلك فيما نعتقد الى كثير ولا الى قليل من القول لنرد على الذين يزعمون أن الثورة العرابية لم تكن الا حركة عسكرية بعثتها دوافع شخصية فأما الذين يزعمون هذا الزعم عن جهل فما نرتاب فى أنهم يرجعون عن زعمهم بعد هذا ، وأما الذين ساءت نيتهم فزعموا هذا الزعم مفرضين فما لنا الى اقناعهم وسيلة ...

ان تجريد الثورة العرابيــة من صفتها القوميــة الدستورية هو من صنع كتاب الاحتلال ، ومن ذهب مذهبهم من المخدوعين ومن المبطلين ، وماذا كان يصنع الاحتلال غير هذا ليبرر وجوده ؟ لقد شـوه القضيــة وحصرها فى فتنة عسكرية حمقاء هوجاء ، وبذل غاية جهده واستعان بجاهه ليصرف الاذهان عن أى معنى من المعانى السامية فى ثورة عرابى الذى القى به وبالابطال من زملائه فى منفى بعيد بدعوى أنهم من العصاة المفسدين فى الارض ، ثم دأب كتاب الاحتلال وصنائعه على تضليل أبناء الجيل الذى أعقب الثورة ، وجاراهم فى ذلك من الكتاب المصريين وا أسفاه الجهلاء الذين انخدعوا بما عمل الاحتلال على اقراره فى الأذهان ، والضعفاء الذين راعوا جانب توفيق ثم جانب ابنه من بعده . ذلك الذى ماكان يستطيع أحد أن يجهر بالثناء على عرابى فى عهده ، وملئت كتب المدارس بالأغاليط والاباطيل ، حتى مايذكر الذاكرون اسم عرابى وثورته الا قرنوها بمعانى الطيش والسفه والاحتلال ...

ولكن الحق ان أخفى عن الناس ردحا من الزمن ، لا يستطاع اخفاؤه عنهم الى الابد ، والا ما كان حقا ، فجوهر الحق فى إنه لابد منتصر مهما طال عليه الامد ومهما استعدى عليه الباطل من ألوان الخداع والبهتان.

وان مصر اليوم لتعطف على عرابى وثورة عرابى ، وقد آن لها أن تنصف هذا المصرى الفلاح وأن تحدد له مكانه بين قواد حركتها القومية ...

وليس بعجيب أن يموه كتاب الاحتلال وصنائعهم وأن يلبسوا الحق بالباطل ويكتموا الحق وهم يعلمون ، نقول ليس ذلك بعجيب ونحن نجد وا أسفاه رجلا من خيرة رجالنا ومن مفاخر أبطالنا يكتب عن عرابى صاحبه فى الجهاد وزميله فيما كان يطمح اليه من آمال . فينكر عليه زعامته ويقدح فيه قدحا كم تألمنا لصدوره عنه بالذات ، وله فى نفوسنا ما له من الاجلال والاكبار ، ذلك هو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ...

وانا اذ نحرك القلم لننقل هنا ما كتبه ذلك الشيخ الجليل عن عرابى لنحس بكثير من الخجل والاسف ، فما كنا نحب الا أن يتنزه الامام الكبير عما وقع فيه غيره وما نريد بنقل ما كتبه الاستاذ الامام عن عرابى وبيان ما أحاط به من ملابسات أن نسىء الى ذلك الشيخ فتوقيرنا اياه واجلالنا له فوق كل شك وانما قصدنا ان نبين كيف تبعد أحيانا بالمرء على رغمه عوامل وظروف عما يجب من انصاف ، ويهمنا بوجه خاص حدوث ذلك من الشيخ محمد عبده بالذات ، فقد هان بعده كل اتهام يوجه الى عرابى وصغر كل ادعاء من ادعاءات المغرضين، واذا كان الشيخ محمد عبده يكتب عن عرابى هذا الذى نورده وهو العليم به الخبير بأحداث عصره ، وهو فوق

ذلك الامام الزعيم ، فكيف بالظالمين الغاصبين من انصار الاحتلال وابواقه ؟

وكأنى بالقارىء يقول فى نفسه : ولم لايكون حقا ما قاله الاستاذ الامام عن عرابى وللقارىء ان يتساءل هذا التساؤل ، ولكنه لن يلبث حتى يعلم اليقين ...

كتب الاستاذ الامام محمد عبده مذكراته عن عرابى بطلب من الخديو عباس حلمى ، وهذه دعوى لا تحتاج الى دليل فقد جاء فى مقدمتها قوله : « هذا مقام الذاكر لنعمتك ، العارف بقدر منتك ، العاجز عن الايفاء بحق شكرك ، التالى فى سره وجهره لآيات حمدك ، طوقتنى احسانا لم أكن أتأمله ، اذ امرتنى أمرا ماكنت أتخيله ، امرت أن أكتب ما شهدت وما سمعت وما علمت وما اعتقدت فىالحوادث العرابية منعهد نشأتها الى نهايتها» الى أن يقول : «مولاى : أرفع الى سدتك السنية ما وقفت عليه بنفسى غير ناظر فى كتاب ولا راجع الى مقال سبقنى به غيرى ، اللهم الا بعض الاوامر الرسمية أو شىء من المخابرات السياسية التى تضطرنى فى بيان الواقع الى الاشارة اليها اذ لا غنى للقارىء عن الاطلاع عليها » . اذا كان هذا شأن هذه المذكرات فليس مما يتوقعه المرء أن يمتدح محمد عبده عرابيا ويظهره على حقيقته زعيما وطنيا مجاهدا مطالبا بالدستور الذى أنكره توفيق ، فيسىء بذلك الى عباس بن توفيق ...

ولقد كانت صلة الامام بالخديو أول الامر طيبة فلما دب بينهما دبيب الخلاف فيما بعد أمسك الاستاذ عن اتمام تاريخ الثورة العرابية ، ولو أن محمدا عبده كتب هذا التاريخ بغير طلب الخديو أو لو أنهكتبه بعد الخلاف بينه وبينه لما ذكر عن عرابى ما ذكره مما سيأتى بيانه ، ولقد كان محمد عبده فيما كتبه عن توفيق مترفقا به

كل الترفق يتلمس له المعاذير فى كل أمر وفى هذا وحده ما يكفى لبيان ما كان يحيط به من عوامل بعدت به عن الانصاف .

يضاف الى ما تقدم ان الاستاذ الامام ، وان كان من دعاة الشورى والحكم الدستورى كأستاذه جمال الدين الا أنه كان يرى أن مصر لم تكن تهيأت يومئذ لهذا الحكم وكان يميل الىحكم رياض ويحسب أنه يجد فيه المستبد العادل الذى ينهض به الشرق ، ولذلك نقم الاستاذ على عرابى ونفرت نفسه من الحركة العسكرية ؛ نجد الدليل على ذلك فىقولالشيخ رشيد رضا تلميذه وكاتب تاريخ حياته : « ان الاستاذ كان مؤيدا لوزارة رياض باشا الاصلاحية ويرى أنها صورة حسنة للمستبد العادل الذى يرجى أن ينهض بالامة فى مدى خمس عشرة سنة كما بينذلك فىمقالة اجتماعية عامة وجيزة يراها القارىء فى الجزء الثانى من هذا التاريخ ، وكان يفضلها على انشاء حكومة نيابية قبل استعداد الامة لها » .

نورد بعد ذلك ما كتبه الاستاذ عن عرابى ، فنقول انه استبعد أن يكون عرابى من طلاب الدستور لذاته فكأنه ما طالب بالدستور الا محافظة على نفسه بعدما كان من فعلته التى أدت الى حادث قصر النيل . يقول الاستاذ : « هذه أحاديث عقل ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابى تمثلت له جنايته فى صور أغوال فاغرة الافواه محددة الانياب ، ولزمه خيالها فى يقظته ومنامه ، فهو فى فزع دائم يخيل له العزل والموت فى كل شيء يراه ، يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى الا سيوفا مسلولة أو حبالا منصوبة ولا يسمع من هواجس نفسه الا صيحة واحدة الخلاص ، الخلاص ، الهرب ، الهرب ، ولم يتمثل فى مخيلته مهرب أوفى له من طلب تشكيل مجلس النواب

على الصورة التى قدرها له فى نفسه » .

وقال فى موضع آخر : « استحثه الحرص على ادراك المطلب أن يفضى به الى ضباط الجيش وأن يثير فى أحلامهم الضعيفة تماثيل الامانى من العزة والسلطان والصعود الى أعلا مراقى الرتب والمناصب ، وأن كل ذلك لاينال الا بمجلس النواب » .

وقال فى موضع ثالث : « أما عرابى فلم يكن يخطر بباله ولا يهتف به فى منامه أن يطلب اصلاح حكومة أو تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى اليه ، وانما الذى أحاط بفكره وملك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من أمراء الشراكسة والمنافرة من عثمان باشا » .

هـذه آراء أقل ما يقال فيها بعد ما أشرنا اليه من ملابسات كتابتها أنه كتبها « غير ناظر فى كتاب ولا راجع الى مقال سبقه به غيره » كما ذكر فى مقدمة مذكراته التى كتبها للخديو عباس ، أعنى أنها آراء يعوزها الدليل من الحوادث أو الشواهد ، على أننا اذا أخذناها على علاتها فماذا نخرج به منها الا أن عرابيا رأى الظلم محيطا به فأراد أن يعتصم بالعدل فى صورة مجلس نيابى ؟ ولم لا تكون مصر كلها ممثلة فى شخص عرابى فكانت تحيط بها المظالم وتخشى الطغيان ولم يكن لها من عاصم الا حكم الدستور ؟ ولقد بينا مبلغ ما كانت تعانيه مصر منذ حكم اسماعيل ، واذا دفع الانســان الخوف من الظلم الى مقاومة الظلم فهل يكون ذلك دليلا على جبنه ورغبته فى الهرب أم يكون دليلا على شجاعته وتحديه المخاوف ؟

ان الذى يعنينى من هذا الذى ذكره الاستاذ الامام هو أن أبين ما لحق عرابيا من الظلم ، حتى من أقرب الناس اليه عسى أن يحذر القارىء مما قد يجده من غير

الامام من هذا القبيل وعسى أن يطرح من ذهنه ما قد يكون قد علق به ، وما أحسب أن فى تاريخ الزعماء من تجمعت عليه المظالم كما تجمعت على عرابى فى حياته وبعد موته كذلك لست أذكر حركة جردت من معانيها السامية حتى تركت فارغة شوهاء تنكرها النفوس كهذه الحركة القومية التى بخسها المبطلون حقها هذا البخس الشنيع .

كانت الثورة العرابية ثورة قومية جمعت بين المدنيين والعسكريين من أبناء أمة واحدة أيقظتها المظالم واذا كان العسكريون أو زعيمهم عرابى قد طالبوا بالدستور خوفا على أنفسهم كما يذكر الشيخ محمد عبده ، فلماذا طلبه المدنيون ؟ أن كانوا طلبوه خوفا على أنفسهم كذلك من مغبة معارضتهم الخديو ووزيره وكان ذلك معناه عند الشيخ الجبن فانه لا قومية ولا وطنية هناك ، ويكون شأن الوطنيين فى هذا ومنهم الشيخ محمد عبده شأن عرابى وأعوانه ...

ان الوطنيين والعسكريين قد أحاطت بهم المخاوف من كل جانب فطلبوا الدستور وطلبه عرابى فيمن طلبوا وقد استعان به الوطنيون ، ولست أفهم لماذا يفرق الشيخ محمد عبده بين الباعث لعرابى على طلبه وبين باعث الوطنيين ؟ لقد كان يجوز أن تعلق بكلامه بعض الوجاهة لو لم يثبت أن الوطنيين اتصلوا بعرابى وطلبوا عونه أى لو أن عرابى وحده قد التجأ الى الاعتصام بطلب الدستور كفكرة طارئة أملاها عليه الخوف وليس فى البلد حركة دستورية ، أما أن تكون المطالبة بالدستور حركة عامة سابقة لشكوى عرابى وزميليه ويكون هو قد شايعها بوجدانه متضامنا مع زعمائها لايمانه بمبدأ الشورى ولما كان ينصب على الجميع من مظالم بيناها فى

موضعها ، ثم يصور لنا طلبه كما صوره الامام فذلك ما لا نستطيع أن نحمل عقلنا على قبوله ، ولو أن عرابيا كان من طبعه الخوف والهرب لما أثارتلك الحرب على الشراكسة ولما أقدم على رفع الشكوى الى رياض ولا على تدبير حادث قصر النيـــل ولا على الذهاب الى عابدين بعد اخراجه من السجن ، أجل ما كان ليفعل شيئا من هذا جبان خائف فهى أفعال لن ينهض بها الا مقدام ، قال الشيخ محمد عبده فيما علق به سنة ١٩٠٣ على ما كتبه عرابى من تاريخه لبلنت حين أطلعه عليه (١) : « كانت الاشهر السبعة بين حادث قصر النيـــل ومظاهرة ٩ سبتمبر أشهر نشاط سياسى عظيم شمل جميع الطبقات ، واكسبت عرابيا فعلته كثيرا من ذيوع الصيت ووصلت بينه وبين المدنيين من أعضاء الحزب الوطنى مثل سلطان باشا وسليمان أباظة وحسن الشريعى وشخصى ، وكنا نحن الذين أبرزنا فكرة تجديد المطالبة بالدستور ، وكانت وجهة نظره يومئذ أن ذلك يهيىء له ما يعصمه ويعصم زملاءه العسكريين من انتقام الخديو ووزرائه ، وقـــد أخبرنى بذلك مرارا أثناء الصيف ، وبنـــاء على ذلك أعددنا ملتمسات للمطالبة بالدستور وشفعنا ذلك بحملة فى الصحف ، وقد لقى عرابى سلطانا فى الصيف مرات كثيرة وقد أهتم به سلطان وقـــد كان عظيم الثراء ، اهتماما شديدا وأرسل اليه كثيرا من الهدايا كالمنتجات الزراعية والخيل وما اليها ، وذلك كى يثير حماسته ، ولكى يظفر بمعونته فى الحركة الدستورية ولقد دبرت مظاهرة عابدين بالاتفاق مع سلطان » .

وخلاصة ما يستخرج من هـــذه الفقرة أن الوطنيين

---

(١) The Secret History of The British Occupation of Egypt. P. 490.

والعسكريين اتفقوا على المطالبة بالدستور وأن الوطنيين أرادوا أن يستعينوا بقوة العسكريين ، وأن الباعث للعسكريين كان رغبتهم فى ايجاد ما يعصمهم من انتقام الخديو ، وأى عيب فى هذا الباعث ، وهل كان غيره منذ نشأت الحركات الدستورية باعثا للأمم على المطالبة بالحكم الدستورى ؟ ان كل منصف لايسعه الا أن يرى فيما وصف به الشيخ محمد عبده عرابيا من صفات الفزع والخوف والهرب تزيدا لا مبرر له ولا ينهض من الحوادث دليل عليه ، بل ان الحوادث جميعا تنقضه فالامر هين بين ينحصر فى أن عرابيا واخوانه رأوا فى الحكم الدستورى عاصما لهم من الجور كما رأى ذلك الوطنيون ، ومنهم الشيخ محمد عبده ...

***

التقى الوطنيون والعسكريون فكان من التقائهما واتجاههما وجهة واحدة ، حركة قومية غايتها الدستور والحرية . ولقد نجحت تلك الحركة نجاحا باهرا يدعو الى أكبر الاعجاب وبلغت غايتها دون أقل مكدر يوم عابدين، ولولا ما كان من موقف توفيق بعد ذلك ومن كانوا يتربصون بالبلاد من الثعالب وبنات آوى لسارت مصر قدما فى طريق الحرية والنهوض ...

وما يشين هذه الحركة مشاركة العسكريين فيها ، فليست فى ذلك بدعا من الحركات ، فما خلت حركة قومية من عنصر الجند اما متطوعين أو من الجيش القائم، وهل يعيب حركة استقلال المستعمرات الامريكية مثلا أن وشنطون الجندى كان زعيمها ؟ وهل يشين الثائرين من الاحرار على استبداد الملك شارل الاول فى انجلترا استعانتهم بكرمول وجنوده؟ وهل كان فى انضمام

الجيش فى فرنسا الى أكثر الحركات الثورية مما يذهب بجلال هذه الثورات ؟ ذلك ما لايقوله منصف ...

حق لمصر أن تفخر بأنها ثارت ثورة قومية حـــرة فى القرن التاسع عشر عصر القوميات والثورات وتلك هى الثورة العرابية التى مهدت لها عوامل وأسباب تجعلها أشبه ما تكون بأجل الحركات القومية فى أوربا ...

وسيخنق الاحتلال هـــذه الحركة القومية ويطفىء شعلتها ولـكن جمرتها تبقى تحت الرماد الى أن ينفخ فيها سعد من روحه فتشتعل وتتوهج حتى ما يستطيع مســتبد ولا طاغية بعد ذلك أن يخمد نارها أو يطفىء نورها ...

دسائس ومخاوف

كانت سياسة توفيق ان كان ثمة له من سياسة عقب حادث قصر النيل أهم العوامل فى تطور الحوادث على النحو الذي سوف نراه ، فلقد أجاب الضبـــاط الى مطالبهم وفى نيته ان يغدر بهم متى حانت الفرصة...

وأدرك الضباط لاريب أنه أجابهم الى ما طلبوا لانه لم يكن له من ذلك بد ، ولذلك أحسوا أنه لابد متربص بهم فتربصوا هم كذلك به ...

وكان توفيق من ناحية أخرى يكره رياضا ويعمل على التخلص منه ، لذلك وضع نفسه فى موضع عجيب حقا، فبينما هو يسخط على الضباط ويمقت حركتهم اذا به يتخذ منهم كما سنرى أداة للكيد لوزيره بغية اقصائه عن منصبه .

وهكذا تشاء الظروف النكدة أن يكون رجل كتوفيق هو الذى يحرك دفة الامور فى مثل ذلك الزمن العاصف.

لم يكن أمام توفيق كما أسلفنا الا أن يتخذ سبيله الى قلوب الوطنيين فيجعل من نواب الامة سندا له كما فعل أبوه فى أواخر أيامه ...

ولــكن توفيقا لم يلجأ الى ذلك الحل ، وما نشك فى أنه كان يفطن اليه ، ولــكنه كان يقتضيه أن ينزل عن سلطانه الى نواب الامة وهو ما نشك كل الشك فى أنه

كان يستطيع أن يحمل نفسه عليه ، ومن هنا أحدقت به وبمصر الاخطار ، فى وقت نشطت فيه دسـائس الاجانب الذين أحكموا شباكهم لاقتناص الفريسة الغالية فى تلك الايام الـكدرة .

وقع حادث قصر النيل فى فبراير سنة ١٨٨١ ، وفى أعقاب الحادث مرت على مصر بضعة أشهر ما نظن أنه مر على البلاد فترة مثلها فى كثرة ما حيك فيهـا من الدسائس على قصر أمدها ...

أمر الخديو فأقيم حفل بعد حادث قصر النيل دعى اليه كبار رجال الجيش ، وخطب الخديو فأعلن عفوه عما حدث وأنه لا يضمر لأحد سوءا وحث الجند على الطاعة والنظام وأكد لهم أن الحكومة تهتم بأمرهم كل الاهتمام .

وقابل الضباط خطاب الخديو بالابتهاج والشكر ، وهتفوا به معبرين عن ولائهم له معلنين بين يديه أنه لن يرى منهم الا الطاعة والولاء .

ونظر البـــارودى وزير الجهادية الجديد فى مطالب الجيش فأجابهم الى أكثرها وكانت تدور حـول زيادة المرتبات واصلاح قانون الترقية وقانون الاجازات والعناية بمأكل الجيش وملبسه ، كما طلب الضباط اعادة أحمد بك عبد الغفار قائمقام السوارى الى الخدمة وتم لهم ما أرادوا فعاد هذا الضابط الى حيث كان قبل أن يعزله رفقى .

وأقام البارودى حفلا للضباط بعد اصلاح حالهم ، شهده الوزراء ، وخطب البارودى كما خطب رياض ، وأثنى رياض على الجند وحثهم على النظام وسألهم أن يقابلوا ما لقوا من اصلاح بالطاعة وأداء الواجب ، وخطب عرابى فأثنى على الخديو وأعرب عن ولاء الجيش لسموه

سمع الضباط أول ما سمعوا أن أعوان الخديو يغرون بالمال والمناصب بعض رجال الآلايات ليكونوا فى الوقت الموعود الى جانب الخديو ، ونمى اليهم فيما نمى أن رياضا يفكر فى طرق اجرامية للفتك بهم ومن ذلك ما علموه من أنه كان يدبر مشاجرة فى أحد الشوارع يندس فيها من يقتل عرابيا أو من يحضر من زميليه ...

وحدث فى آلاى طره وهو الآلاى السودانى الذى كان يراسه عبد العال حلمى ، أن كتب ثمانية من صف الضباط السودانيين يتنصلون من حادث قصر النيل ويعلنون ولاءهم للخديو ويبدون اعتذارهم ويتهمون رؤساءهم ، وأمر عبد العال باجراء تحقيق ثبت منه أن باشجاويشا شركسيا هو الذى حرضهم على ذلك وأن الذى حرض هذا الباشجاويش هو يوسف كمال باشا ناظر دائرة الخديو الذى دفع لكل من هؤلاء الثمانية ، جنيهات ثمانية ، وغضب عبد العال واشتكى الى رياض ورفع رياض الامر الى الخديو ونصح بعزل يوسف كمال باشا تهدئة للخواطر وقتلا للفتنة فى مهدها وأجابه الخديو الى ما طلب ، وعاقب عبد العال ذلك الشركسى المحرض بالحبس ستة أشهر ... وكشف عبد العال دسيسة أخرى كان يدبرها سودانى فى الاستيداع هو الاميرالاى فرج بك الزينى وكان مسكنه على مقربة من مقر آلاى طره وأثبت التحقيق أنه كان على صلة بيوسف كمال باشا ، وقد ضبطه عبد العال بنفسه فى حقل قمح يحرض بعض الجند على كتابة المطاعن فى رؤسائهم ، وقد أبعد الزينى الى السودان ، ويقول عرابى فى مذكراته : « ان دسيسة فرج بك الزينى كانت أيضا من يوسف كمال باشا ، وان الخديو أراد أن يعوضه عما فاته فى مصر من رعايته ، فلما نفى الى السودان ارسل الى رؤوف باشا

حكمدار السودان وقتئذ ليلحقه بخدمة الحكومة السودانية ومنحه رتبة لواء ، فصار يعرف بفرج باشا الزينى » .

واتهم تسعة عشر ضابطا أحد رؤسائهم بأمور نسبوها اليه اثبت التحقيق بطلانها ، فأبعدتهم الوزارة عن مناصبهم ، فبادر الخديو باعادتهم ، الامر الذى حنق له زعماء الجيش ، اذ رأوا فيه أن الخديو انما يعضد حركة التمرد فى صفوف صغار الضباط ويستميلهم اليه ضد رؤسائهم .

وكذلك سمع الضباط أن الحكومة تنوى أن ترسل الآلاى السودانى بقيادة عبد العال بك الى السودان ، بحجة أن القوة الموجودة هناك غير كافية لحفظ النظام ، فأحس الضباط من ذلك أن النية متجهة الى تشتيتهم للقضاء عليهم متفرقين ...

وترامى اليهم أن الخديو يمرن حرسه فى الاسكندرية على اطلاق النار ، وأنه يشهد ذلك بنفسه وينثر الذهب على الجند متظاهرا بمكافأة المجيدين فى اصابة المرمى ، ولا يفسر مثل هذا العمل فى ظروف كهذه الا بأنه استعداد من جانب الخديو لما كان مقبلا عليه من قمع وبطش ...

وارادت الحكومة أن تسخر الجند فى حفر الرياح التوفيقى ، وكان عليهم أن يسلموا أسلحتهم الى مخازن الجهادية قبل ذهابهم الى ذلك العمل ، ورفض عرابى أن يوافق على ذلك وأيده فى رفضه البارودى ...

وحدث فى الاسكندرية أن دهمت عربة أحد التجار وكان سائقها أجنبيا أحد الجنود فنقل الى المستشفى حيث قضى نحبه ، واستشاط تسعة من الجند غضبا ، وأملت عليهم سذاجتهم أن يحملوا زميلهم القتيل الى سراى رأس التين فيقتحموا أبوابها على الرغم من مقاومة

الحرس ويتصايحوا داخل السراى شاكين من الاجانب ، راجين أن يتدخل الخديو بنفسه لمعاقبة هـذا السائق الاجنبى . وسمع الخديو هـذا الصخب فنهر الجند بنفسه وصرفهم من حديقة قصره ، ويدل هذا الحادث فضلا عن سذاجة الجند على مبلغ ماكان يتصوره الناس من عظم نفوذ الاجانب ، فما يجرؤ أن ينالهم بالعقاب أحد الا الخديو نفسه ، ولهؤلاء الجند بعض العذر فيما تخيلوا وان كان ذلك لايبرر اقتحامهم القصر على هـذه الصورة ...

ولكن العقاب الذى عوقبوا به على فعلتهم كان بالغ الصرامة والقسوة . فقد عوقب الجندى الذى حرضهم على ذلك بالحبس المؤبد مع الاشغال الشاقة ، وعوقب الثمانية الباقون بالحبس فى ليمان الخرطوم ثلاث سنوات مع الاشغال الشاقة كذلك ...

ولما ذاع النبأ فى الجيش استاء الضباط والجنود أعظم الاستياء من فداحة الحكم ، وكتب عبد العال تقريرا للبارودى يتظلم منه ويقارن بين هذا الحكم وبين ماعومل به الضباط التسعة عشر المتمردون ، وأظهر البارودى ميلا الى قول عبد العال ، ونمى ذلك الى الخديو فغضب أشد الغضب على البارودى ، وقد كان يكرهه ويظهر السخط منه منذ أن أشار بأخذ الجند بالرفق واجابة ملتمسهم عقب حادث قصر النيل ومنذ أن اختاره الجند وزيرا للجهادية ، فقد داخلَ توفيقا الشك فيه ، ثم أصبح يعتقد أنه من رؤوس الفتنة وانه هو الذى يثير الجند لاغراض يسعى لتحقيقها ...

واستدعى الخديو وزراءه الى الاسكندرية وصارحهم بأن وجود البارودى فى الوزارة هو سبب ما فى الجيش من فوضى ، ولم يسع البارودى الا الاستقالة وقد كان

الخلاف كذلك شديدا بينه وبين رياض تم ابلغ البارودى أن عليه أن يرحل فورا فيقيم بضيعة من ضياعه كيلا يتصل بأحد من الجند أو يتصل به أحد .

وعين داود يكن باشا صهر الخديو وزيرا للجهادية ، وهو شركسى لا يقل فظاظة وحمقا عن عثمان رفقى ، وعزل الخديو محافظ القاهرة احمد باشا الدرمللى لاتهامه بالعطف على الجند وأحل محله عبد القادر حلمى باشا ..

ولقدكان البارودى فى الوزارة على صلة برجال الجيش فعلا ، وكان ينبئهم بكل ما تريد الحكومة بهم ؛ وقد اتفق معهم أن يكون خروجه من الوزارة علامة اقتراب الخطر

وما لبث أن اتبع داود يكن منتهى الصرامة فى معاملة رجال الجيش ، فحظر عليهم الاجتماع بالمنازل أو ترك مراكزهم ليلا أونهارا ، أوالتحدث فى السياسة، وأنذرهم بأشد العقاب ان هم خالفوا أمره ، ومع ان عرابيا وأنصاره قد هنأوه بمنصبه وطلبوا اليه أن يعمل على اجابة مطالب الجيش التى كان يسعى البارودى فى اجابتها ، فانه اكتفى بالوعود ولم يفعل شيئا ... قال عرابى معلقا على أمر وزير الجهادية الجديد : « ولماكانت تلك الاوامر مخالفة للقوانين العسكرية ومهينة للشرف العسكرى فقد ردت اليه من طرف أمراء الآلايات » .

ولا يقل رد هذه الاوامر الى الوزير مغزى عن حادث قصر النيل ، ان لم يكن أشد منه خطرا فمعنى ذلك ان الجند يعصون ما يلقى اليهم من أمر لايقرونه وفى ذلك الثورة أبلغ ما تكون الثورة ...

وبث حكمدار القاهرة الجديد عيونه وأرصاده على الضباط ، وكان داود يكن يطوف بنفسه على مراكزهم ليوقع الخوف فى نفوسهم .

وأحيط بيت عرابى وعبد العال بالجواسيس، وجرت الشائعات بالنذر فملأ القاهرة نبأ عجيب مؤداه أن الخديو قد استصدر فتوى سرية من شيخ الاسلام بقتل عرابى، وكانت الظروف يومئذ تساعد على تصديق هذا النبأ الكاذب أكبر المساعدة .

***

وطلب مجهول الاذن على عرابى فى منزله فلم يؤذن له ، وشوهد أنه عاد عقب ذلك الى أحد مخافر الشرطة، وذهب عرابى الى منزل زميله عبد العال فعلم أنه حدث هناك مثل ماحدث عنده ، فأيقنا أن حياتهما يتهددها الخطر ، ومما يذكره عرابى فى مذكراته أن أحد الغلمان الشراكسة فى منزل عبد العال ، وهو ابن زوج حرمه المتوفى قد دس له السم فى اللبن بايعاز غلام آخر شركسى من غلمان الخديو ، ولولا أن تنبهت الخادم لذهب عبد العال ضحية هذا الغدر الاثيم ...

وكان للخديو فى تلك الظروف مسلك عجيب ، لولا أن قام عليه الدليل ما استطاع المرء أن يصدقه ، وذلك هو محاولة الاتصال بعرابى وزملائه ليستعين بهم على اخراج البارودى من الوزارة ، وكان رسوله الى عرابى هو على فهمى ثالث الثلاثة فى حادث قصر النيل ، ولقد أظهر له الخديو مودته منذ أن عاد الى آلاى حرسه لكى يستعين به اذا لزم الامر فى تحقيق مآربه ...

أرسل الخديو من الاسكندرية قبل استقالة البارودى أو اقالته على الاصح على فهمى بك رئيس الحرس الى زميليه فى القاهرة ، كما يقول عرابى فى مذكراته ، ليقول لهما ان الخديو يرغب فى عزل البارودى لما رأى من ذبذبته وسوء سياسته ، وأن الخديو يعطف على مطالبهم « فهم ثلاثة وهو رابعهم » وأن سموه يطلب ألا يعلم أحد بايفاد

على بك اليهم ...

وترجع صلة الخديو بالضباط الى ما قبل ذلك ، فانه كان يريد الاستناد اليهم ليحرج رياضا الذى كان يستند الى الاجانب ، وقد ذكر عرابى أمر هذه الصلة سنة ١٩٠٤ بعد عودته من المنفى لبلنت فى حوار بينهما اذ سأله بلنت عن مبدأ صلة الخديو بهم ، فقرر أنها بدأت قبل حادث قصر النيل. وقد ظن عرابى يومذاك أن على فهمى يتجسس عليه ولم يطمئن الى اخلاصه الا حين انضم اليه فى الشكوى الى رياض ، وقد سأل بلنت الشيخ محمد عبده عن ذلك فأيده . قال الشيخ محمد عبده : « ان ما ذكره عرابى عن رسالة الخديو التى ذكر للضباط أنهم ثلاثة وهو رابعهم صحيح وهو يصور أدق تصوير الحال بينه وبينهم يومئذ » .

ولا يخفى ما فى مسلك الخديو من خطورة فأقل ما يوصف به أنه جعل الضباط يشعرون أن الجو كله جو دسائس ومخاوف ، وانه لايمكن بأية حال الاطمئنان الى موقف الخديو تجاه أحد .

***

هذه هى الحال فى الاشهر السبعة التى أعقبت حادث قصر النيل ، دسائس ومخاوف تحيط برجال الجيش وتوقع للانتقام فى كل وقت ...

أما عن الوطنيين فقد أسلفنا القول أن صلتهم بعرابى لم تنقطع طول الصيف ، وكان أكثرهم نشاطا فى الاتصال به سلطان باشا ، وكذلك كان يعمل شريف على توثيق أواصر المودة بينه وبينه ، وأيقن الجميع وطنيون وعسكريون ان لا منجاة لمصر من سوء الحال الا بازاحة رياض عدو الدستور عن الحكم واجبار توفيق على أن

يسلم بالحكم الدستورى الذى أظهر استعداده لقبوله عند توليته ثم ما لبث أن تنكر له ...

ولا سبيل لازاحة رياض واجبار توفيق الا الاستعانة بالجيش أو بعبارة أخرى بزعماء الجيش ، وما كان زعماء الجيش الا نفر من المصريين يحسون ما يحسه أبناء مصر جميعامن مبادىء العهد. يقول عرابى فى مذكراته :« ولما كثرت دسائس الحكومة وبان ختلها وعزمها على اغتيالنا ، أخذنا حذرنا منها وسهرنا على احباط تلك الدسائس المنكرة ، وكان السير مالت قنصل انجلترا بمصر كثير التردد على الخديو ليلا ونهارا دون غيره من وكلاء الدول الاوربية ، فأوجسنا من ذلك خيفة على مصير بلادنا وخشينا من مطامع انجلترا التى كانت ترمى الى التهام وادى النيل أسوة بما فعلته فرنسا بتونس حتى يتم التوازن الذى تدعيه أوربا ، فعرضنا مخاوفنا على جلالة أمير المؤمنين ليحيط علما بما كان جاريا فى مصر ولكيلا يتورط فى تصديق ما قد يصل اليه من دسائس أعداء البلاد ، وذيلنا العريضة المذكورة بامضائى وامضاءات اخوانى على بك فهمى وعبد العال بك حلمى وأحمد بك عبد الغفار بالنيابة عن الجيش ، وأحمد بك أبومصطفى وأحمد بك الصباحى وعثمان باشا فوزى وغيرهم من وجهاء الامة بالنيابة عن جميع المصريين » .

***

ونقل مؤلف كتاب المسألة المصرية عن كتاب بلنت العبارة الآتية (١) « ثم ان الامة بأسرها وبعبارة أدق ان طبقاتها المستنيرة الدستورية النزعة قد تبينت فجأة أنها ليست من الضعف بحيث ظنت نفسها ، وأن لها فى الجيش

(١) المسألة المصرية لروثستين : تعريب الاستاذين العبادى وبدران.

قوة كبيرة متجمعة لا يستهان بها ، فاذا ما استطاعت أن تضمه الى جانبها فى قضية الاصلاح الدستورى فانه لابد قاض على ماحاق بالامة من شــدة وهوان طال عهدهما وسرعان ما أصبح عـرابى وأصحابه بجرأتهم وحركتهم الناجحة معقد آمال الامة وموضــع اعجابها واستحال فى نظر الوطنيين ما كان يقصد به أن يكون مجرد احتجاج عسكرى الى فعلة مدنية وطنية واصبح عرابى رجل مصر المشار اليه بالبنان ولقب بالرجل الوحيــد وما هو الا قليل من الزمن حتى توثقت العلاقات بينه وبين أكثر الزعماء السياسيين فى ذلك الزمن » .

وقال مؤلف ذلك الكتاب أيضا : « كان فى وسع كل انسان اذ ذاك أن يخبر بأن الجيش ان سنحت أو عند ما تسنح له فرصة للظهور فى ميدان العمل مرة أخرى فان ذلك لن يكون من أجل مصالح أفراده أو وظيفته ، ولــكن من أجل مصالح الامة السياسية العامة » .

***

أعد أحمد عرابى بيانا أرسله الى أعيان البلاد ، يبين فيه أخطــاء الحكومة واستبدادها ويدعو النــاس الى معاونته لانتشـــال البلاد مما هى فيه ، وقــد جاء فى مذكراته وصف استعداده لهذا العمل قال : « ثم أخذت فى نشر افكارى بين علماء الامة وأعيانها وعمــد البــلاد ومشايخ العربان طالبا منهم مســاعدتى فى حفظ الامن والراحة العمومية حتى نتفرغ للنظر فى مصالح البــلاد ونتوفر على انتشالها من وهدة الاضمحلال » ... الى أن قال : « وسيلى ذلك اسقاط الوزارة الحاضرة التى لا تريد بالبلاد خيرا ، وتشكيل مجلس نواب يعهد اليه فى الوصول بنا الى الحرية المنشودة ، وختمت المنشور بطلب مساعدة أبناء البلاد وتأييدهم ، وبنــاء على ذلك

وفدت علينا الوفود من جميع أنحاء القطر ، وسلمتنا عرائض النيابة عنها ، وفوضت الينا العمل لما فيه سعادة البلاد وخلاصها من براثن رجال الاستبداد معلنة تضامنها معنا فى كل ما نقوم به من أعمال الاصلاح وما ينتج عنها من النتائج » .

هذا ما أعده عرابى لوثبته الثانية فى سبيل حرية وطنه ، أو هذا ما يعتزمه من اقدام الرجل الذى وصفه خصومه فيما وصفوه به بالجبن والخوف والرغبة فى الخلاص والهرب ... ألا ليت كل شجاعة تكون كهذا الجبن الذى يصفون ، وليت كل شجاع مستطيع أن ينهض لما نهض له أحمد عرابى ...

يوم عابدين

هذا هو اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١، أعظم يوم فى تاريخ القومية المصرية ، ذلك التاريخ الذى افتتح فى شهر مايو سنة ١٨٠٥ حين سار السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى على رأس جمهور المصريين الى منزل محمد على فالبسوه شارة الحكم دون أن يستأذنوا السلطان ...

وأخلق بهذا اليوم المشهود أن يكون له فى نفوس المصريين مثل ما لليوم الرابع عشر من شهر يوليو فى نفوس الفرنسيين... وعلى الذين يعنون بتاريخ الحركة القومية فى مصر أن يعلموا أبناء هذا الشعب أن اليوم الذى نتحدث عنه هو بدء حياتهم أمة لها كرامة ...

أخذ عرابى للأمر عدته على خير ما يستعد الرجل اليقظ الىعواقب الامور، فكتب الى وزير الحربية يطلب اليه أن يبلغ الخديو بأن آلايات الجيش جميعا ستحضر الى ساحة عابدين فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٩ سبتمبر « لعرض طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وضمان مستقبلها » .

وأرسل عرابى الى قناصل الدول يقطع عليهم سبيل الدس والتقول فأنبأهم أن لاخوف على أحد من الاجانب فانها سوف تكون مظاهرة سلمية تقتصر على أحوال البلد الداخلية ...

قال بلنت : « كان للمظاهرة كل ما يرجح أنها كانت سلمية ، فلكي يقلل عرابى من خطر ما قد يكون من سوء الفهم، كتب الى الخديو ينبئه بما اعتزم هو وزملاؤه من خطة، ويقولون ان الدليل على أنهم لايبغون بها عداء لشخصه أنهم لم يذهبوا اليه فى قصره بحى الاسماعيلية وأنهم قصدوا مقره الرسمى فى عابدين وتوسلوا اليه أن يلقاهم هناك ليستمع الى شكواهم »

ذعر الخديو وذعر رياض وقد دعاه اليه كما دعا ستون باشا رئيس أركان حرب الجيش وأحمد خيرى باشا رئيس ديوانه ليشاورهم فى الامر .

ورأوا أن يحاولوا اقناع عرابى بالاقلاع عن هذه المظاهرة ، فأوفد الخديو اليه ياوره طه باشا لطفى ، ورفض عرابى أن يعدل عما صمم عليه وأخبره بأنه لايريد أكثر من « أن يعمل مظاهرة عادلة لابد منها لضمان حرية الامة وسعادتها » .

وفى هذا الذى صنع الخديو ومن معه أبلغ دليل على ما وصلوا اليه من ضعف وقلة حيلة .

وكان الخديو فى قصر الاسماعيلية فأرسل يستدعى السير أوكلندكلفن المراقب المالى الانجليزى ، ولما حضر سأله ماذا عسى أن يفعل فى هذا الموقف ؟ قال كلفن يشير الى ذلك : « فنصحت اليه أن يقاوم (١) ؟ فقد أخبرنى رياض باشا أن فى القاهرة فرقتين مواليتين ، لذلك أثرت على الخديو أن يدعوهما الى عابدين مع ما يمكن الاعتماد عليه من الحرس الحربى، وأن يضع نفسه على رأسهما. فاذا ما وصل عرابى قبض عليه بشخصه . فأجابنى أن لدى عرابى بك المدفعية والفرسان ، وربما أطلقوا النار

---

(١) يذكر بلنت، فى كتابه انكلفن نصح توفيقا ان يطلق النار على عرابى بيده ..

فأجبت أنهم لن يجرؤوا على ذلك ، ومتى توفرت له الشجاعة للمقاومة وعرض نفسه شخصيا ، فانه يتسنى له أن يقضى على المتمردين ، والا فانه ضائع » (١)

هذا ما أشار به كلفن وما نراه يحمل كما يقول كرومر: « قسطا من تلك الروح التى تحيى جنسه الامبراطورى» الا على المعنى الذى نفهمه نحن ، وذلك أنه يلقى الزيت والحطب على النار حتى لا تبقى ولا تذر، وبعدها تقتنص الفريسة ، مصر المسكينة ، بدعوى انقاذ البلاد من نار الفتنة . وما أظن ذلك القول محتاجا الى دليل ، فهذا الذى يدعو اليه كلفن لو وقع لن يكون الا حربا أهليـة شرها مستطير وهولها خطير ...

توجه الخديو الى عابدين قبل حضور الفرق بزمن ليس بالقصير ، ومعه كلفن ورياض وستون فاستدعى على بك فهمى رئيس الحرس ، وأشار عليه بالدخول الى القصر بفرقته والتحصن بالنوافذ العليا وقد نصح للجند بقوله : « أنتم أولادى وحرسى الخصوصى فلا تتبعوا التعصب الذميم ، ولا تقتدوا بأعمال الآلايات الاخرى »

فأطاع الجند وأخذوا يتأهبون ...

وسار الخديو بعد ذلك الى القلعة يحاول أن يثنى آلايها بنفسه عما اعتزم ، ولكنه لم يجد منه شيئا مما وجد من حرسه من ولاء ، فسار الى العباسية حيث كان آلاى عرابى ، ولكنه علم هناك أن عرابيا سار منذ ساعة على رأس جنـده ومعهم المدافع بطريق الحسينية الى عابدين فقفل أدراجه اليها ...

وفى عصر ذلك اليوم المشهود التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ تحرك الجيش يقصـد عابدين ، فخطت الثورة

(1) Modern Egypt-Cromer. P. 144

الوليدة أجرأ خطواتها وأبعـــدها أثرا فى تطور حوادث ذلك العهد ...

وتلاقى عرابى فى ميـــدان عابدين بالآلايات الاخرى بقيادة أحمد بك عبد الغفار .وعبدالعال بك حلمى وابراهيم بك فوزى وفوده أفندى حسن وغيرهم من انصاره وكان عدد الجند المحتشدين نحو أربعة آلاف ومعهم المدفعية ، وأرسل عرابى يستدعى على بك فهمى من داخل القصر فعاتبه فرد بقوله : «ان السياسة خداع» ثم ذهب فعاد بفرقته ، وانضم الى الجيش فأصبح القصر خاليا من كل عناصر المقاومة ، وكان فيما صنع على بك فهمى كثير من الخير لانه الجهة الوحيدة التى كان يخشى منهـــا خطر الحرب الاهلية ...

وتجمع وراء صفوف الجيش آلاف من أهل القاهرة الذين أخذتهم الدهشـــة لهذا المنظر لاريب ، واشرأبت أعناق الشعب التى طالما ألفت الذلة ، وتطلع من فوق أكتاف الجند ، ومن خلال صفوف الفرسان لينظر ماذا يكون فى هذا الموقف الرهيب ، واسم عرابى يجرى على الالسن فى حين تدور الابصار باحثة عن موضعه وهو على ظهر جواده أمام جنده يتأهب لمقدم الخديو ليسمعه كلمة مصر ، كلمة الشعب الذى ألبس جده بالامس الـكرك والقفطان شارتى الحكم دون رجوع الى السلطان ، وما أعظم كلمة مصر ينطق بها فلاح من أعماق الوادى نبت ونما على ثراه ...

ووصل الخديو الى عابدين بعد أن فشلت سياســة طوافه على الآلايات ، تلك السياسة التى تدل فى ذاتها على منتهى الضعف ، والتى لايشفع له فى اتباعها سوى أنها كانت آخر سهم فى جعبته ان كان هذا شــفيع . والحق أن الخديو قد لاقى فى ذلك الطواف ما تنخلع منه

أفئدة أقوى من فؤاده ، وحسبك أن فرقة القلعة ثارت في وجهه حينما أمسك بنفسه بتلابيب قائدها فودة حسن حتى لقد وضع العساكر الاسنة في بنادقهم بأمر من هذا القائد وتجمهروا حول الخديو حتى صاح بالقائد «أفسح لنا الطريق يا بكباشي» .

ودخل الخديو السراى من الباب الخلفي، باب باريز . ويقول كلفن انه قفز من العربة وأشار على الخديو أن يسير من فوره الى الميدان ففعل توفيق ذلك ، وسار الى حيث اجتمع الجند ، ووراءه ستون باشا واربعة أو خمسة من الضباط الوطنيين وواحد أو اثنان من الضباط الاوربيين ، ويذكر عرابى أنه كان معه كذلك كوكسن قنصل انجلترا بالاسكندرية والجنرال جولدسمث مراقب الدائرة السنية .

وتقدم الخديو ثابت الخطى، فأشار عليه كلفن أن يأمر عرابيا بتسليم سيفه متى دنا منه ، وأن يأمره بالانصراف ثم يطوف بعد ذلك على الفرق فيأمرها بمثل هذا الامر .

وسار عرابى على ظهر جواده حتى اذا اقترب من الخديو ، صاح به الخديو قائلا : «انزل» فوثب عرابى من فوق جواده ، ومشى نحو الخديو ومن حوله نحو خمسين ضابطا ، فأدى التحية العسكرية ، وأشار الخديو اشارة ذات معنى الى سيفه فأسرع عرابى باغماده

الموقف رهيب بالغ الرهبة ! ففي هذا الجانب حيث يقف الجند نرى مصر التي أيقظتها المحن والفواجع تتمثل في هذا الجندى الفلاح تجرى على لسانه كلمتها في غير التواء أو تلعثم ، وفي الجانب الآخر صاحب السلطان الموروث تغضبه هذه اليقظة وتذهله ، مع انه رآها منذ بدايتها ، ورأى اباه على جلالة قدره يوسع لها صدره ويخفض لها جناحه فيزداد بذلك رفعة ...

هنا الحرية الوليدة والديموقراطية الجديدة ، وهناك التقاليد العتيدة والأوتوقراطية العنيدة ، ومن وراء ذلك الثعالب وبنات آوى تتمسكن لتتمكن، وتتربص لتنقض!

والتاريخ شاهد يثبت للقومية المصرية موقفا من أروع مواقفها ، ومظهرا من اجل مظاهرها ، ويضيف بذلك الى صفحات الحرية فى سجل الامم صفحة جديده لن تبلى الايام جدتها ، أو تبخس اغراض المبطلين قيمتها.

همس كلفن فى أذن الخديو : « هذه هى ساعتك » فأجاب الخديو :« نحن بين أربع نيران » فقال كلفن : «كن شجاعا ، فتهامس الخديو واحد الضباط الوطنيين ثم التفت الى كلفن قائلا : « ماذا عسى أن أفعل ؟ نحن بين أربع نيران ... انهم يقتلوننا » (١) .

ويحسن أن نورد ما حدث بعد ذلك على لسان عرابى وهو لايخرج عن روايات هذا الحادث على كثرتها قال : « ثم صاح بمن خلفى من الضباط أن اغمدوا سيوفكم وعودوا الى مكانكم . فلم يفعلوا وظلوا وقوفا خلفى ودم الوطنية يغلى فى مراجل قلوبهم والغضب ملء جوارحهم ولما وقفت بين يديه مشيرا بالسلام خاطبنى بقوله : «ما أسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟ » فأجبته بقولى : « جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والامة كلها طلبات عادلة .. فقال : « وما هى هذه الطلبات ؟ » . فقلت : «هى اسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الاوربى وابلاغ الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها » فقال : «كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى،

---

(1) Modern Egypt-Cromer.

وما انتم الا عبيد احساناتنا » . فقلت : « لقد خلقنا الله احرارا ، ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو اننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم » (١).

تلفت الخديو بعد ذلك الى كلفن قائلا : « أسمعت ما يقول ؟ » فاشار عليه هذا بالعودة الى القصر اذ لايجمل أن يزيد الامر بينه وبين عرابى عن هذا الحد ، فانصرف الخديو وبقى الجيش فى مكانه لا يتزحزح .

واقبل كوكسن قنصل انجلترا فى الاسكندرية ، وكان ينوب عن القنصل العام السير ادوارد مالت لغيابه ، أقبل هذا ومعه ترجمان يناقش عرابيا فى غلظة مقصودة ، وكان هذا الانجليزى كرجال الاستعمار جميعا من بنى جلدته ممن يحسنون دس أنوفهم فى كل شىء ، ومما وجهه الى عرابى قوله : ان لاحق له فى أن يطالب بالمجلس النيابى واسقاط الوزارة فذلك من شأن الامة ، أما عن زيادة الجيش فمالية البلاد لا تساعد على ذلك ...

وأجاب عرابى بقوله : ان الامة انابت الجيش عنها ، ثم وجه نظر محدثه الى الجموع المتراصة خلف الجند قائلا : هذه هى الامة وما الجيش الا جزء منها ، ويحسن أن نورد عبارته بنصها . قال : « اعلم ياحضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالاهالى لم أعمد اليها الا لانهم أقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن اخوانهم وأولادهم ، فهم القوة التى تنفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة ، وانظر الى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر ، فهم الاهالى الذين انابونا عنهم فى طلب حقوقهم ، واعلم علم اليقين اننا لا نتنازل

(١) فى رواية عرابى لمستر بلنت ان الخديو قال ايضا « انا خديو البلد واعمل زى ما انا عاوز » وقد أورد بلنت هذه العبارة كما هى بحروف افرنجية .

عن طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ » .

قال القنصل : « علمت من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها » ....

قال عرابى : « كيف يكون ذلك؟ ومن ذا الذى يعارضنا فى أحوال داخليتنا ؟ فاعلم اننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة الى أن نفنى عن آخرنا » ...

قال القنصل : « وأين هى قوتكم التى ستدافع بها ؟ »

قال عرابى : « عند الاقتضاء يمكن أن نحشد مليونا من العساكر يدافعون عن بلادهم ويسمعون قولى ويلبون اشارتى » .

وسأل كوكسن عرابيا بعد هذا سؤالا يتجلى فيه خبثه وقد ظن أنه أحكم الرمية فقال : « وماذا تفعل اذا لم تجب الى ما تطلب ؟ » .

فانظر الى رد هذا الجندى فى هذا الموقف الذى تخف فى مثله أحلام الرجال ، والذى تزدهى القوة فيه القلوب فتسلب ذوى العقول اتزان عقولهم ، انظر الى عرابى فى موقف الثورة يقول له : « أقول كلمة أخرى » فقال القنصل : « وما هى ؟ » قال عرابى « لا أقولها الا عند اليأس والقنوط ! ؟ » .

وأخذ كوكسن يروح ويغدو بين عرابى والخديو ، حتى جاءه آخر الامر ينبئه بقبول الخديو اسقاط الوزارة القائمة وأن سموه سينظر فى بقية المطالب فلا بد فى بعضها من مشاورة السلطان . وعرض الخديو على الجيش اسم حيدر باشا لرئاسة الوزارة القادمة ولكنهم رفضوه ، وجرى على الالسن اسم شريف بطل الدستور ونصيره ، فعاد كوكسن بعد حين يعلن الى عرابى قبول الخديو تعيين شريف فقوبل ذلك بالهتاف بحياة الخديو

والتمس عرابى ونفر من زملائه الاذن على الخديو ، فلما مثلوا بين يديه أخذ عرابى يعبر له عن ولائه وولاء الجيش. وذكر له الخديو : « أنه وافق على تلك الطلبات بنية صافية » ، ثم انصرف الجيش بعد ذلك فى هدوء كل فرقة الى مقرها ...

***

هذا هو يوم عابدين الذى عده خصوم عرابى من أكبر سيئاته والذى نعده فى غير مغالاة أكبر حسناته ، وكيف يستطيع هؤلاء مهما بلغ من اضطغانهم على عرابى ورغبتهم فى الاساءة اليه أن ينكروا ما ينطوى عليه هذا الموقف من معان ؟ ! الا انهم ليتغافلون ليطعنوا الرجل فى أجمل مواقفه وأعظم خطواته ، وهم انما ينالون بذلك من انفسهم دون أن ينالوا منه شيئا ...

طالب عرابى بالدستور فكان فى طلبه هذا زعيم ثورة تقوم على أجل المبادىء التى شاعت فى أوربا فى القرن التاسع عشر والتى عدها المؤرخون والناس من أعظم خطوات البشرية صوب الرقى والكمال ، فكيف يكون مع ذلك داعية فوضى واضطراب ؟ ولقد كثرت فى أوربا المواقف التى يشبهها فى معناها ومرماها هذا الموقف فسجلتها الشعوب فى ثبت مفاخرها وعدتها من أيامها المشهودة التى تمجد كل عام ذكراها .

وتم لعرابى وانصاره ما أرادوا ، فى غير عنف يشوه حركتهم أو ينقص من جلالها كما يحدث فى أشباهها من الحركات ...

لقد كان القصر أمام الجيش خلوا من أية قوة ، فروعيت حرمته أحسن مراعاة وروعى كذلك مقام الخديو ، فلم يخرج أمامه هذا الجندى الثائر عن طوره ، بل لقد تمالك نفسه فترجل وأدى التحية العسكرية واغمد

سيفه ، ثم ذهب بعد ذلك فأعرب له عن ولائه وشكره باسم الامة اذ أجابها الى ما طلبت على لسانه ...

الا انا لنعجب بذلك ونفخر به اذ نكتبه ، وما نجد من الادلة التى نسوقها على رجولة عرابى وشهامته وبعده عما يرميه به خصومه أقوى أو أجمل من هـذا الذى نشير اليه ...

***

فاذا أضفت الى ذلك ماكان يدبر فى خبث من الدسائس فى ذلك الموقف الرهيب ، وذكرت كيف أحبطها عرابى بمزيج من الصبر والبسالة يدعو الى الاعجاب حقـا ، ازددت لاريب اكبارا لموقفه فى ذلك اليوم ، ولقد كانت اية كلمة نابية أو اية اشارة يساء فهمها كفيلة بأن تسيل الدماء فى تلك الساحة ، قال عرابى : « لو حاول الخديو قتلى لاطلقت النار عليه » (١) .

وينبغى الا ننسى ما اتخذه عرابى من الحيطة قبـل ذهابه ، وذلك باتصاله بالقناصل وبالخديو ، فقد كان بذلك حكيما موفقا ، لايدع مسلكه محلا لغميزة أو يهيىء سببا للملامة ...

نجحت حركة عرابى أتم نجاح وأجمله وتهيأت البلاد لان تستقبل عهدا يسود فيه الاصلاح والنظام فلقد كان قبول الخديو مطالب عرابى التى أشرنا اليها ينطوى على معنى عظيم ، الا وهو موافقة حاكم البلاد على التخلص من الحكم الاستـبدادى الرجعى ، والعودة الى حكم الحرية الدستورية الذى سبق أن وافق عليه يوم تبوأ عرشه ثم عاد فتنكر له حين اطمأن فى مصر الى كرسيه.

وراحت مصر تستقبل فى تاريخها حقبـة من أسعد الحقب فلقد نالت أمانيها دون أن تراق نقطـة دم ، وخرجت سالمة آمنة من ثورة جديرة بأن توضع الى جانب

(١) تاريخ عرابى الذى كتبه بقلمه لمستر بلنت سنة ١٩٠٣ .

أهم الثورات التى قصد بها الحرية فى تاريخ الانسانية ، ثورة جديرة بأن توضع الى جانب ثورة سنة ١٦٨٨ فى انجلترا والى جانب الثورة الامريكية والثورة الفرنسية الـكبرى ...

***

ولولا ما كتبه عنها المغرضون المبطلون من الاجانب ، وما ضربه الاحتـــلال على الآذان والقلوب فحال بين المصريين وبين تاريخ قوميتهم الحقيقى لكان لتاريخ هذه الثورة شأن غير هذا الشأن فى هذا البلد المسكين ...

وصف بلنت تلك الايام السعيدة بقوله (١) : « أن ثلاثة الشهور التى أعقبت هذا الحادث لهى من الوجهة السياسية أسعد الايام التى شهدتها مصر ، ولقد ساعدنى الحظ بمشاهدة ماجرى فيها بعينى رأسى ؛ فلم أتلق معلوماتى عنها بطريق السماع ولو كان ذلك لشككت فى حقيقتها . انى لم أر فى حياتى ما يشبه هذه الحوادث واخشى الا أرى مثلها فى المســـتقبل . أن كل الاحزاب الوطنية وكل أهالى القاهرة قد اتفقت كلمتهم هنيهة من الزمن على تحقيق هذه الغاية الوطنية الكبرى ، لا فرق فى ذلك كما يظهر بين الخديو والامة ، وسرت فى مصر رنة فرح لم يسمع بمثلها على ضفاف النيل منذ قرون ، فكان الناس فى شوارع القاهرة حتى الغرباء منهم يستوقف بعضهم البعض يتعانقون وهم جذلون مستبشرون بعهد الحرية العظيم الذى طلع عليهم على حين غفـــلة طلوع الفجر اثر ليلة مخيفة حالـكة الظلام » ...

ولم يقتصر أمر هذه الفرحة الوطنية على القاهرة ، وانما حملتها الصحف الى المستنيرين فى الاقاليم تبشر الناس بعهد جديد يشرق على البلاد فجره ، تجد ذلك فى

---

(١) العبارة من ترجمة الاستاذين العبادى وبدران .

قول بلنت : « وقد أذاعت الصحف هذه الانباء فى سرعة وقد تحررت من كثير من قيودها تحت رقابة الشـيخ محمد عبده المستنيرة تحررا لم تصل الى مثله من قبل، واستطاع الناس آخر الامر أن يلتقوا ويتحـادثوا غير خائفين فى كل جهة من جهات الاقاليم لايخشـون من الجواسيس ولا من تدخل الشرطة ، وسرت هذه الروح السعيدة الى كل الطبقـات من المسـلمين والمسيحيين واليهود وشملت رجالا من كل دين ومن كل جنس ومن هؤلاء عدد غير قليل من الاوربيين الذين اشتدت صلتهم بالحياة المصرية ، حتى القناصل أنفسهم لم يسعهم الا أن يعترفوا أن العهد الجديد كان خيرا من القديم وأن رياضا ارتكب أخطاء وان عرابيا ان لم يكن مصيبـا فى كل شىء فهو على الاقل لم يكن مخطئا فى كل شىء » .

رجل أمة

اغتــدى اسم عرابى على كل لسان فى مصر ، فعلى يديه تم الانقلاب المنشود ، واليه نسب كل فضــل ، وأصبح الناس فى القاهرة وفى القرى يتحدثون فى اعجاب عظيم عن الفلاح ابن الفلاح الذى أسمع الخديو كلمة مصر فى اباء وعزة وأجبره على أن يجيب الامة الى ماطلبت..

ومن السهل على المرء أن يتصور وقع هذه الانباء فى الناس فى عصر كذلك العصر فقد تناقل الناس كلمــات عرابى للخديو وهم لايكادون يصدقونها ، ومن السهل كذلك أن يدرك المرء كيف اغتدى بحق عرابى فى مصر رجل أمة ، فقد اجتمع فيه رجالها ، وأضحت تتفاخر به لانه من صميم فلاحيها ، ولانها باتت تحتمى به وتحس احساساً واضحا أن الرجل الذى كانت تتطلع الى ظهوره كما تتطلع كل أمة فى مثل موقفها ، قد تهيأ لها فى شخصه آخر الامر ...

ولقد نبه اسم عرابى وحقت له الزعامة عقب حادث قصر النيل ، فلما كان يوم عابدين ، وثق النـــاس من بطولته وركنوا الى زعامته ، واســتمدوا حميتهم من حميته وباتوا يربطون مصيرهم بما يفعل أو يقول ...

عارض شريف أول الامر فى قبــول الوزارة ، وكانت حجته فى ذلك أنه بقبوله الحكم من غير قيد ولا شرط

انما يضع نفسه تحت سلطة الحزب العسكرى ، الامر الذى لا يطيق أن يحمل نفسه على قبوله ، ولذلك دارت بينه وبين عرابى وزملائه مفاوضات استمرت بضعة أيام تحرجت الامور فيها حتى أوشك شريف أن يتنحى عن قبول الوزارة ...

ولكن بوارق الامل ما لبثت ان لاحت ، وكان جميلا أن تلوح من جانب ذلك الرجل الذى لايزال نفر من المصريين حتى وقتنا هذا يرمونه بالفوضى ويردون أسباب ما لحق مصر من ويلات اليه ، فيقيمون الدليل بذلك على أنفسهم أنهم اما ذوو أغراض أو أولو جهل بحقائق الامور معيب ...

كان جميلا أن يبرق الامل من جانب عرابى فيخفض جناحه لشريف ويذعن لما اشترط من شروط فى صدق اخلاص وعن طيب خاطر ...

دعا عرابى رجال الحزب الوطنى وأعضاء مجلس شورى النواب المعطل ، وعرض عليهم الامر ، وكان على رأسهم سلطان باشا ، وذهب وفد من هؤلاء الى شريف يرجون منه قبول الحكم ، فعرفوا أنه يشترط ألا يتدخل الجند فى شىء ، وأن يرحل عرابى وعبد العال بفرقتيهما الى مكانين يختاران لهما ، وأن يترك حرا فى اختيار وزرائه لان عرابيا كان يطلب اليه اعادة البارودى وادخال مصطفى فهمى باشا فى الوزارة ، وكان شريف يرفض ذلك لانهما لم يثبتا على عهدهما فدخلا وزارة رياض عقب اقالة وزارته ...

وتعهد سلطان ووفده أنهم يضمنون لشريف خضوع عرابى والحزب العسكرى وكان بين الوفد نفر من ذوى المنزلة فى البلاد كأباظة والشريعى والمنشاوى والمويلحى والشمسى والوكيل ، وهم أهل نفوذ وجاه يعرف شريف

قيمة انضمامهم اليه ...

نسمع عرابى ما عرضه سلطان ومن معه فذهب بنفسه الى شريف يستحثه على سرعة تأليف الوزارة ويظهر له ما يخشاه من الابطاء ، قال عرابى : «وفى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ قابلته مرة أخرى وقلت انه لايمكن ترك البلاد بلا وزارة فأصر على الرفض فقلت له : أن لم تؤلف الوزارة اليوم فسنطلب غيرك ولا تظن أن ليس بالبلاد سواك ففيها بعون الله العلماء والحكماء ولم يكن اختيارك لعدم وجود غيرك لهذا المركز ... فاغرورقت عيناه بالدموع ولم يحر جوابا ، ثم خرجنا من عنده وبعد قليل جاءنا الشيخ بدراوى عاشور وكيل زراعته وقال ان الباشا قبل ما عرضته عليه » .

وألف شريف وزارته الثالثة ، وكانت هذه أولى ثمار الثورة ، وقد قبل الوزيرين اللذين أشار بهما عرابى ، كما قبل رجاء الحزب العسكرى وهو النظر فى القوانين الخاصة بالجيش وذلك فى مقابل أن يخضعوا لحكمه ويبتعدوا عن كل تدخل فى شئونه .

ودعا وزير الحربية عرابيا ، فأفهمه رغبة الحكومة فى أن يسافر بفرقته الى رأس الوادى ، وأن يسافر عبد العال الى دمياط ، فقبل عرابى ذلك ، ولكنه اشترط أن يصدر أمر الخديو بالانتخاب لمجلس شورى النواب قبل السفر ، ولاريب أن هذا الشرط من جانب عرابى خروج منه على ما أخذه على نفسه من عدم التدخل فى شئون الحكومة ، وهو أمر لايسعنا الا أن نحسبه عليه ، بل نلومه عليه مهما كان ما ينطوى عليه طلبه من خير للبلاد ، ومهما كان فى هذا الطلب من معانى حرصه على الدستور والحياة النيابية ، وبخاصة لان على رأس الحكومة رجلا مثل شريف ...

أما عن امتثـــاله لامر الحكومة بقبول السفر ، فهو فى ذاته على الرغم مما أحيط به من اشتراطيعد من محامد عرابى ، اذ يدل على مرونة وكياسة ورغبة فى التفـــاهم شتان بينها وبين ما يعزوه اليه خصومه وجاهلو أمره من حماقةونزق وعنف فى كل ما يطوف بهم من سيرته ، كما انه يقدم بطاعته دليلا على نبل غرضه وحسن طويته فيما سعى اليه ...

وخرج عرابى فى اليوم الثامن من شهر أكتوبر بقصـــد السفر بفرقته الى رأس الوادى ، وذلك بعد مرور أربعة أيام على موافقة الخديو على دعوة مجلس شورى النواب وكان قد سبقه عبد العال فى السفر الى دمياط ...

سار عرابى بطريق الحسينية حتى بلغ مسجد الحسين رضوان الله عليه « فوقف الآلاى مقابلا للمسجد تعظيما واجلالا لسبط الرسول عليه الصلاة والسلام » ، ودخل عرابى المقـــام الحسينى مع الضبـــاط ، « وأمر بيرق الآلاى على الضريح الشريف » ...

وسار بعد ذلك الى المحطة فما كاد يتوسط المدينة حتى ألفى الشوارع مكتظة بالناس ، وانهم ليهتفون باسمه فى حماسة ويحيونه تحية الزعيم المنقذ ، ويلقون فى طريقه الزهر والرياحين .

وفى المحطة وجد عرابى جميع ضباط الجيش المصرى وجمهورا عظيما من الاعيان وذوى المكانة وعددا هائلا من عامة الناس فاحتفوا بمقدمه ، وكانت توزع الحلوى وتنثر الزهور فى فناء المحطة ، وكان يتسابق الخطباء والشعراء فى تمجيد ذلك الذى جرى اسمه على كل لسان فى مصر ، ووقف عرابى فى هذا الجمع خطيبا فقال : « ســـادتى واخوانى : بكم ولكم قمنا وطلبنا حرية البلاد وقطعنا غرس الاستبداد ولا نثنى عن عزمنا حتى تحيا البلاد وأهلها ،

وما قصدنا بشعبنا افسادا ولا تدميرا ولكن لما رأينا أننا بتنا فى اذلال واستعباد ولايتمتع فى بلادنا الا الغرباء حركتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية الى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الامة ، وقد ساعدتنا العناية الالهيـــة ومنحنا مولانا وأميرنا الخديو ماطلبناه من سقوط وزارة المستبد علينا السائر بنا فى غير طريق الوطنية ، وتمتعنا بمجلس الشورى لتنظر الامة فى شئونها وتعرف حقوقها كباقى الامم المتمدنة فى العالم ، ومن قرأ التاريخ يعلم أن الدول الاوربية ما نالت الحرية الا بالثورة واراقة الدماء وهتك الاعراض وتدمير البلاد ، ونحن اكتسبناها فى ساعة واحدة من غير أن نريق قطرة دم أو نخيف قلبا ، أونضيع حقا أو نخدش شرفا ، وما وصلنـا الى هـذه الدرجة القصوى الا بالاتحاد والتضافر على حفظ شرف البلاد» . وهتف عرابى بحياة الخديو واهب الحرية وحياة الجيش، وحياة الحرية ، ثم امتدح الوزارة ورئيسهـا ووصف البارودي بقوله : « رئيسنا الوطنى الحر القائم بخدمة الوطن وأهله » . وحذر اخوانه فى الجهادية من الوشـاة والحساد ، وحثهم على الاتحاد قائلا : « البلاد محتاجة الينا وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات والا ضاعت مبادئنا ووقعنا فى شرك الاستبداد بعد التخلص منه » .

ولنا الى هذه الفقرة من خطبته عودة كما أن لنا عودة الى فقرة غيرها نكتفى الآن بالاشارة اليها وهى قوله : « وقد فتحنا باب الحرية فى الشرق ليقتدى بنا من يطلبها من اخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة ويجانب حدوث ما يكدر الراحة »

واختتم خطابه بعبارات ذات مغزى مثل قوله : « أن الطمأنينة عادت كما كانت وعدنا الى ما نشأنا عليه مر

طاعة مولانا الخديو وخضوعنا له ولوزرائه الفخام ، فلا تأخذكم الأراجيف واشاعات أعداء الوطن وثقوا بسعي أميرنا ورجاله » ومثل قوله : « ان قيامنا كان لطلب الحقوق لا للعقوق » وقوله : « وبيننـا من الاعداء من يسعى فى تفريق كلمتنا واضرام نار الفتنة بيننا » .

***

واستقبل عرابى بحفاوة كبيرة فى المحطات التى وقف بها القطار وكان يخطب الناس مرافقه فى الرحلة السيد عبد الله نديم كما حدث فى الزقازيق حيث كان على راس مستقبليه فيها أمين بك الشمسي ووقف عرابي يخطب الناس هناك فكان مما قاله : « أنا أخوكم فى الوطنية واسمى أحمد عرابى ، ولدت فى بلدة هرية رزنة من بلاد الشرقية هذه فمن عرفنى منكم فقد عرفنى ومن لم يعرفنى عرفته بنفسى ، وها أنذا واقف بين الاهل والخلان ، وقد بلغكم ما طلبناه من قطع عرق الاستبداد وتحرير البلاد وأهلها ، وبعناية الله سبحانه منحنا مولانا الخديو هذه الامنية فنحن لم نخرج من العاصمة عصيانا ولا تظاهرا بعدوان ، وانما سرت بالجيش ووقفت بين يدى الخديو وقفـة الطالب الراجى كرم مولاه ، فلا تعولوا على الاراجيف واشاعات أهل الفساد ، واعلموا أن البـلاد محتاجة الى الخدمة بالقوة والفكر والعمل ، فأما القوة فنحن رجالها ، ولانثنى عن عزمنا وفى الجسم نفس ، وأما الفكر فهو منوط بأميرنا العظيم ووزرائه الكرام ، وأما العمل فهو منوط بكم فان القوة والفكر يعطلان بفقد ثروة تربتنا الطيبة المباركة ، وقد طلبنا لكم مجلس الشورى لتكون الامور منوطة بأهلها ، والحقوق محفوظة لذويها » .

وقال عرابى فى خطبة أخرى بالزقازيق ألقاها فى وليمة أعدها له أمين بك الشمسي رئيس تجار الزقازيق : « سادتى واخوانى الاعزاء ، أحلى أسماعكم باسم مولانا

وأميرنا الخديو الســـاعى فى عمـــار الوطن وقطع عروق الاستبداد منه ، وأذكركم بمدة حجبت عنا فيهـا أنوار الحرية واستعبدتنا فيها الظلمة حتى صرنا نتألم ولا يرحمنا أحد ، وأصبحت أموالنا وأرزاقنا معرضة للنهب والسلب تتخطفها أيدى المستبدين قد تمكنت القسوة من قلوبهم ، وألفوا الظلم وكرهوا العدل والانصاف حتى كانت عاقبة أمرهم أن أصبح الناس قيد الفقر وذل الفاقة ، والقطر معرضا للأخطار مهيأ لامتداد أيدى الطامعين اليه فعز على اخوانكم وأولادكم الجهادية حماة البلاد ، وتحركت فينا الحمية العربية الوطنية فتعاهدنا على حفظ البلاد ووقاية أميرنا من كل سوء ، وسرت بهذا الجيش ووقفت بساحة عابدين أمام مولانا الخديو ، حفظه الله ، وقد اشتدت شوكة جيش البغى وقويت معارضته .. وأنقذناكم من يد من لم يعرف لكم حرمة ولا يعترف بحق ، ولايرى أنكم مثله من نوع الانسان ، وشكرنا مولانا وأميرنا الخديو على حسن عنايته بنا وبالامة وعلى ما تفضل به من مجلس الشورى ، وأنتم الآن مهيئون للانتخاب فلا تميلكم الاهواء والاغراض لانتخاب ذوى الغايات ، بل عولوا على الاذكياء والنبهاء الذين يعرفون حقوقكم ويدفعون المظالم عنكم ويفتحون باب العدل والانصاف فى بلادنا » .

***

وفى الزقازيق دعى عرابى لوضـــع أســـاس المدرســـة الاميرية فذهب ووضع الحجر الاساسى باسم الخديو قال « وتلوت على الحاضرين خطبـــة ذكرت لهم فيها فوائد التعليم ومنافعه وفضل العالم على الجاهل والبصير على الاعمى ، وحرضتهم على الاهتمـــام بأمر تعليم أولادهم ليكونوا مستعدين لخدمة بلادهم فى المستقبل » .

وأولمت لعرابى عدة ولائم فى دور بعض وجهاء مديرية

الشرقية ، سافر بعدها الى رأس الوادى . وليس يخفى ما ينطوى عليه من معان تكريم هذا الفلاح الذى نشأ فى بيت متواضع ، على أيدى هؤلاء السادة والكبراء ففى ذلك أول مظاهر الديموقراطية الوليدة فى هذا الوادى الذى خضع قبل ذلك زمنا طويلا لمظاهر السيادة والارستوقراطية .

توفيق والثورة

لندع عرابيا فى رأس الوادى ولننظر ماذا كان من أمر شريف ووزارة شريف . وهنا نبادر الى القول بأن هذه المرحلة من تاريخ مصر الحديث كانت أهم المراحل جميعا منذ الحملة الفرنسية ، وأدقها وابعدها أثرا فيما هى مقبلة عليه بعد من مراحل ...

ظن الناس أن قد انجلت الفاشية على نحو ما صور بلنت ولكنهم لم يكونوا يعلمون، أو لم يكن يعلم الا القليلون منهم أن وراء هذا الصفو كدرا ، وأن سماء السياسة كانت يومئذ كسماء الطبيعة تصفو هنيهة لتتلبد بعدها بالسحب المركومة ، ولتتلاقى فى جوانبها أبابيل سود من الغربان الناعبة فتكون حلكتها بعد الصفو أقبح ما تكون منظرا ، واشد ما تكون ايلاما للنفوس وازعاجا للخواطر

وكيف كان يرجى دوام الصفاء وقد كانت الشباك منصوبة ، وقد أخذ الصائدون يدفعون الفريسة اليها دفعا بعد أن أعياهم الامر فلم يستطيعوا أن يأخذوها بالحيلة ، أو أن يعصبوا عينيها كما كانوا من قبل يفعلون

كيف كان يرجى الصفاء ، وقد كان الخديو يضمر عكس ما يظهر كأن لم يكفه ما أصاب البلاد من جراء سياسته وتنكره للحركة الوطنية وايجاده بما فعل الثغرة التى كانت تنفذ منها الثعالب وبنات آوى الى صميم حركتها وقلب نهضتها ...

وما أشبه توفيقا فى ذلك الموقف بل فى أكثر مواقفه كما أسلفنا بملك فرنسا لويس السادس عشر ، ذلك الملك الذى كان يدفع الثورة فى بلاده دفعا ، والذى يعزى الى سياسته الملتوية المذبذبة أن تنكبت تلك الثـــورة منهاجها السلمى العاقل واندفعت فى سبيل جرت فيها الدماء وتجمعت على جانبيها الاشلاء

ظهر ذلك الملك للنواب أول الامر فى جلد الاسد ، ثم ما لبث أن استخزى بعد وثبة ميرابو ، ولكن الشائعات طافت بأهل باريس أن الملك أخذ يستعد ويجمع حوله الجند ، فما لبث أن جرت الدماء فى باريس ودك الناس الباستيل رمز العبودية والجبروت ، ثم رأى أهل باريس بين الدهشة من الملك والزراية عليه والتهزؤ به أنه يركب فى جماعة من النواب كان فى مقــدمتهم ميرابو فيزور باريس ويطوف بأنحائها ، ويمر بخرائب الباستيل مظهرا عطفه على الثورة والثوار ، ولكنه يعود بعد ذلك فيأتى من معانى التحدى والنزق ما يجعل الشـــعب يذهب فيقتحم عليه غرف قصره فى فرساى ويعود به الى باريس ليكون رهينة فيها ، ويتم الدستور فيرفع اليه فيوافق عليه . ولكن ريثما يعد العدة للهرب ، ثم يضبط المسكين وقد أوشك أن يجتاز الحدود فيقضى عليه هذا العمل ، وتمضى الثورة فى طريقها مجنونة لا تلوى على شىء حتى تأكل آخر الامر نفسها .

ولقد كان توفيق يسلك تجاه الثورة العرابية مسلك لويس تجاه الثورة الفرنسية مع فارق واحد وهو أن الخديو ، كان من ورائه الانجليز فلما لجأ اليهم توفيق كما هرب لويس لم يقض هذا العمل عليه وانما قضى على مصر ...

تخلص توفيق من رياض وقد كان يسعى الى التخلص

منه . فكيف كان يريد أن يسلك مع شريف مسلكه مع رياض ولقـــد كان الفرق بين الرجلين هو الفرق بين الديمقراطية والاستبداد ؟

عادت الظروف من جديد تبين للخديو بأجلى وضوح أن الطريق الوحيـــد هو الانضمام الى الحركه الوطنيه ومشايعتها فى صدق واخلاص ، ففى ذلك منجاته من تطرف هذه الحركة وجموحها ، وفى ذلك منجاة البلاد من تدخل الاجانب باسم المحافظة على عرش الخديو ، ثم من احتلال البلاد باسم القضاء على الفتن والقلاقل..

ولـكن الخديو تنكب هذا الطريق فدفع تيار الثورة بمسلكه هذا ليعجج عجاجه ، وليس فى نفسه الآن الا أن يتخلص من هذه الحركة الوطنية التى وضعت السلطة موضعها الطبيعى فى يد الامة ...

ومن أعجب الامور ، بل من أقبح المظالم أنه لما انتهت الثورة الى ما انتهت اليه فيما بعـد من عنف وجموح حمل زعماؤها كل أوزارها وخرج عرابى المسكين بالنصيب الاوفى من هذه الاوزار ، وهى لو عرضت على حقيقتها وردت فيها الامور الى أصولها لرد ما يعزى الى عرابى أو أكثره الى الخديو دون أن يكون فى ذلك أقل تجن على هذا ولا أدنى تحيز لذاك ...

لقد القى الخديو بنفسه فى أحضـــان الانجليز منـذ استعان بكلفن يوم عابدين ومنذ أن جعل كوكسن رسوله الى عرابى وهو على رأس جنده أمام القصر ، فلقد ظهر هذان بمظهر من يعطف على توفيق ومن يستنكر على عرابى ما فعل ، وقر فى نفس توفيق أنهما ولياه وأن بنى مصر أعداؤه ...

منذ ذلك الحين صار الانجليز فى ظاهر الامر أسنـــاد الخديو وفى حقيقته ثعالب تحتال على اصطياد الفريسة

وسيظل هذا شأن توفيق حتى يدخل عاصمة مصر بعد هزيمة الجيش المصرى ، فى حراسة الانجليز وحمايتهم ، فيصطف عساكرهم من المحطة الى قصره وتحيط بعربته كتيبة منهم وتستقبله على أبواب القصر كتيبة بالنشيد الملكى البريطانى .. بل اننا نستطيع أن نقول ان ركون توفيق الى الانجليز يرجع الى يوم خلع أبيه ، فقد رأى اباه يخلع بنفوذ هؤلاء الانجليز لدى السلطان ، فآثر أن يركن الى الاقوياء علهم يرضون عنه ! ونكرر القول ان منجاته ومنجاة مصر كانت فى ركونه الى الحركة الوطنية ولكن كيف كان يركن الى من ينتزعون منه السلطة ليردوها الى الامة صاحبتها الحقيقية ولايركن الى من يتظاهرون لديه أنهم يظاهرونه ليزيدوا سلطانه ويقضوا على مناوئيه !

سار شريف على نهج حكيم فأرضى الاجانب أو عمل على ارضائهم بقبوله المراقبة الثنائية ، وأرضى الوطنيين بتحقيق الآمال الوطنية ، ولكنه ما لبث أن رأى هؤلاء الاجانب لا يدعون وسيلة لضم الخديو اليهم الا اتبعوها ، حتى لقد ترك شريف بعد أمد قصير يعمل وحده ، وكأنما وضع الخديو نفسه بنفسه فى عزلة ...

ولو أنها كانت عزلة عن الوطنيين دون اتصال الاجانب وبخاصة الانجليز لهان أمرها ، ولكن توفيقا سوف يخلق أول الامر بعزلته ريبة ومخاوف فى قلوب المصريين ، ثم تنقلب الحال الى كراهة وتؤدى الكراهة الى المقاومة من جديد ، ولقد كان أمام توفيق فى الواقع هيئتان : الوطنيون بزعامة شريف ، والعسكريون بزعامة عرابى ، وكان يستطيع بشىء من حسن السياسة الا يدع مجالا لتدخل العسكريين من جديد ، ولقد رأى بنفسه ما كان من أمر هذا التدخل بالامس القريب ...

افتتح مجلس شورى النواب فى اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ ، وقد جاء فى خطاب توفيق فى حفلة الافتتاح ما يأتى : « أبدى لحضرات النواب مسروريتى من اجتماعهم لاجل أن ينوبوا عن الاهالى فى الامور العائدة عليهم بالنفع ، وفى علم الجميع انى من وقتما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تأخر للآن بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحكومة ، فأما الآن فنحمد الله تعالى على ما يسر لنا من دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الاهالى على قدر الامكان ، فلم يبق مانع من المبادرة الى ما انا متشوق لحصوله ، وهو مجلس النواب الذى أنا فاتحه فى هذا اليوم باجتماعكم » .

***

هذا هو كلام الخديو فهل كانت هذه نياته ؟ تلك هى المسألة ... ونرى أن خير ما نجيب به هو أن ننظر فى الحوادث التى تلت ذلك ومنها يستبين الى أى حد كان الخديو ينوى أن يعمل كما يقول .

دأب الذين كانوا يعملون من وراء ستار ، أو دأبت الثعالب وبنات آوى على تخويف الخديو من ناحيتين : ناحية الحركة الوطنية ، وناحية تركيا ، موحين اليه فى الاولى أن حكم الدستور معناه ضياع سلطة الخديو ، وفى الثانية أن تركيا لا ترتاح الى توفيق وأنها تبيت له ما لايحب ، وغرض هؤلاء الذين يعملون فى الظلام واضح ، وهو أن يركن الخديو اليهم ليخلص من هذا كله .

اما عن حكم الدستور فكان ذلك يقتضى حقا أن يتنازل الخديو عن جانب كبير من السلطان المطلق الى نواب الامة ، وتلك هى المشكلة ، وماكانت مشكلة مصر وحدها ،

بل لقد كان لها مثيلات فى جميع ما شـــهد العالم من حركات دستورية ، فما نجم الخلاف بين الملكية والشعب فى فرنسا ابان ثورتها الكبرى الا من هذه الناحية ، وما استمرت القلاقل قرونا بين الملكية والشعب فى انجلترا الا بسبب ذلك ، وما استقرت الامور فى الدولتين الا حينما أثبت الشعبان قوتهما .

واذن فكان لابد أن يتفاقم الخلاف بين الشعب والخديو فى مصر حتى يثبت الشعب قوته أو يتنازل الخديو عن مبدأ الحكم المطلق ، ومن هذا الخلاف أتيحت الفرصة للثعالب ...

***

واما عن تركيا فقد كان توفيق يستريب ويخاف من سياستها ... فكر السلطان أولا ان يرسل جيش احتلال الى مصر ليعيد فيها نفوذ الخلافة سيرته الاولى قبل عهد محمد على ، ولكن انجلترا وفرنسا ما زالتـــا به حتى استطاعتا بالسياسة حينا وبالتهديد بعد ذلك حينا حتى اقلع عن هذه الفكرة ، ولقد افادتا من ذلك فائدتين : بقاء الوضع فى مصر على ما هو عليه بحيث يسمح لهما بالتدخل فى شئونها ، والتـــأثير على الخديو، أنهما هما الملاذ والسند ...

ولقد كان الامير عبد الحليم بن محمدعلى فى الآستانة يدس الدسائس ويسعى سعيا متصلا لخلع توفيق وتولى حكم مصر بدلا منه ، وكانت سيرة ذلك النشاط نزعج توفيقا وتقلق مضجعه ...

وأخيرا أوفد السلطان وفدا الى مصر برئاســـة على نظامى باشا وقد فعل الســـلطان ذلك دون علم الدول الاوربية ولم تعلم بذلك الحكومة المصرية الا عند قيام الوفد ...

وكان عرابى قد كتب الى السلطان قبل يوم عابدين ، ولعل السلطان أوجس خيفة من الحركة القائمة فى مصر وظن أنها حركة تنطوى فيمـا تنطوى عليه على فكرة انفصالية ترمى الى خلع سيادة الاتراك ...

وكان عبد الحميد يومئذ يقاوم الحرية فى بلاده ويبطش بالداعين اليها ، ومكث الوفد أياما بمصر ، ثم رحل فقرر عند السلطان نيابة عن الخديو أن البلاد هادئة ليس فيها ما يخيف ، وجاء على لسان رئيس الوفـد أن رجال العسكرية والزعماء جميعا يؤكدون ولاءهم للسلطان ، وانه لذلك يثنى عليهم ولا يخالجه شك فى حركتهم ...

***

وقامت انجلترا وفرنسا بمظاهرة بحرية فى ميـاه الاسكندرية اذ أحضرت كل منهما بارجة الى الميناء ، فلما سألتهما الحكومة المصرية عن سبب ذلك أجابتا ان سفينتيهما تغادران الاسكندرية فى اليوم الذى يسـافر فيه الوفد العثمانى عائدا الى الاستانة ، وقد تم ذلك فعلا حينما غادر الوفد البلاد ، ومعنى ذلك ان الدولتين لن تسمحا للسلطان حتى بمجرد النظر فى أحوال مصر ، ومعنى ذلك أيضا أن يلقيا فى روع الخديو أن يلجأ اليهما اذا لزم الحال حتى ضد السلطان نفسه ...

ورب قائل يقول : ان فى مسلك تركيا ودسائس عبد الحليم ما يدع للخديو العذر فى الاعتماد على الدولتين ، ولكن هذا زعم باطل ، فرجال مصر جميعا وان لم يكونوا فى تلك الايام يفكرون فى الخروج على السلطان ، الا أنهم كانوا لايسمحون له أن يتعدى الفرمانات المقررة ، وهب أن للخديو العذر فى أن يخاف جانب السلطان فهل كانت الدولتان تحميانه الا لغرض ؟ وهل كان هذا الغرض الا رغبة كل منهما أن تحل محل السلطان ؟

ان الحوادث جميعا كانت تشير للخديو الى الطريق الوحيد الذى كان عليه أن يسلكه ، ولكنه اختار الانحياز الى انجلترا منذ حادث عابدين كما أسلفنا القول مع تظاهره بأنه يعطف على أمانى البلاد ، وفى ذلك الخطر كل الخطر وفيه مسئولية الخديو عن اتجاه الحوادث بعد ذلك الى تلك السبيل التى افضت بالبلاد الى كارثة الاحتلال ، ومع هذا فان بعض المصريين كانوا الى عهد قريب ولعل منهم من لايزال حتى اليوم يقرن الاحتلال باسم عرابى كلما ذكر هذا الاسم ، فاذا قلت لهم : ان عرابيا هو الذى جرد سيفه وقاد جيشا من المصريين ليصد الاحتلال ، وبذل من الجهود وحمل من الاعباء ما لا يبذل او يحمل مثله الا أولو العزم من الرجال ، وأنه لولا ما أحاط به من خيانة لم يحط مثلها بقائد قبله لكان النصر حليفه لا محالة ، حملوا كلامك هذا على المبالغة وصعب عليهم أن يصدقوه وقد أضلهم كتاب الاحتلال وصنائع الاحتلال ...

بين عرابي وبلنت

نعود الى عرابى ، فنقول ان الحكومة استدعته من مقره فى رأس الوادى وأسندت اليه منصب وكيل وزارة الحربية وصــدر الامر العالى بذلك فى اليوم الرابع من شهر يناير سنة ١٨٨٢ وهو يعزو ذلك الى ما بلغ الحكومة على ألسنة جواسيسها أنه يجول فى بلاد مديرية الشرقية فيتصل بالوجهاء وشـيوخ العرب محرضا داعيا الى مبادئه وأغراضه ...

ويذكر عرابى أنه فوتح فى أن ينعم عليه يومئذ برتبة اللواء فيصبح أحمد عرابى باشا ، ولكنه رفضها مخافة أن يتهم أنه يعمل لشخصه ، ولئن صح هـذا وهو ما لا نستبعده ، لكان لنا فيه حسنة نضيفها الى كبريات حسنات هذا الرجل ، فان التهافت على الرتب والالقاب لم يزل حتى اليوم فى بلادنا المسكينة داء عياء يتغلغل فى نفوس سادتنا وكبرائنا ...

ونقول لئن صح ذلك لان الخبر من جانب عرابى فهو فى مرتبة الدعوى ... ونقول انا لا نستبعده مستندين فى ذلك الى شاهد قوى فهذا الرجل كان بطل الانقلاب ، وعلى يده وصلت الى ما وصلت اليه ، ولكنه لم يصب مغنما ما ، ولو كانت فى نفسه أطماع وقتئذ لرأيناه يصل الى مرتبة الوزير ، فقــد كان فى موقف تحكم فيه فى

الخديو وفرض عليه الشخص الذى يؤلف الوزارة وهو موقف يوحى الى النفس بالغرور، فلو خالج نفس عرابى يومئذ طمع فى جاه أو منصب لما وقف دونه الى ما يبتغى حائل ...

وأقام عرابى بالقاهرة فى منصبه الجديد ، وكانت داره تمتلىء كل يوم بالناس من كل نمط : الوطنيين ، والاوربيين ، ورجال الصحافة من الاجانب والمصريين ، ورجال السياسة الذين كانوا يسألونه عن مرمى حركته ، وعما يطمح اليه ، ويستكتبونه البيانات عن آماله ، فازدادت شخصيته بذلك خطرا وذاع فى الاوربيين صيته ، وكانت زعامته تزداد رسوخا فى قلوب مواطنيه حتى لقبوا بيته باسم « بيت الامة » (١) وبات يقصده كل متظلم يطلب معونته حتى فى أتفه الامور ...

وكان ممن اتصلوا بعرابى يومئذ مستربلنت فتعارفا ، وجرى بينهما حديث أثبته كل منهما فى مذكراته وفيه أشار عرابى الى ارتياحه لتخلص مصر من مساوىء حكم اسماعيل ومن دسائس الشراكسة ، ولكنه أبدى مخاوفه من سياسة انجلترا وفرنسا نحو مصر ، وعبر فى كياسة عن أمله فى أن تعطف انجلترا على حركة الحرية فى مصر وهى الدولة التى تعلن دائما أنها نصيرة الحرية والديمقراطية وذكر عرابى أنه يتوقع العطف من انجلترا أكثر مما يتوقعه من فرنسا ولا سيما من جانب جلادستون الذى اشتهر بعطفه على الحرية فى كل مكان ...

وليت شعرى ماذا يطلب الذين يرمون عرابيا بالطمع والجهل والنزق أكثر من هذه البراهين التى نسوقها

---

(١) كان فى مكان عمارة تجاه وزارة الاوقاف ، وكان الفضاء حوله متسعا من كل ناحية بحيث يطل من الشرق على قصر عابدين ومن الغرب على قصر النيل

على انه كان بريئا من هذا كله ؟ ألم يأن لهؤلاء أن يقرءوا سيرة هذا الرجل فى غير تحامل عليه حتى يعرفوا لهذا المصرى المجاهد قدره وأثره فى نهضتهم القومية ؟ وهل يوجد فى المعايب القومية عيب أشد قبحا من جهل قوم برجالهم فى الوقت الذى يرون فيه غيرهم من الامم يمجدون ذكرى الرجال فيوحون الى الاجيال القادمة معانى البطولة بما يقدمون لهم من الامثلة ؟..

لقد أعجب بلنت بعرابى ووقعت عباراته من نفسه موقعا حسنا ، قال بلنت يصف كيف تعرف الى عرابى وكيف كان وقع لقائه فى نفسه « كان عرابى يومذاك فى قمة صيته ، يتحدث عنه الناس فى طول مصر وعرضها بقولهم « الوحيد » أعنى انه الرجل الوحيد ، وكان القوم من جميع أنحاء القاهرة يتزاحمون على داره حيث يدعون ظلاماتهم بين يديه ، وكانت حجرته الخارجية تمتلىء كل يوم بالمتوسلين وكذلك كان مدخل داره من الشارع ...

وكان قد سمع عنى أنى ممن يعطفون على قضية عنصر الفلاحين وانى من اصدقائهم ، ولقينى بكل ما فى وسعه من حفاوة ، وبخاصة ، كما قال لى : لما نمى الى علمه من صلة أسرتى ببيرون ذلك الذى كانت له فى نفسه مكانة عالية وان لم يعرف شيئا عن شعره ، لما كان من عمله من أجل حرية اليونان ... وهذا أمر جدير بالملاحظة لما فيه من دلالة خاصة على منحى عرابى بالنسبة للانسانية كلها بغير تفرقة من جنس أو عقيدة . فلم يكن فيه شيء من التعصب اذا كان التعصب معناه الكراهية الدينية ، وكان على اهبة ابدا لان يتعاون من أجل قضية الحرية مع اليهود والنصارى أو مع الكفرة على الرغم من تقواه التى لا التواء فيها بأية حال ...

ولقد كلمته طويلا وفى غير تحفظ ودار الحديث حول المسائل التى كانت تشغل الاذهان يومئـــذ ، ووجدته يصارحنى كما أصارحه ويتكلم فى يسر ، وقد عبر عن ولائه التام للخديو طالما انه يحافظ على وعوده ولا تظهر أية محاولة من جانبه ليسلب المصريين حريتهم الموعودة ، ولكن كان من الامور البينة انه كان لايثق فيه كل الثقة ، وعد من واجبه أن يراقبه فى حـــذر مخافة أن يتنكب الطريق ...

وفى كتاب أرسلته الى جلادستون بعد ذلك بقليل أى فى ٢٠ ديسمبر بعد أن تمت مقابلات ومناقشات أخرى بينى وبين عرابى ، قلت عن عرابى : ان الآراء التى يفصح عنها ليست تكرارا للعبارات المتداولة فى أوربا الحديثة ، ولكنها تقوم على أساس من معرفته بالتاريخ والتقاليـــد الحرة للفكر العربى تلك التقاليد الموروثة من عهد حرية الاسلام وهو ينكر كما أعتقد كل مطمع شخصى ، وليس هناك شك فى اخلاص الجيش والامة له ... وقد تحدث عن مكانه فى تواضع قائلا : انى أمثل الجيش لان الظروف جعلت الجيش يثق بى ، ولكن الجيش نفسه أن هو الا ممثل الشعب وحاميـــه حتى يأتى الوقت الذى لا يحتـــاج فيه اليه ، ونحن فى الوقت الحاضر القوة القومية الوحيدة التى تقوم بين مصر وبين حكامها الاتراك ، الذين لا يتورعون فى أية لحظة اذا أخلى ســـبيلهم أن يجددوا مساوىء عهد اسماعيل .

وتحول المراقبة الاوربية دون ذلك ولـكن فى صورة جزئية فحسب ، ولا تتخذ شيئا من الحيـــطة بتعليم الشعب حكم نفسه ارتقابا لليوم الذى تتخلى فيه عن مهمتها المالية ، وهذا أمر علينا أن ننظر فيه ، لقدكسبنا للشعب حق التكلم فى مجلس يضم الاعيان وانا لنعمل على

الا يطردوا أو يخوفوا فيخرجوا منه ، وانا فى هذا لانعمل لانفسنا بل لاعقابنا وللذين وضعوا ثقتهم فينا . . . ونحن الجند الآن فى وضع كالذى كان فيه أولئك العرب الذين أجابوا الخليفة عمر حين سألهم فى شيخوخته عما اذا كانوا راضين عن حكمه وعما اذا كان فيه قد استقام على طريق العدالة ، قالوا : يا ابن الخطاب انك استقمت على الطريق حقا ولهذا أحببناك ، ولكنك لست نعلم أننا كنا قريبين منك وكنا على أهبة لو أنك سلكت سبيلا معوجة لنردك الى الطريق السوى بسيوفنا . . . وانى على ثقة من أنه لن تكون بنا حاجـــة الى العنف ، فنحن معشر المصريين لا نحب الدماء ونأمل الا نسفك شيئا منها ومتى تعلم برلماننا الكلام فسينتهى واجبنا ، ولكنا نعتزم الى أن نصل الى ذلك الوقت أن ندافع عن حقوق الشعب مهما كلفنا ذلك من ثمن ولن نخاف بمعونة الله أن نثبت أهليتنا لرعاية تلك الحقوق اذا لزم الامر ضد كل من يعمل على اسكاتها . . .

وقد اثر فى تأثيرا جد عميق هــذا النمط من الكلام الذى يختلف كثيرا عما يستعمله السياسيون الشرقيون فى احاديثهم مع الاوربيين ، وقد كشفت لى عن فارق عقلى كبير بين عرابى وبين زعيم آخر من زعماء الحرية قابلته فى دمشق وحادثته وهو مدحت باشا ، فلم يكن فى حديث عرابى شىء من ذلك اللغو حول السكك الحديدية والترع والترام كمشروعات للاصلاح يعمر بها الشرق ، ولكن كان فيه كلمات تنفذ الى أعماق الاشياء ، وتحدد تبعة الحكومة الصالحة بحيث تلقيها على الكواهل التى تستطيع وحدها أن تحملها ، وأحسست ان مثل هذه الكلمات خليقة بأن يصغى اليها فى مجلس العموم اذا قدر لها أن تسمع هناك . . .

وأما عن السلطان وعلاقة مصر بتركيا ، فقد كان كلام عرابى كذلك مبينا ، لقد أخبرنى انه لايحب الاتراك الذين أساءوا حكم مصر عدة قرون ، ولا يحب أن يسمع عن تدخل من القسطنطينية فى شئون مصر الداخلية ، ولكنه يجعل فرقا بين الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية للسلطان ، وذلك أنه كأمير للمؤمنين تحت طاعته والاجلال له اذا عدل ، وكذلك يوحى اليه عمل فرنسا فى تونس بعد أن انتزعتها من الامبراطورية واستولت عليها ، ضرورة المحافظة على الصلة برأس العالم الاسلامى ، قال عرابى : نحن جميعا أبناء السلطان ونعيش معا كما تعيش أسرة فى بيت ، ولكن كما هو الحال فى الاسر لكل منا نحن أهالى الاقطار الاسلامية ، حجرة مستقلة يترك لنا أمر تنظيمها حسب ارادتنا ولا يسمح حتى للسلطان نفسه بالتدخل فى ذلك ولقد اكتسبت مصر هذا الوضع بمقتضى ما منحته الفرمانات ، وسنحرص على أن نحتفظ به ، ونحن اذا طالبنا بأكثر من ذلك فانا نركب متن الشطط وربما فقدنا حريتنا فقدانا تاما ...

وسألته فى شىء من الثقل عما اذا كان ذا صلة شخصية بالقسطنطينية كما تؤكد الاشاعات ، ولاحظت عليه شيئا من التحفظ فى الاجابة ، فمما لاشك فيه ان حديثه مع احمد راتب ذلك الحديث الذى لم يكن لى به علم وقتذاك ، كان يجول بخاطره وسبب هذا التردد ولكنه لم يشر اليه ...

واخيرا تكلمنا عن علاقة مصر بالمراقبة الثنائية ، مراقبة انجلترا وفرنسا ، فأقر عرابى ما تم من خير فى عهدهما كتحرير البلاد من اسماعيل ، وتنظيم الشئون المالية ، ولكنهما بجدر بهما ألا يقفا فى سبيل الحركة القومية بتعضيدهما سلطة الخديو المطلقة ومن حوله من

الباشوات الشراكسة ، وقال انه ينظر الى انجلترا أكثر مما ينظر الى فرنسا لنصرة الحرية الوليدة فى مصر ، وبخاصة جلادستون الذى هو من أنصار الحرية ، وشكا من مالت وتصرفاته ، وعملت على أن أدخل الطمأنينة عليه من هذه الناحية بقدر ما استطعت ، ثم افترقنا

وقد اثر فى نفسى اثرا حسنا هذا اللقاء الاول مع هذا القائمقام الفلاح ، حتى لقد ذهبت من فورى الى صديقى الشيخ محمد عبده لأعبر له عن تأثرى ، واقترحت عليه أن يكتب برنامج الحركة الوطنية بالمعنى الذى ذكره عرابى كى ارسله الى جلادستون ، فانى اعتقد أن برنامجا كهذا لو ابلغ اليه من جهة يثق فيها جدير بأن يحدث فى نفسه أثرا طيبا لصالحهم ، وحدثت مالت كذلك بهذا الاقتراح فذكر أنه يعتقد أنه يحدث ذلك الاثر الطيب ، وعلى ذلك وضعت بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده وبعض زعماء الوطنيين ، وكان يعاوننا صابونجى ، برنامجا يتضمن آراء الحزب الوطنى ، وعرضنا ذلك على البارودى فاقره ، وعرضناه كذلك على عرابى ،

وبعد ان تم ذلك أرسلته الى جلادستون قائلا انه وضع على علم من مالت وباقرار منه لما جاء فيه وشرحت له الموقف كله ورجوت منه أن يعطف على حركة هى قريبة من المبادىء التى يعتنقها » .

هذا هو كلام بلنت عن عرابى نقلناه عن كتابه ، فماذا يرى فيه خصوم عرابى ممن جهلوا حقيقة أمره ، ومن المتقولين عليه ؟

أيبقون على اصرارهم فلا يرون فيه الا جاهلا غرا لا دراية له بالسياسة وشؤونها ؟ الا يزال ينكر هؤلاء انه كان مؤمنا برسالة يطمع ان يؤديها الى بنى وطنه ، رسالة الحرية والكرامة القومية ؟

حسب المرء ان يذكر مبلغ ذلك العصر من العلم ومن اليقظة القومية ، ومبلغ ما كان فيه من الرجال اذا قورن بالعصر الذى نحن فيه ، ليرى كيف بلغ عرابى بحميته واخلاصه وصادق حبه لوطنه مبلغا من الزعامة خليقا بأن يسلكه فى عداد الافذاذ من رجالنا فى تاريخنا كله

وان الذى يخطو الخطوة الاولى فى كل ما يتطلب جراة ليعظم فضله ويعلو اسمه على كل من يخلفه حتى ولو كان فى هؤلاء الخلف من هو اكثر جراة وأجل اثرا وأعظم خطرا واكبر عقلا ، وذلك لان الفضل للبادىء . ولن يوجد فى الخلف من يكون أعظم فضلا ولا أخلد مجداً .

وان الرجل الذى يقتدى بمن سبقه من الابطال من بنى قومه ، أو الذى يلقى معانى البطولة فى نفسه كثرة الابطال من حوله ايحمد على بطولته ، فكيف بمن ينشأ على غير سابقة وينهض مدفوعا بما فى فطرته من معانى الاباء والانفة كهذا الفلاح الذى كبر عليه أول الامر أن يستذله ويستذل اخوانه المصريين رفقى وأصحاب رفقى فما تعاظمه ان يعمل على عزل رفقى وما زال به حتى عزله ، والذى تفتحت نفسه للدستور فوضع يده فى أيدى الوطنيين وما استبعد الشقة أو قعد به ملل حتى ظفر لوطنه بالدستور وأبعد رياضا وأحل محله شريفا ، والذى يحرص بعد ذلك على القومية المصرية ويخشى أن يعصف بها كيد الكائدين فيتربص كما يتربصون ، ويتأهب كما يتأهبون ...

لقد اعجب بشخصه وبآماله بلنت وحق له أن يعجب به ، ولقد قارن بينه وبين مدحت باشا فرجحت كفته على كفة مدحت ، وذهب من فوره يعلن للشيخ محمد عبده مبلغ تأثره بهذا الجندى الفلاح أو فى الواقع بهذا الزعيم المصرى الذى أنجبته مصر ...

الثعالب وبنات آوى

قدر على شريف أن يلاقى عنتا شـــديدا من مسلك الخديو من أول الامر . . . وأخذت وزارته تشق طريقها فى حذر شديد بين تلك الصعاب القائمة ، وكان أعظمها دسائس الاجانب وتوثبهم فى ذلك الوقت ، ولقد هال هؤلاء الاجانب انبعاث الروح الوطنية اذ رأوا فيهـــا بوادر القضاء على ما كانوا يمنون به أنفسهم فى مصر . .

وسارت سفينة الحكم بين هذه التيارات المختلفة ، تنكر الخديو لقضية الدستور ، ونشاط المدافعين عن هذه القضية ، وتربص الدولتين بالحركة جميعا . . .

كان طبيعيا ان تفيق البلاد على صيحة عرابى ، وأن تنطلق النفوس من عقالها ، فلقد أتيح للناس قدر من الحرية وهم اليها عطـاش تتحرق نفوسهم ، فبـــدأ الوطنيون يعبرون عما احتبس فى صـــدورهم منذ عزل اسماعيل ، وعادت الصحف تعبر عن مساوىء التـــدخل الاوربى ، وتندد بأســـاليب الدخلاء فى مصر ، أولئك الذين سلبوها أقواتها بالحيلة ، وحالوا بينها وبين أمانيها زمنا بالارهاب والبطش ، والذين كان يحتل الـكثيرون منهم المناصب المصرية الخطيرة ويؤجرون على أعمالهم فيها ان كان ثمة اهم فيها من أعمال أجورا غالية من خزانة مصر الفقيرة . . .

وأخذت جريدة « الطيف » وكان يصدرها عبد الله نديم تقاوم البهرج الزائف الذى أخذ يلتمع فى مصر ، فيخطف سرابه أبصار الجاهلين، والذى سماه الاوربيون مدنية ليكون لهم منه سلاح من طراز خاص يضيفونه الى أسلحة الدس والكيد التى سلطوها على البلاد ؛ وحمل الكرام الكاتبون على المراقص وحانات الخمور ودور المجون ومواخير الدعارة وغيرها من مباءات الفسوق التى كان يذيعها فى مصر اولئك الذين جعلوا من مبررات تدخلهم فى شئون البلاد رغبتهم فى هداية أهلها الى المدنية !..

وأخذ صيت عرابى يطغى على صيت جميع الرجال من حوله حتى البارودى وشريف وكان لهما الحكم والجاه ، والحق أن القلوب قد تعلقت بعرابى تعلقا يستحيل معه أن يعتزل السياسة أو تعتزله السياسة ، بعد أن خطا فى تاريخ قومه تلك الخطوة الجريئة التى كان النجاح حليفها ...

أخذنا على عرابى أنه حينما طلب اليه أن يخرج من القاهرة بفرقته اشترط أن يكون ذلك بعد صدور أمر الخديو بدعوة مجلس شورى النواب ، فهل نأخذ عليه انه تدخل فى الاساس الذى يجتمع عليه المجلس ؟ فقد كان يرى شريف أن يكون ذلك وفق لائحة سنة ١٨٦٦ ، أى أول لائحة للمجلس وقد وضعت فى السنة التى انشىء فيها ، على أن يضع بالتعاون مع مجلس الوزراء لائحة جديدة تجعل منه مجلسا نيابيا يلائم حال البلاد ، وبعد معارضة شديدة وافق عرابى على ذلك ...

وتدخل عرابى فى مسألة أخرى وهى الميزانية المخصصة لابلاغ الجيش ثمانية عشر ألفا من الجند ، ولقد أبدت المراقبة المالية عدم موافقتها على المبلغ اللازم كله ، وبعد

خذ ورد وافق عرابى على ما تيسر دفعه من هذا المبلغ على أن يوفر الباقى من وجوه أخرى

لقد قطع عرابى على نفسه عهدا كما أسلفنا ألا يتدخل فى شئون الحكومة القائمة ، وعلى هـذا الاساس قبل شريف رئاسة الوزارة ، لذلك نرى أن تدخل عرابى فى الامور التى ذكرناها يوجب ملامته ، ولن يشفع له أنه كان يطلب الخير ، ولن يخفف من اللوم عليه أنه رضى آخر الامر ولم يسبب للحكومة عنتا ، فهذه الامور من اختصاص الحكومة وهى لا تمس جوهر قضية البلاد

ووجه اللوم على عرابى انه هيأ لاعداء الحركة القومية فى مصر أن يمعنوا فى تصويرها صـورة عسكرية بحتة سببها تدخل الجند فى شئون الدولة

لم ين أعداء هذه الحركة الوليدة عن مناواتها فى مصر وفى خارج مصر والى هـذه المناوأة يرجع سبب جموح هذه الحركة والتوائها على شريف ثم خروجها آخر الامر من يده ، ولو انه قدر لمصر فى تلك الايام العصيبة أن سلك الخديو غير ما اختار لنفسه من مسلك فآزر كبير وزرائه ضد ما كان يحاك للبلاد من دسائس لامكن أن يسير شريف بالسفينة الى شـاطىء السلامة ، لـكن الخديو وأسفاه لم يكتف بعدم المؤازرة ، بل لقد التجأ الى الاجانب ، فكان عمله هذا أقوى مساعد على نجاح سياستهم ...

وكان كلفن العضو الانجليزى فى لجنة المراقبة المالية وادوارد مالت قنصل انجلترا فى مصر هما اللذان يحكمان الشباك حول الخديو ، وكانت لهما سياسة ماهرة غادرة تقوم على أسس أحكم وضعها أولهما وفق ما تعلم فى الهند ، فهما يظهران الولاء للخديو فيدسان له بذلك السم فى الملق ، ثم هما يخوفانه ابدا من تركيا والعرابيين

جميعا فيذران قلبه هواء ، وهما بعد ذلك يضللان الرأى العام فى بلادهما ويرسلان التقارير السرية عما يجب أن يتبع الى وزير الخارجية الانجليزية ...

وكانت وسيلتهما فى تضليـــل ذلك الرأى العام ، السيطرة على الصحف بالسيطرة على مراسليها ، وكان كلفن نفسه مراســلا لاحدى الصحف وكان مراســل التيمس يستقى منه المعلومات ، أما شركتا روترو هافاس فقد كان يعطى لكل منهما ألف جنيه فى العام من خزانة مصر ! وقل أن نصادف فى تاريخ السياسة عملا أشــد فجورا من أن تحارب قضية شعب بنقود من خزانته .

وكانت الحركة الوطنية تلاقى أشنع الكيد خارج مصر من جانب الصحافة أول الامر ، الى أن منيت بعد هذه المقدمة بالتدخل الرسمى الفاجر الذى لم يدع فى تاريخ العالم عرفا الا خرج عليه ولا قاعدة الا ســخر منهــا وحطمها تحطيما ...

أخذ محررو الصحف فى انجلترا وفرنســا ينددون بثورة مصر ويسخرون من نهضة مصر ، ولو انهم كانوا يحترمون المبادىء التى نادت بها بلادهم حقا لمنعهم ذلك مما فعلوه ...

وماذا جنت مصر يومئذ حتى تستقبل أوربا حركتها بأسوأ ما تستقبل به الحركات ؟ ألم تجر فى أوربا الدماء أنهارا فى سبيل أمثال تلك المبادىء التى كان ينادى بها المصريون ؟ وكيف تكون نغماتها عذبة مشتهاة اذا تغنت بها أوربا ثم تكون ممجوجة مملولة اذا هتف بها الشرقيون؟

هذا شعب ينفض عنه غبار القرون ، ويخطو نحو الحرية كما خطت أوربا ، ثم هو يذب الاجانب عن قوميته ، وقد ثقلوا عليها بامتيازاتهم الاثيمة الظالمة ثقل الحشرات والهوام ، فماذا كانت ترى أوربا فى هــذا من معانى

الفوضى والهمجية ولم يصحب حركة المصريين عدوان على أولئك الاجانب على ما كانوا يلاقونه منهم من عنت وافساد ؟ الا أنها السياسة والاطماع الاستعمارية تقلب عرف الناس نكرا وتجعل المبادىء التى ينادى بها دعاة الانسانية فى نظر الساسة أحلاما لا تجد لها مستقرا الا فى رؤوس الحمقى من الفلاسفة ورؤوس الاغرار من مصدقيهم ... أما الساسة فقد كانوا لايتوانون عن الكيد ، ولا يفتر لهم سعى فى تلمس السبيل التى يستولون بها على الفريسة ، وكان موقف انجلترا وفرنسا من مصر ينطوى على كثير مما يبعث الالم والضحك معا ! وكم من المآسى ما تضحك منه النفوس ضحكات لن يبلغ الدمع مبلغها !

كان موقف الدولتين كموقف رجلين يطمعان فى استلاب شيء ، وكلاهما يريده لنفسه دون الآخر ولكنه يموه على صاحبه ، ويفهم كلاهما حق الفهم ان الآخر يدرك حقيقة موقفه منه ، ولكنهما على الرغم من ذلك يتغابيان ويضللان !

هذا هو موقف الدولتين على مسرح السياسة فى تلك الايام ، ولكم شهد المتفرجون يومئذ من الاساليب الميكيافيلية وأوضاعها ، ولكم شهدوا من أساليب غيرها لو قورنت هذه بها لكانت منها كالحسنات ، ثم يسدل الستار والمتفرجون من أهل مصر لايملكون أن ينطقوا بكلمة استهجان لما رأوا ، بل لقد فرض الاحتلال عليهم أن ينظموا أناشيد المدح والا عد سكوتهم جحودا وعنادا . وأى شيء انكى وأوجع من أن يرغم شعب على تقبيل الايدى التى استلبته حقوقه والاغلال التى دارت حول عنقه ؟

ويظهر أول شاهد على السياسة الانجليزية فى تقرير

كتبه كلفن بعد يوم عابدين بعشرة أيام جاء فيه : « أرى أن ليست الحال الحاضرة بطبيعتها الا هدنة ، وان ما وصلنا اليه من التسوية ليعطينا مهلة نستجم فيها ونلم فيها بالقوى التى تعمل حولنا ونسعى فى الاستفادة منها أو القضاء عليها » (١) .

وليس فى هذه العبـــارة أول شاهد على السياسة الانجليزية فحسب ، بل ان فيها خلاصة هذه السياسة ، فستتربص انجلترا بالحركة حتى يحين الوقت وحتى تستطيع أن تعمل بمفردها دون فرنسا ...

وكان شريف يقظـا يفطن الى دقة الموقف ، ويدرك مرامى السياســة الانجليزية وأســاليبها ، ولذلك كان لايفتأ يحض أنصار الحركة الوطنية على اتبـاع الحكمة ومجانبة الشطط حتى لا يكون من أعمالهم وأقوالهم ما تسيىء أوربا تأويله فتسوء بذلك العاقبة ...

وأخذ فريق من رجال الحركة الوطنية يعاونون شريفا على تثبيت قواعد سياسته وكان من أثر ذلك أن تنازل عرابى عن رأيه فى الموقفين السالف ذكرهما ، وكان من أثر ذلك أن خففت الصحف من لهجتها وكفكفت من غلوائها ، ولقد كان للشيخ محمد عبده فضل كبير فى توجيه العناصر الوطنية نحو هـــذا المسلك فآثرت مصر أن تركن الى الحكمة وان نفوس بنيها لتضطرم بالثورة ...

ولكن الافق ما لبث أن تجمعت فى حواشيه الغيوم ، وأحست السفينة بوادر عاصفة قوية ما عتمت أن هبت شديدة عاتية نفد لها صبر الربان أو كاد ، وتلك هى أزمة الميزانية الشهيرة ، وهل كانت الثعالب تعجز عن خلق ما تشتهى من أزمات ؟

فرغ شريف من اعداد لائحة المجلس ثم عرضها على

---

(١) المسألة المصرية لروثستين : تعريب الاستاذين العبادى وبدران .

النواب ، وشد ما كانت دهشتهم أن رأوا شريفا يقرر فيها الا يكون من اختصاص المجلس عند النظر فى الميزانية البحث فى جزية الباب العالى والدين العام وكل ما فرضه قانون التصفية على الخزانة من نفقات ...

وهال النواب وأغضبهم أن يكون ذلك باتفاق شريف مع المراقبين ، فرفضوا ذلك وأصروا على أن ينظروا الميزانية كاملة ، وعدوا ذلك من الحقوق التى لا تقبل مساومة مهما يكن الامر ...

واخذ شريف المسألة من الناحية العملية ، فلم يشايع النواب فى نظرياتهم ، واخذ يطلب اليهم الاناة والحذر ، ويريهم عواقب التطرف والتعجل ، ولكنهم لم يلتفتوا اليه ، وظهرت فى الوزارة نفسها بوادر التفكك ، فلقد كان البارودى يطمع فى الحكم بعد شريف فكان لذلك يؤيد الوطنيين فى موقفهم سرا .

وكان سلطان باشا رئيس المجلس ينقم على شريف ان لم يسلكه فى سلك وزارته فوجد فى الخلاف القائم فرصة ينال بها من شريف فسرعان ما اتهم شريف بالاعتدال ، ثم حمل اعتداله على الجبن والضعف . ثم بلغ الامر حد اتهامه بالخيانة ...

ووقف شريف يواجه العاصفة فى صبر وجلد ، وهو يؤمل ان يجنح النواب الى السلام والاعتدال واقترح عليهم تأجيل النظر فى هذه المسألة حينا ، ونشط الشيخ محمد عبده فى معاونة شريف ، وكان مما ذكره فى هذا الصدد قوله : « لقد ظللنا ننتظر حريتنا مئات السنين افيصعب علينا أن ننتظرها بضعة شهور أخرى ؟ » .

ثم بدا على الافق بعد حين ما يبشر بقرب انكشاف الغمة ، فلقد أخذ النواب يتدبرون فى عاقبة هذا التشدد وبدأ العقل يتغلب شيئا فشيئا على العاطفة .

وخيل لشريف أن الازمة بسبيل ان تحل ، ولو أنه اطلع على الغيب لعلم انها كانت تتضاعف ويشتد خطرها لتتخذ فى النهاية الوضع الذى سوف يغير تاريخ هـذه البلاد !

لمح الصائدون فى هذه العاصفة الفرصة المرتقبة !.. وهيهات أن يضيع هؤلاء فرصة طال بهم انتظارها ، ان الخلاف قائم بين الوزارة والمجلس فليعملوا على زيادة هذا الخلاف وليدفعوا بالخديو ليخطو أول خطوة بعد يوم عابدين ضد الحركة الوطنية فيخسر بذلك الوطنيين والعسكريين جميعا ، ويفقدوا هم الثقة فيه كل الفقد فيقرب بذلك من الاجانب أو على الاصح يزداد قربا منهم

ولن يعدم الانجليز وحلفاؤهم أن يخلقوا ألف مبرر لما يفعلون ، ومن أيسر الامور عليهم أن يعلنوا أن البلاد تشيع فيها الفوضى ، وان الاجانب ومصالحهم تكتنفهم الاخطار من كل صوب ، وان الخديو بات يخشى على عرشه ولا مخرج له مما هو فيه ، بل ولا مخرج لمصر مما هى فيه من خلل وارتباك الا أن يضرب على أيدى الثائرين المفسدين فى الارض ...

ومن غريب أمر هؤلاء الانجليز أنهم بينهم وبين أنفسهم غيرهم بينهم وبين الشعوب الشرقية ، فهم لايقبلون من هذه الشعوب ما يعدونه عندهم من مفاخر الانسانية ، وانهم ليرمون أهل هذه الشعوب بأشنع التهم وأقساها ، فالتألم من المظالم التى تنصب على رؤوسهم تمرد ، والسعى الى الحرية فوضى وهمجية ، والدفاع عن البلاد وذب الدخيل عنها وحشية واجرام !.. على ان هـذه سنة الحياة بين القوى والضعيف منذ كان الانسان يتخذ سلاحه من الحجر وينحت مأواه فى الجبل ...

ولقدكانت الدولتان تعملان على الكيد للحركة الوطنية

فى مصر قبل انعقاد المجلس ، وكانت بينهما مراسلات فى هذا الصدد ، وكانت فرنسا هي المحرضة هذه المرة ! فرنسا التى كانت سياستها منذ فشل الحملة الفرنسية تدور على مناواة النفوذ الانجليزى فى مصر !..

ولى المسيوليونجمبتا امر وزارة الخارجية فى فرنسا فى شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ فسرعان ما اتصل بوزير خارجية انجلترا اللورد جرانفل محدثا اياه فى شأن مصر مبينا له وجوب تضامن الدولتين فى العمل ازاء ما يجرى هناك من أمور .

وحار جرانفل أول الامر ماذا يجيب به على هـــذه الدعوة ؟ فهو ان قبلها أصبح مقيدا بالعمل مع فرنسا ، وان هو رفضها قطع على دولته الطريق وجعل لفرنسا المكان الاول فى شؤون مصر ...

وتلقى جرانفل من مصر انبـــاء فاجرة مالت به الى الطريق التى اختارها ...

كانت مشكلة ميزانية الجيش لا تزال قائمة بين عرابى والمراقبين ، فأرجف المرجفون أن عرابيا يعتزم أن يأتى بثورة جديدة لاسقاط وزارة شريف وتنصيب البارودى مكانه ...

وكتب السير ادوارد مالت وهو رجل مسؤول ، الى اللورد جرانفل يشكو من تدخل عرابى ويتساءل فى لهجة ساخطة برمة : كيف يستطيع شريف أن يقوم على رأس الحكومة مع وجود عرابى صاحب النفوذ الفعلى فى البلاد؟ وهكذا يسمح هذا الرجل لنفسه أن يكذب فيرمى عرابيا بما هو برىء منه اذ يصوره فى صورة المتعسف الذى تدفعه المآرب الشخصية ، ولايستحى بعد ذلك أن يكتب الى رئيسه ينبئه بخضوع عرابى لرأى المراقبين !..

ولكن جرانفل كان قد خطا نحو فرنسا خطوة لا يمكنه النكوص بعدها ...

وكتب كلفن كذلك الى جرانفل يقول : « والحقيقة أن الادارة المصرية شركة ثلاثية ، فاذا لم تكن الدول على استعداد لتعديل نصيبها فعليها أن تحافظ عليه وتقويه فى هذا الوقت الذى أصبح فيه المصريون فى حال تطور وانتقال » (١) هذا عدا ما ذكره فى تقريره عما يتوقعه من خطر اذا زيدت سلطة المجلس وثبتت قواعد الدستور المصرى ...

وكان مستر بلنت قد أرسل برنامج الحركة الى جريدة التيمس ، وفيه أقوى حجة على براءة هذه الحركة من عناصر الثورة أو المساس بحقوق الاجانب المالية ، وكان يأمل بلنت وأصدقاؤه من الوطنيين أن يكون لنشر هذا البرنامج أثره الحسن فى نفس جرانفل، ولكنه نشر فى أول يناير سنة ١٨٨٢ بعد أن قضى الامر، فلقد وافقت انجلترا على وجهة نظر فرنسا فى يوم ٣١ ديسمبر أى عقب اجتماع المجلس بخمسة أيام ...

وخطا شريف باشا فى تلك الاثناء خطوة حكيمة فأعلن بيانا (٢) يشير فيه الى منهاج حكومته ، فذكر أنها تقوم على أساس الاعتراف بحقوق السلطان والامتيازات التى حصلت عليها مصر والاعتراف بالخديو حاكما دستوريا والتسليم بقاعدة المراقبة الثنائية ، ثم انكار كل اتجاه ثورى ، ومنح الحرية الدينية والسياسية لجميع سكان البلاد والسير على قاعدة الحكومة المسؤولة أمام مجلس نيابى ...

---

(١) المسألة المصرية لروثستين .

(٢) The Trencit of Egypt by P.G. Elgood

ولم يكن فى الامكان يومئذ السير على منهاج أفضل من هذا المنهاج الحكيم ، الذى كان خليقا ان يبعث الطمأنينة فى نفوس الساسه من الدولتين ، وكذلك لم يكن هناك برهان على حسن نيات الوطنيين أقوى مما نشرته التيمس لمستر بلنت وهو شاهد عدل من الانجليز للمصريين...

ولكن المسألة لم تكن مسألة اقتناع ، وانما كانت نية مبيتة ، وهيهات أن تجرى الامور فى السياسة على الاقناع والاقتناع ، فدوافع الاقوياء الى العمل فى ذلك المضمار أطماعهم ، وبرهانهم أسلحتهم ، وما يكون الكلام الا تعلة الضعيف ، وما أشبه كلام الضعفاء فى مثل هذه المواقف بصراخ الفريسة قبل تمزيقها ...

ويذكر بلنت سببا لانحياز انجلترا الى فرنسا فيقول ان انجلترا كانت تسعى الى عقد معاهدة تجارية مع فرنسا فيها فائدة كبيرة للتجارة الانجليزية ، ومن أجل ذلك هاودت انجلترا فرنسا وطاوعتها فيما تقترح فى شؤون مصر فباعت انجلترا بذلك مصر الى فرنسا ...

وما نظن أن انجلترا كانت من الغفلة بحيث تتنازل عن أغراضها فى مصر من أجل مثل هاتيك المعاهدة التجارية ، وانما الذى نفهمه أن انجلترا كانت تراوغ فرنسا لتفوز بهذه المعاهدة ثم تقف من فرنسا بعد ذلك فيما يتعلق بمصر موقف الاتفاق فى الظاهر ، بينما تعمل فى الباطن وفق ما تمليه عليه أطماعها ، ومما يؤيد ما نقول التحفظ الذى أبدته انجلترا وأقرته فرنسا ومؤداه « ان الحكومة الانجليزية يجب ألا تعد مقيدة بسبب هذه المذكرة بسلوك خطة خاصة اذا ما بدا لها أن العمل ضرورى » ولسوف نرى من سياسة انجلترا فى مصر ما يؤيد ما نقول

تم الاتفاق بين الدولتين ، وكان المجلس فى مصر كما تقدم يخالف الوزارة فى مسألة الميزانية ، وكان بعض

الوطنيين يعملون على الخروج من المـأزق بالحسنى ، ولاحت فى أفق السياسة بوادر انكشاف الغمة ...

وما أشـــد ما نحسه من ألم ومن غيظ أن نذكر أن البلادَ ما لبثت أن تلقت من الدولتين فى اليوم الثامن من شهر يناير ســـنة ١٨٨٢ تلك الصيحة المشؤومة التى سميت بالمذكرة المشتركة ، والتى قل أن نجد فى التاريخ السياسى ولا فيما يحكى للأطفال من خرافات مثالا أوضح منها لتحكم القوى فى الضعيف واستهتاره به فى غير حياء أو تحرج.. وحسبك أن تقرأ هذا الكلام الذى بعثت به انجلترا وفرنسا زعيمتا الحرية والديموقراطية ! جاء فى المذكرة (١) « ان الحكومتين الانجليزية والفرنسية تريان أن بقاء سمو الخديو على العرش بالشروط التى قررتها الفرمانات السلطانية واعترفت بها الحكومتان رسميا هو الضمانة الوحيدة فى الحاضر والمستقبل لاستتباب النظام فى مصر واطراد رخائها ، وهما الامران اللذان تهتم بهما فرنسا وبريطانيا العظمى ، وان الحكومتين اللتين اتفقتا اتفاقا تاما فى عزمهما على أن تمنعا كل أسباب الارتباك الداخلية والخارجية التى يمكن أن تهـدد النظام القائم بمصر ، لايداخلهما ريب فى أن جهرهما بما عزمتا عليه رسميا فى هذا الامر سيحول دون الاخطار التى قد تتعرض لها حكومة الخديو والتى لابد أن تقاومها فرنسا وانجلترا معا ، وان الحكومتين لتثقان بأن سموه سيستمد من هذا التأكيد ما يحتاج اليه من الثقة والقوة لتدبير شؤون بلده وشعبه » .

واى كلام يمكن أن يعبر عما تنطوى عليه هذه المذكرة من لؤم وفجور ؟ ما معنى الاشارة الى بقاء سمو الخديو

---

(١) المسألة المصرية لروثستين .

على العرش ؟ وما شأن الدولتين حتى تهتمان بهذا الامر؟ وبأى حق تضطلعان بمنع أسباب الارتباكات الداخلية والخارجية ؟ وعلى أى أساس يقوم ادعاؤهما وجود هذه الإرتباكات ؟ وكيف يجوز أن يعتمد الخديو عليهما ، ويستمد الثقة منهما مع وجود السلطان ؟

هـذه هى المذكرة المشتركة التى أشار اليها بلنت بقوله : «هذه المذكرة المشؤومة التى اليها يرد كلما وقع من المصاعب اثناء ذلك العام والتى أفقدت مصر حريتها كما أفقدت جلادستون شرفه وكما أفقدت فرنسا نفوذها فى وادى النيل » .

ولا تسل عما أحدثته هذه المذكرة الحمقاء من سوء الاثر فى مصر ، لقد بلغ من اثارتها الشعور واحراجها الصدور أن نقم عليها مالت وكلفن وتمنيا لو لم تكن ! وقد كانا يريدان ألا تكون بمثل هذه الصراحة الطائشة.

وكانت النتيجة الطبيعية أن انضم المعتدلون من رجال الحركة الوطنية الى العسكريين ، وهو على خلاف ما كانت تنتظره الدولتان فى غباء مضحك أو فى غفلة لاندرى كيف وقعا فيها ، الا أن تكونا أرادتا ايقاظ الفتنة وهو خير ما يفسر هذا الذى نحار فيه .

رأى عنصرا الامة ، الرجعية المسلحة.. بل رأوا الغدر الاثيم يتهدد قضيتهم ، وانبعثت الصيحات من كل مكان ان انجلترا ألقت بنفسها فى أحضان فرنسا ، وان فرنسا تريد أن تصنع بمصر ما صنعته بتونس ، ولذلك يجب الاتجاه الى السلطان والمناداة بمبدأ الجامعة الاسلامية لمقاومة هذه الحركة الاثيمة ...

وعظم سخط المصريين جميعا حين علموا أن الخديو قد قبل هذه المذكرة ، ولم يكتف بهذا القبول المشين ، فكتب الى القنصلين يشكر حكومتيهما على ما تبديان

من عطف نحوه ، وفى هذا دليل صريح على أن الخديو آثر الانحياز الى جانب الدولتين ونسى موضعه من السلطان ولم يعبأ بما يجد فى مصر من الغضب على مسلكه ...

وضاع كل أمل فى تهدئة الخواطر ، فأصر مجلس شورى النواب على موقفه فى وجوب نظر الميزانية ، ورأى شريف فى المجلس اجماعا ضده وحماسة ما رأى مثلها من قبل ، ولقد رغب جرانفل فى ملاينة الاعضاء فى هذه المسألة كأنما يريد أن يعالج بعض خطئه ، ولكن جمبتا رفض ذلك بحجة أنه يسقط هيبة الحكومتين أمام الوطنيين ! وما أعجب أمر هذا الرجل الذى يرى أن الهيبة تكتسب بالحماقة !

على أن جرانفل ما لبث أن شايع جمبتا فى حماقته فلقد كتب اليه مالت يقول (١) ان المجلس باق وسيظل باقيا ما لم يحل بالقوة ، وهذا أمر لا يكون الا بالتدخل الذى هو آخر سهم فى كنانتنا ، والذى لايسوغه أبدا مما قد يكون من خرق قانون التصفية ... انى أعترف أنى أفضل أن يعطى المجلس ما يطلبه من الحق والا نتدخل حتى يسىء استعمال هذا الحق... ويجب الا ننسى أن الامة المصرية قد أخذت تسلك طريق الحكم النيابى خيرا كان ذلك أو شرا ، وأن قانون المجلس الاساسى هو صك حريتها » ...

هذا ما ذكره مالت نفسه ولكن جرانفل لم يعبأ به وأرسل الى جمبتا ينبئه بموافقة الحكومة الانجليزية على آرائه ، ونسى جرانفل أو تناسى أنه كتب الى مالت قبل ذلك بنحو شهرين يقول له مشيرا الى حرية المصريين

---

(١) المسألة المصرية لرونستين .

الوليدة : « ان الحكومة الانجليزية اذا ما رغبت فى نقص تلك الحرية أو العبث بتلك النظم التى يرجع وجودها اليها فانها تتبع سنة تخالف تقاليد تاريخها الوطنى... ليس من شىء يحملنا على سلوك خطة أخرى غير قيام حالة فوضوية فى مصر »

فليت شعرى ما الذى حدث فى مصر حتى تخالف انجلترا على هذه الصورة أجمل تقاليد تاريخها الوطنى؟ الا انها السياسة التى لا تتورع عن شىء ولا تستحى من شىء ، وليتدبر فى هذا الموقف من لايزالون فى هذا الشرق يتحدثون عن الضمير البريطانى والشرف البريطانى...

حاول شريف أن يحصل على مذكرة تفسيرية يستعين بها على تسكين الخواطر ، فرفض جمبتا حتى هذه المذكرة وعاد جرانفل فشايعه فى هذا مشايعة عمياء على الرغم من نصح الناصحين من الانجليز والوطنيين ...

ولست أدرى كيف كانت ضمائر هؤلاء الساسة تطاوعهم مع هذا على أن ينعتوا رجال مصر بالفوضى وأن يصوروهم أطفالا فى السياسة لا يدرون ما يأخذون وما يدعون ؟ ولكن ما لى أعود الى حديث الضمائر والامر أمر السياسة وجشع السياسة ؟

وضاقت بشريف السبل فلم يدر ماذا يفعل ، ووقفت السفينة لا تستطيع حراكا ، والريح من حولها عاصفة وليس فى الجو بارقة أمل ، والنواب لا يفتر اصرارهم ولا تنقطع زمجرتهم ...

وعاد مالت يحذر جرانفل فقال فى صراحة : « ان التدخل المسلح سيصبح أمرا محتوما اذا تشبثنا بمنع المجلس من التصويت عن الميزانية ، ومع ذلك فجميع الحكومات تهتم بمنع ما يوجب هذا التدخل الذى اذا

أقدمت عليه الدولتان وحدهما أدى الى سوء المنقلب فى هذا البلد » .

ولينظر فى كلام مالت أولئك الذين يعودون باللوم على عرابى اذا ذكر الاحتلال والتدخل المسلح فى شؤون مصر ، ومتى يعلم هؤلاء انه لو لم يوجد عرابى لعمل الانجليز على خلقه ؟

على الرغم من تحذير مالت أبلغت الحكومة المصرية رسميا فى اليوم العشرين من شهر يناير سنة ١٨٨٢ ، أن المجلس لن ينظر فى الميزانية الا اذا أخل بالاوامر العالية التى أنشئت بمقتضاها المراقبة الثنائية ...

وكان المجلس قد جنح الى الاعتدال على الرغم من أنه يرى تدخل الدولتين عملا لاموجب له فتساهل تساهلا لا يدع مجالا لاتهامه بالشطط أو التورط ، فقبل أن يقتصر نظره فى الميزانية على القدر الباقى منها بعد الجزية وقانون تصفية الديون والالتزامات الدولية ...

ولكن الدولتين أبتا عليه حتى هذا واكدتا لشريف أنهما لن يقبلاه بحال ، وهذا فى الحق هو الشطط ، بل هذه هى الفتنة ، والمسألة لا تحتاج الى بيان فما كانت مسألة الميزانية الا ذريعة للتدخل الفاجر ردا على نجاح الثورة القومية بعد يوم عابدين ، فقد كان هذا النجاح مؤذنا كما يبدو لاول وهلة بانقضاء عهد سيطرة الاجانب على البلاد ... ولئن تظاهر مالت وأمثاله من الانجليز بأنهم لايريدون التدخل فذلك كلام يسبق كل رغبة فى التدخل تأتى من جانب المستعمرين ... والذى يفطن اليه المرء فى غير طول نظر أن مالت كان ينصح بعدم التدخل لانه كان يريد أن يبعد فرنسا فلا يحب أن يكون التدخل مشتركا ، وانما يحب كل الحب أن تكون الفريسة من نصيب انجلترا وحدها

قال بلنت يصف لقاءه كلفن وقت اشتداد الازمة بين شريف والنواب : « كان الخصام بين النواب وشريف فى اشد حالاته ، فسأله عن رأيه فى الموقف فقال انه يراه خطيرا جدا . وكان من الامور الواضحة أن زعماء الحركة القومية قد صمموا على اسقاط شريف ، فاذا نجحوا فى ذلك فانه كما قال يقطع صلته بهم ، ثم أخبرنى بأنه غير آراءه تغييرا تاما فيما يتصل بهؤلاء فانه ظنوم يجنحون الى التعقل ولكنه يرى ألا سـبيل الى تعقلهم ولذلك سيبذل قصارى جهده للقضـاء عليهم اذا وصلوا الى الحكم ، فسـألته : كيف يتسنى له أن يقترح ذلك ، وكيف يعترض حركة أقرها أخيرا ، وقد خرجت عن طوقه وطوق كل شخص غيره ؟ كيف يتسنى ذلك الا بنفس التدخل الذى كنا نحاول جميعا أن نتجنبـه ؟

فقال : انه غير رأيه حول التدخل كذلك وانه يراه الآن ضروريا ويرى انه لا مناص منه وسوف لايألو جهدا فى العمل عليه ، فاعترضته مبينا أن التدخل معناه الحرب والحرب معناها ضم مصر ، فقال : انه يدرك هذا المعنى كل الادراك ... ان ما يحدث فى مصر قد شوهد مثله مرات فى الهند ، وان انجلترا لن تتخلى عما تم لها من النفوذ فى مصر ومن العبث الكلام فى حقـوق المصريين وأخطائهم ، فذلك ما لايصح اعتباره ، ثم كرر ماسلف أن قاله عن تحطيم الحركة القوميـة والحزب الوطنى مضيفا الى ذلك انه لم يعد يجعل آراءه هذه سرا من الاسرار »

وذكر بلنت كذلك كتابين جاءاه من صديقين له فى انجلترا أحدهما من الاحرار ، وهو جون مورلى ، والآخر من المحافظين ، وهو ليتون وكان قد كتب اليهما يسألهما عطفهما على الحركة القومية فى مصر ، فأما أولهما فيقول :

« انى أشك فى أن مشروعاتك تصادف نجاحا فى هذا الوقت ، ان مصر لسوء حظ أهلها ميدان للتنافس الاوربى ، وستمنع تسوية شريفة فيما يهم مصالح أهلها لكى يتمشى ذلك مع ما يلائم فرنسا ، وليست لى حيلة فى ذلك ، فانها تلك النقمة التى نزلت بالدنيا ألا وهى : السياسة العليا التى ستفسد كل شىء » .

وأما ثانيهما فيقول : « ان هذه الفئة القليلة من الشعب الانجليزى التى تفكر فى الامور الخارجية ، قد امتلأت أذهانها من قبل واضطربت أفكارها بسبب ذلك الوضع الخاطىء الذى ننساق اليه فى مصر ، ويكادون يخافون اكبر الخوف من الجهر بآرائهم عن الموضوع ، ويظهر لى أن آراءهم واهية ، وفى رأيى أن هذه أولى ثمار تلك السياسة الخاطئة من أساسها التى أدت بنا الى أن نفقد التعاون مع المانيا والنمسا ووضعتنا فى الواقع تحت رحمة فرنسا ، تلك الدولة التى لايمكننا أن نعقد معها تحالفا على أساس متين يدعو الى الاطمئنان »

وما نظننا بحاجة بعد هذا الذى يذكره بلنت الى الرد على الذين يرون أن تمسك النواب بنظر الميزانية هو سبب ما منيت به البلاد من التدخل الاجنبى ...

ولما وجد النواب شريفا يميل الى موافقة الدولتين ، سار وفد منهم الى الخديو فطلبوا عزله ، وتعيين رئيس للوزارة يستطيع أن يسير مع نواب البلاد فى سياستهم .

وسقطت وزارة شريف فى اليوم الثانى من فبراير سنة ١٨٨٢ ويرى بلنت أن من عوامل سقوطها كذلك تهديد كلفن بالتدخل العاجل ، وحلت محلها وزارة البارودى بعد ثلاثة أيام وهى الوزارة التى سوف تعرف باسم وزارة الثورة ...

غضبة جديدة

ذكرنا أنه كان من نتائج تلك المذكرة المشؤومة اتحاد الوطنيين والعسكريين ، ونذكر الآن أن عرابيا ما لبث أن اتجهت اليه أنظار الجميع على نحو ماحدث قبل يوم عابدين ، ورأى الوطنيون أنه الرجـــل الذى يجب أن يحرصوا علي معونته لا لان الجيش من ورائه ، بل لان الامة المصرية لا تذكر غيره ولا تتجه عنــد الخوف الى سواه ...

وتأهب عرابى ليخطو فى تاريخ هـــذا البلد خطوة جديدة ، وقد تآمرت الثعالب وبنات آوى على اقتناصه هذا التآمر الوضيع ...

ولقد أحس مالت بما كان للمذكرة من أثر فى عودة عرابى الى طليعة الصفوف فأوفد اليه فى مكتبه بوزارة الحربية صديقه بلنت ، وكان يطمع فى أن يكسب عرابيا الى جانبه أو على الاقل كان يتمنى أن يهــدىء خاطره لتفطنه الى ما يكون لصنيعه هذا من عظيم الاثر فى ذلك الموقف العصيب الذى سببته رعونة جمبتا وصاحبه..

يقول بلنت : « ذهبت بناء على ذلك الى قصر النيل ظهر يوم ٩ ، وكان نص المذكرة قد وصـــل يوم ٨ ، ووجدت عرابيا وحده فى مكتبه ، وكان غاضبا وهــذه هى المرة الاولى والمرة الوحيدة التى رايته فيها كذلك..

وكان وجهه كالسحابة الراعدة وتألقت عينـــاه ببريق خاص ، وكان قد اطلع على نص المذكرة وان لم تكن قد نشرت بعد ، فانها حتى ذلك الوقت كانت أرسلت بالبرق فحسب ، وسألته كيف فهمها ؟ فأجابني قائلا ، بل اخبرني كيف فهمتها انت ؟ » وعنـــدئذ افضيت اليه برسالتي فقال : « لابد أن السير ادوارد مالت يظن أننا أطفال لا ندرك معنى الكلمات ... انها قبل كل شيء لغة تهديد فليس في هذه الادارة كاتب يستعمل هذه العبارات لمثل هذا المعنى» والمح الى تلك الاشارة للأعيان التي جاءت في الفقرة الاولى من المذكرة قائلا : ان هذا تهديد لحريتنا ومضى يقول : ان اعلان اتحاد انجلترا وفرنسا في السياسة معناه أن انجلترا سوف نغزو مصر كما غزت فرنســا تونس ... الا فلتدعهم يحضرون ، ان كل رجل وكل طفل في مصر سوف يحاربهم ... انه مما يتنـــافى مع مبادئنا ان نبدأ بالعدوان فنضرب الضربة الاولى ولكننا نعرف كيف نردها ... ثم قال عما جاء بصدد الدفاع عن العرش : « ان العرش اذا كان ثمة من عرش هو عرش السلطان ، وليس الخديو بحاجة الى حماية أجنبية... انك تستطيع أن تخبرني بما تشاء ولـكني أفهم معنى الـكلمات خيرا مما يفهم السير ادوارد مالت ...

وفي الحق ان كلام مالت كان هراء ، وقد احسست انى احمق بين يدى عرابي وشعرت بالخجل ان سمحت لنفسي ان أكون حامل هذا اللغو اليه ، ولكني أكدت له اني أديت الرسالة كما حملنيها اليه السير ادوارد وقلت له : انه يطلب اليك ان تصـــدقها وأنا أطلب اليك أن تصدقه .

وعنـــد انصرافي عاد اليه شيء من الهدوء ، وامسك بذراعي وهو يشيعني الى أسفل البناء ، وقد دعاني الى

أن اظل على مودته فأزوره في منزله كما كنت أفعل ، فقلت : انى سوف احضر حين تكون لدى أنباء طيبة لك فحسب ، وكنت اقصد بذلك القول أن ألمح له الى ما كنا نرجوه من تفسير للمذكرة ، أبرق مالت يستأذن فى أن يتقدم به ...

ولما عدت الى مالت وسألنى عما صنعت قلت له انه لا يرجى الصلح الآن فان المذكرة قد ألقت بهم بين ذراعى السلطان » .

هذا كلام بلنت ومنه نتبين مبلغ غضب عرابى من هذه المذكرة ، كما أننا نفهم جانبا مما كان يجيش فى نفس هذا الزعيم الثائر ، فهو لن يجبن ولكنه لن يبدأ بالعدوان ، وهو يلمح نيات انجلترا فى هذه المذكرة ، وما كان عرابى مسرفا فى تصوير نيات الانجليز فلسوف نرى أن جرانفل كان فى ذلك الوقت قد وطد العزم على التدخل بالقوة..

عاد عرابى الى الميدان ، وفى الناس من تبلغ بهم الغفلة الى حد أن يأخذوا عليه هذه العودة ، وفيهم من يذهبون فى اتباع أهوائهم الى أن يجعلوا ذلك من أكبر خطيئاته قائلين فى مثل منطق البلهاء ، ان كان ثمة للبلهاء منطق انه بعودته هذه قد ساق البلاد الى ما سيقت اليه من دمار ، كأن على كل رجل اذا رأى كرامته تداس وشرفه يهان أن يقف مكتوف اليدين والا ساق نفسه اذا غضب الى الدمار . الا أن الرجولة خلاف ذلك ، فالرجل الذى يجد نفسه فى موطن الاهانة لاسبيل له يمسك بها رجولته الا أن يدافع عن نفسه انفة وحفاظا ولو أيقن أنه هالك .

ومن المؤلم المثير حقا ان يقول هؤلاء الناس هذا الكلام ، دون أن ينظروا فى موقف الخديو وموقف الانجليز على نحو ما بينا ، وهم لا يدركون من المسألة كلها الا أن عرابيا كان رجلا ذا أطماع شخصية لايدرى ماذا يفعل ،

وكلما هدأت البلاد لا يفتأ يعمل بنزقه على اثارتها ليصل الى تحقيق أطماعه. الىآخر هذه النغمة الباردة المرذولة التى القى بها الاحتلال فى أذهان الاطفال ...

وأحسب الآن بعد الذى رأينا من موقف أعداء البلاد أن هذا الكلام قد أصبح خليقا بأن يخجل منه قائلوه ، وانا لنكاد نقطع منذ الآن انهم بعد أن نفرغ من سيرة هذا الزعيم المفترى عليه على نحو ما نبين من أوجه الحق لن يعودوا الى مثل هذا الكلام ، فسبيلنا كما يرون فى اقناعهم الحجة نستخلصها من الحوادث فىعدالة يفرضها الحق ، وفى عطف يوجبه الانصاف ...

***

تعهد عرابى ألا يتدخل فى شؤون الحكومة ، فكان اذعانه لهذا أمرا لابد منه . ولو أنه رفضه لكان فى ذلك مخطئا أشد الخطأ ، ولكن عرابيا لم يتعهد أن يدع وطنه وشأنه ، لا تهزه بعد يوم عابدين نحوه عاطفة أو يحركه لنجدته ما عسى أن يلم بقضيته من الاحداث ، ولم يكن ليستطيع عرابى أن يتعهد بمثل هذا ، ولن يستطيع ذلك غير عرابى من الناس ، ولو أنه فعل ذلك لأجرم فى حق هذا الوطن جريمة ما كان ليغفرها له التاريخ ...

وكيف يفعل ذلك عرابى أو أى رجل غيره ولا يكون بذلك مجرما مفرطا فى حق وطنه ؟ وأى فرق بين مثل هذا التعهد وبين المروق والخيانة والجمود فى أوضح صورها وأقبحها ؟..

ألا انه للحق كل الحق أن يطلب الى بنى الوطن الا يتدخلوا فى أعمال الحكومة ، ولكن على شرط ألا يكون من تلك الاعمال نفسها ما يحفز الناس الى التدخل أو يوجبه عليهم ... أما ان تفرط الحكومة فى حق الوطن، وأما أن توضع العقبات في سبيل قضيته ، ثم يطلب الى

الناس بعد ذلك أن يدعوا الحكومة وشـــأنها فهذا هو الباطل فى أرذل صوره وأشدها فجورا ، ومن أطاع ذلك من الناس فقد ضل فى حق بلاده ضلالا بعيدا ...

لن يكون لقيام الحكومات من مبرر الا العمـــل لخير المحكومين وصلاح أمرهم ، على هـــذا الاساس ولدت الديمقراطية ، وبهذا المبدأ اقترنت الحرية ، ولكم نادى بذلك القادة ودعاة الانسانية فى الغرب منذ هدموا صروح الظلم وحطموا أغلال الماضى وفصموا سلاسل الرجعية والعبودية ...

***

وما لنا نستشهد بالغرب وهـــذه الحكومة الاسلامية الاولى التى ولدت فى الصحراء قد جعلت تلك المبادىء أساس قيامها ، وما أروع وأجمل أن يقول الخليفة الاول للناس : « أيها الناس انى وليت عليكم ولست بخيركم فان احسنت فأعينونى وان صدفت فقومونى » وأن يقول لهم الخليفة الثانى : « من راى منكم فى اعوجاجا فليقومه » فيرد عليه اعرابى من أوزاع الناس بقوله : « لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » وابلغ واروع من قول أبى بكر وعمر قول الرسول الكريم : « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » .

قبل عرابى أن يدع الحكومة وشأنها على أن تجرى الامور وفق ما أقرته الثورة من مبادىء ، فكيف لعمر الحق كان يستطيع أن يحمل على السكوت نفسه وقد رأى من الدسائس الاثيمة التى كانت تحاك حول تلك الحرية الوليدة ما اغضب أكثر النـــاس اعتدالا وأقلهم علاقة بالسياسة وشؤونها ؟..

اذن فالفرق كبير بين أن يتدخل عرابى فى شـــؤون

الحكومة وبين أن يغضب لما حل بقضية وطنه ، وفى هذا الغضب دليل وطنيته ووطنية كل غاضب معه ...

لقد كان من أصعب الامور على هذا الرجل أن يدع هذه القضية وشأنها ، بل لقد كان ذلك عليه مستحيلا وانى لارجو من الذين خاصموا هذا الرجل فى غير حق والذين خاصموه مضللين أن يستمعوا الى هـذا الرأى الذى أسوقه عنه الا وهو ان الحرية كانت من طبعه ، فطر عليها ولم يتكلفها يوما أو توجهه اليها الحوادث وهو يجهل كنههـا ، كما يقول الذين يريدون الا يدعوا له محمدة الا جعلوها بالباطل مذمة ...

***

كانت الحرية من طبع ذلك الجاويش الذى نقم على الشراكسة فى الجيش استبدادهم فأكثر من الشغب عليهم وكانت الحرية هى التى دفعت هذا الرجل الى أن يقف موقفه المشهود فى ساحة عابدين عصر اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ ، ولسوف تكون الحرية هى حافزه الى ما يشب بعد المذكرة المشؤومة من وثبات

ولقد استوثق بلنت من ذلك كما أسلفنا حينما اتصلت أسباب المودة بينه وبين عرابى ؛ وبين كيف ازداد عرابى محبة له اذ علم بالصلة بين أسرته وأسرة اللورد بيرون.

وكيف يمجد هذا الفلاح اللورد بيرون نصير الحرية الا أن يكون هذا تجاوبا بين نفس حرة وأختها ؟ ولقد كان بيرون يدافع عن اليونانيين لا عن المصريين ؛ فلم يكن حب عرابى اياه اذن مشوبا بعاطفة غير عاطفة حب الحرية أينما كانت وكيفما كانت جنسية الداعين اليها وكيفما كان دينهم ...

ولنعد الى خطبته التى ألقاها فى محطة مصر ، لقـد أفصح فيها وهو يرتجلها عن كثير مما كانت تنطوى عليه

نفسه . والخطيب فى مثل ذلك الموقف الحماسي ينسى نفسه فلا يملك التكلف والتصنع ، بل لقــد يكشف الخطيب عما يريد أن يغطيه اذا نسي نفسه فى رهبة الموقف وحماسته دون أن يملك لذلك دفعــا . قال عرابى : « البــلاد محتاجة الينا وامامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات والا ضــاعت مبادئنا ووقعنا فى شرك الاستبداد بعد التخلص منه »... وقال : « وقد فتحنا باب الحرية فى الشرق ليقتدى بنا من يطلبها من اخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة » .

***

وقد مر بنا رأى بلنت عن حبه للحرية ، ونورد هنا رأى جون نينيــه (١) وهو رجل سويسرى حر عاشره وعرفه معرفة خبرة ووثوق كما عرفه بلنت ، قال : «كان احمد عرابى رجلا مستقيما وخادما لوطنه ، وشغوفا بالحرية ومؤمنا بالحق، وخطيبا فصيحا ، وكانت شهرته تبلغ شأو غاريبلدى » .

وانا لنرى فى هذه الادلة على حبه للحرية من القوة ما لا تجدى معه مكابرة ، وعلى ذلك نتساءل : ألم يأن للناس أن ينصفوا هذا الرجل وقد قضى عليه أعداؤه ، ثم قضوا بعد ذلك على تاريخه الحق ؟

اننا بلد لا يعد غنيا الغنى المنشود فى الرجال ، وهذه حقيقة نثبتها والالم يرمض جوانحنا ، فكيف نرضى مع ذلك أن نشايع أعداءنا فلا نثبت فى سجل رجالنا هــذا الرجل الذى يحق لنا أن نفخر به ؟

الم يأن لابناء هذا الوطن أن ينظروا وهم بصدد قضية استقلاله الى هذا الرجل نظرتهم الى زعيم جاهــد فى

---

(١) العبارة من ترجمة الاستاذ محمد لطفى جمعة

الوطن حق جهاده ، وأن يكفوا عن تلك النظرة الظالمة التى تصوره رئيس عصابة من الاوزاع والهمج لايسيرون على نهج ولا يبتغون من وراء سيرهم غاية ؟

ألم يأن لابناء هذا الوطن أن يفطنوا الى ان الاحتلال هو الذى صور عرابيا هذه الصورة المنكرة ليبرر بذلك وجوده ؟ وأنهم بمجاراتهم الاحتلال وصنائعه الى يومنا هذا فيما ادعى انما يثبتون على انفسهم الغفلة ويسيئون الى رجل ما فكر يوما فى الاساءة الى وطنه ؟ رجل ان كثرت أخطاؤه فقد حسنت نياته ، وان فاته النجاح فقد عظم فى سبيل النجاح بلاؤه ، فى حين قد قل فى المحنة نصراؤه ، وتعدد غداة الروع اعداؤه ...

***

لا جناح على عرابى ان يعود الى ميـدان النضال فى سبيل المبادىء التى اعتنقها المصريون ووطدوا العزم على تحقيقها ، بل ان ذلك لا غيره ما كان ينتظر منه ، وما كان ليقبل منه قعود ، ولو انه وقف فى جهاده عند وثبته الجريئة يوم عابدين لحق عليه ما نسبه اليه خصومه من النزق والسير على غير هدى ...

ومن أعجب ما يسمعه المرء من أقوال هؤلاء الخصوم قولهم : لقد أجيبت مطالب الجند على نحو ماكان عرابى نفسه يحب فما عودته الى التدخل فيما ليس من شأنه ؟ وأى غفلة أشد من هذه الغفلة ؟ واذا كان مثـل هؤلاء يجهلون حقيقة الثورة العرابية هذا الجهل المعيب فكيف السبيل الى اقناعهم ؟

وها هم أولاء الوطنيون يسقطون شريفا ويتمسكون بحق مجلس الشورى بالنظر فى الميزانية وقد رأوا من أعداء البـلاد غدرهم الاثيم فهل نرمى هؤلاء بالفوضى والشطط ؟ واذا كنا نسمى عملهم تحمسا وغيرة وطنية

فلم نستكثر ذلك على عرابى وقد غضب كما غضبوا وتحمس كما تحمسوا ؟

سيعود عرابى الى الجهاد فيقف فى وجه الدولتين الطامعتين ، وسيسير زعيم الثورة على رأس جيش من أبناء هذا الوادى ليذود عنه فى بسالة جريئة وحفاظ مر وفق ما توجبه الوطنية والرجولة ، وهذا لعمر الحق ما كان يطلب منه فى مثل هاتيك الظروف ، أما الفوز فأمر قد يخرج عن تصريفه ، وسبيله اليه محدود بحدود طبيعته ومقدرته ، ولقد يتوفر للقائد من أسباب الفوز ما يكاد معه يعتقد انه قبل وقوعه حقيقة لا سبيل الى الريبة فيها ، ثم ينظر فاذا تلك الحقيقة خيال أو دون الخيال ، ولئن أخطأ قائد أبلى مثلما أبلى عرابى فلن تحمل أخطاؤه على معنى آخر كما حملت أخطاء عرابى ظلما وعدوانا على معانى الخيانة والمطامع الشخصية ..

حسب عرابى أن يجاهد وأن يقاتل وان يثبت للدنيا أن فى مصر من يذود عنها «عن الحق بالسيف» ...

عرابي الوزير

اختير عرابى وزيرا للجهادية فى وزارة البارودى ، وجلس هذا الفلاح على الكرسى الذى كان يجلس عليه بالامس القريب رفقى الشركسى ، وكان صيت عرابى فى البلاد قد بلغ غايته ، وكان بيته كما أشرنا وكما ذكر بلنت مفزع المظلومين ومتجه المعجبين المؤمنين بحرية هذا الوطن ...

وكانت سياسة جمبتا قد صبغت بالصبغة الدينية عند المصريين ، وقر فى أذهان الناس أنه كان مدفوعا فى سياسته بكراهيته للمسلمين ، وخوفه أن ينهضوا وتقوى بينهم أواصر الاخاء فيكونوا بذلك حائلا بين فرنسا وبين أطماعها فى الشرق ، ويفسر بلنت نفسه مسلك جمبتا هذا التفسير ، ويقول ان من نتائج المذكرة أن بات الناس يتجهون نحو السلطان كمنقذ لهم ، وأصبحوا ينظرون الى عرابى أنه عضد السلطان فى مصر والحصن الذى تحتمى فيه الآمال بعد أن يئسوا كل اليأس من توفيق ...

ويظهر أن عرابيا كان يميل من زمن الى أن يجعل من خطته الاعتماد على السلطان ، ولعل بلنت فهم ذلك من أحاديثه معه ، نجد اشارة الى ذلك فى قول بلنت عن اثر المذكرة المشتركة « وجد المصريون انفسهم لاول مرة

مرتبطين كل الارتباط فان الشيخ محمد عبده ومن معه من المعتدلين من أنصار الاصلاح الازهريين ألقوا بأنفسهم فى زمرة الحزب الذى سبقهم بخطوات ، وشعر الناس جميعا حتى الشراكسة شعور الاشمئزاز من التدخل الاجنبى ، ومن ناحية أخرى فان أشد الناس نفورا من الاتراك من عنصر القوميين ومنهم صديقى الازهرى الشيخ الهجرسى ، اصبحوا يرون أن عرابيا كان على حق فى اعتماده سرا على السلطان ... وبهذا كسب عرابى كسبا عظيما فى ذهاب الصيت والتوقير، ولم أسمع لعدة أيام بعد ذلك من أصدقائى المصريين الا الكلام عن الجامعة الاسلامية » .

وأنعم على عرابى برتبة الباشوية ، وهو يقول انه قبلها هذه المرة كارها ، فلولا أن المنصب كان يقتضى قبولها ما قبلها ، وأما عن قبوله المنصب ، فما نظن أنه كان يستطيع أن يبقى بمعزل عن الوزارة وقد صار له فى سياسة البلاد هذا الشأن بعد حادث عابدين ، وانا لنعجب أشد العجب للذين يعيرون رجلا لقبوله منصبا من المناصب ، ويتخذون ذلك القبول دليلا على أنه يبتغى الخير لنفسه فحسب ، فهل كانت المناصب عند الناس جميعا وسيلة الى اشباع المطامع وجلب المنافع ؟ وأى شىء يجعل هذا لازمة حتمية للمنصب ؟ وأى شىء يمنع من أن تكون المناصب عند بعض الناس وسيلة لتحقيق غاية جليلة شريفة هى العمل للصالح العام ؟ وأى قرينة تمنع أن نسلك عرابيا فى سلك هؤلاء الداعين الى الخير العام ، الذين يتخذون من المنصب اداة لخدمة المجتمع؟ ان أبسط قواعد العدالة تضع المتهم على قدم المساواة مع البرىء حتى تثبت ادانته ، فأية ادانة يلصقها بعرابى أولئك الذين عابوا عليه دخول الوزارة ؟

انهم اذ يتهمونه بالسعى لصالحه هو لا يعدون بذلك حد التهمة ، فله على أسوأ الفروض موضع البرىء من العدالة حتى تثبت ادانته ، وما أيسر أن تكال التهم لاى فرد من الناس فى غير حساب ، وما أصعب البينة على الذين يفترون الكذب وهم يعلمون ...

ان الذين يرون فى الحكم مغنما لهم ، انما هم أولئك المفرطون فى حقوق أوطانهم الموالون للدخلاء فيها ، والمستضعفون من الرجال ، والذين فى قلوبهم مرض ، والمفترون بأوهام الحياة والمالئون بطونهم كما تأكل الانعام ، أما أولو النخوة والعزة من الرجال فلن تلهيهم عن دوافع أنفسهم الحياة الدنيا وزينتها ، ولن تطفىء الحمية فى قلوبهم مايحلى به الاغرار صدورهم من أوسمة ، أو تزدهى نفوسهم الكبيرة الالقاب والرتب ، أو يزيغ بريق الذهب أبصارهم عن الحق ، لان هذه جميعا عندهم مظاهر وهم يحتقرون كل مظهر اذ يطلبون الجوهر . ومن كان فى هذه الدنيا كبيرا بنفسه فما به حاجة الى أن يتكبر ، ومن تكبر وهو بنفسه صغير ، فلم يعد أن أضاف الى حقارة نفسه ما هو أحقر .

ولو كان عرابى من ذوى الاطماع الشخصية لرأيناه يتنكب طريق الجهاد ، ولرأينا الضعف يتسرب الى نفسه فتفتر حميته وتبوخ وطنيته . وما ضعف عرابى وما استكان حتى منى بما منى به من محنة يوم التل الكبير لا بأيدى الآثمين الطامعين من الاجانب فحسب بل بأيدى الخوانين المارقين من بنى الوطن ، وظل حتى هزيمته الرجل الذى يخشى جانبه وتتقى غضبته ، ولقد رأينا كيف أرسل اليه مالت يحاول أن يهدىء خاطره عقب المذكرة المشتركة ، ولو أنه كان ممن يشترون بالمال لامكن شراؤه كما اشترى بعد ذلك سلطان مثلا الذى

كان يتظاهر بأنه من أكبر أنصار الحركة القومية ، ولكن عرابيا كان مؤمنا بجهاده مخلصا لقضيتـــه فارتضى أن يخوض غمار الموت وأن ينفى بعد ذلك من الوطن وأن يسلب جميع ما ملك .

ورفض عرابى أن يكون وليا لذوى الغايات والاطماع، جاء فى مذكراته عن نوبار باشا قوله : « أرســل الينا أحمـــد قبودان البكرى من موظفى بوغاز الاسكندرية ليشكرنا على انقاذ الوطن من ظلم الظالمين وجور المستبدين ويعرض علينا أنه مستعد لان يقود حركتنا الوطنيـــة بصائب رأيه اذا دعوناه الى رئاســة الحكومة واعتمدنا عليه وسلمنا امورنا اليه ، فعجبنا لذلك ، وأجبناه بأن مبدأنا هو أن تكون مصر للمصريين ، وللنزلاء عندنا حسن الضيافة ومزيد الاكرام . وانا لا نجهــل الادوار التى لعبها نوبار باشا فى مسألة تغيير قواعد فرمان الوراثة الخديوية ، وفى مسألة تشكيل المجالس المختلطة فى مصر، تلك المجالس التى صرف عليها ١٢ مليونا من الجنيهات من أموال المصريين المساكين على يده وبســعيه ، وكان هو أكبر مساعد للمستبدين وله الحظ الاوفر من تلك الغنائم » .

ويذكر كذلك عن البارودى أمرا خطيرا قال : « وفى أوائل شهر يناير سنة ١٨٨١ خلوت بالمغفور له محمود باشا سامى ناظر الجهادية فأطنب فى الثناء على لقيامي بنشر راية الحرية فى مصر وملحقاتها من بعد مضى خمسة آلاف سنة على المصريين وهم يرسفون فى قيود الاستبداد والاستعباد ، ثم أقسم انه مستعد لان يضحى حيـــاته ويجود بآخر نقطة من دمه فى تنفيـــذ رغبتى ، ويجرد حسامه وينادى باسمى خديويا لمصر اذا رغبت فى ذلك ، فقلت له : مه يامحمود باشا فانى لاأريد الا تحرير بلادى

ولا أرى سبيلا لنوالنا ذلك الا بالمحافظة على الخديو كما صرحت بذلك مرارا وتكرارا ، وليس لى مطمع أصلا فى الاستئثار بالمنافع الشخصية ، ولا أريد انتقال الاريكة الخديوية الى عائلة أخرى لما فى ذلك من الضرر » .

ولقـــد كان عرابى كبير النفس كبير الآمال ، فكان المنصب عنده وسيلة من وسائل الجهـــاد ، وبابا من أبوابه ، فما يعيبه أن يقبل الحكم، وانما يعيبه أن يعرض عن الحكم وبخاصة فى مثل تلك الشدة التى ساق فيها الطامعون البلاد على غير ارادتها ، والذى يعـــد قبول الحكم فيها تأهبا للذود عن ثورة الحق على الباطل...

***

على أن الناس ما كانوا ينظرون الى عرابى نظرتهم الى وزير من الوزراء فحسب ، بل لقد كانوا ينظرون اليه نظرتهم الى الرجل الذى تعلق عليه الآمال فيما كانت البلاد مقبلة عليه ، وكانت تقوم نظرتهم اليه على ما بلوا بأنفسهم من اخلاصه ، وما شهدوا من بسالته وحميته وبخاصة فى يوم عابدين المشهود ، وعلى ذلك فما زاده المنصب فى أعين الناس ما يطلبه غيره ليزداد به من مظاهر الجاه ، وأى شرف يطمع فيه الرجل أعظم من أن يكون فى بنى قومه معقد الرجاء وموضع الثقة .. ؟

ولقد كان عرابى فى الوزارة اذا أردنا الحق أكثر من وزير ، فكانت الكلمة كلمته وكان الرأى رأيه أراد ذلك أو لم يرده ، ونقول أراده أو لم يرده لانه بات فى الزعماء رجلا ليس لاحدهم مثل ما له فى قلوب الناس من مكانة وسحر... وهل كان سعد فى كرسى الرئاسة كغيره من رؤساء الوزارات ، ليس لشخصــه من تأثير فى قلوب الناس الا ما تبعثه هيبة المنصب ورهبته ؟ أم كان سعد فى الناس رجلا غير ما ألفوا ، تحف به هالة من أمجاده

فتخلق له شخصية وسطا بين الملائكة والنـاس ؟ وهل ازداد سعد بالمنصب شيئا فى أعين الناس أم أن المنصب هو الذى ازداد به علوا ومهابة ؟

على هذا القياس صور لنفسك شخصية عرابى بين قومه يومئذ فلقد صار له من المكانة بعد يوم عابدين مثل ماصار لسعد من بعد فى قومه ، فهو الرجل الذى تتمثل فى شخصه ثورة أمة ويجتمع فيه تاريخ حركة ، لذلك فهو بين الناس أكبر من ان يكون أحدهم ، تحيط به هالة من السحر تلقى فى روع محدثه أنه تلقاء تاريخ يحدث اثره لا تلقاء رجل يعيش كما يعيش الناس ...

***

أما الفلاحون وأعيان البلاد ممن كانت تقاس أقدار الرجال عندهم بالالقاب والمناصب ، فقد كبر عرابى فى أعينهم وازداد قدرا فى انفسهم ، وأصبح هـذا الفلاح الباشا الذى يجلس على كرسى وزارة الجهادية موضع أحاديثهم كلما تذاكروا فيما بينهم أحداث البـلاد فى ذلك الوقت .

ولست أريد بقولى ان الرأى كان رأيه أنه كان يستبد بالامر ، أو كان يأخذ السبيل على البارودى فيما يريد من قول أو عمل ، وانما أريد أن البارودى وغيره من الزعماء ما كانوا يخطون خطوة الا على بينـة مما يكون فيها مما عسى أن يرضى عرابيا أو يغضبه لانه بينهم ، وان لم تكن له الرئاسة الرسمية ، الزعيم الذى تشايعه البلاد ، والذى استقر فى أذهان أهلها وقلوبهم أنه موضع الامل ومناط الرجاء ...

وقد بدأ عرابى باشا عمله فى الوزارة بارسال مكتوب الى جميع وحدات الجيش يعلن اليهم نبأ تعيينه فقال :
« حيث أن مسند نظارتى الجهادية والبحرية الجليلتين

قد أحيـل الى عهدتنا من طرف الجناب الخديو المعظم ، بارادة سنية موشحة بتاريخ ١٥ ربيع الاول سنة ١٢٩٩ نمرة ١١ فاعتفادى ووثوقى بمسـاعدة حضرتكم وعموم حضرات الضباط والصف الضباط والعساكر فى القيام بواجبات هذه النظارة مع الاستمرار فى سيرها على المحور اللائق ، الموافق لنـص أحكام القوانين العسكرية ، قد جرانى على قبول هذا المسند الجليل حالة كونى عالما بما أنتم عليه من وثوق حضرة الجناب الخديوى بنا ، ولهذا لزم تحريره لحضرتكم اخطارا بما ذكر واعلان كافة الضباط والصف وعساكر الآلاى ادارة حضرتكم وفقنا الله جميعا لما فيه النجاح والاصلاح » ...

***

واخذ عرابى يقوم بتنفيذ القوانين الخاصة باصلاحات العسكرية التى كان يطالب بها رياضا وشريفا من قبل ، وتناول بالترقية كثيرا من المصريين فى الجيش وقد حظى بالباشوية كل من على فهمى وعبد العال حلمى وطلبه عصمت وعلى الروبى وحسن مظهر ويعقوب سامى ...

وقد تألم العنصر الشركسى لهذه الترقيات ، وعدها زعماء الشراكسة صورة من صور الفوضى والتعصب فى الوزارة ، كأن النظام كل النظام أن يرقى الشراكسة ، وأما أن يرقى المصريون الفلاحون فذلك هو التعصب المذموم وهو الفوضى الجامحة .

ولن يقتصر هؤلاء الشراكسة على الصخب والعيب ، بل سوف يعملون على الانتقـام ، كأنما كان المصريون يسلبونهم حقا من حقوقهم ، ونسى هؤلاء أو تناسوا ما كان يفعل رفقى من قبل ...

واتجه عرابى الى اصلاح شأن وزارته فبث فيها النشاط والجدة . قال روثستين : «وقد جد عرابى بنوع

خاص فى اصـــلاح نظارته التى كانت فى منتهى الفوضى والخراب ، وذلك ليســـتعد للطوارىء كلها فأظهـر همة فائقة فى اصلاح حصون السواحل ، ونظم احتيـــاطى المدفعية ووزعه على تلك الحصون » .

***

وأحسن عرابى فى منصبه الجديد الظهور بمظهر الوزير فى غير صلف أو ادعاء . وصفه بلنت حين زاره بعد أزمة المذكرة يحمل اليه نبأ وساطته لدى جلادستون قال : « قفلت راجعا الى القاهرة فى سرور وقد تسلحت بما علمتـــه من حسن نية جلادستون واستطعت أن أخبر عرابيا أننى لم أؤكد له عواطفى نحوه عبثا ، وقد وجدته فى ديوان وزارة الحربية يحيط به أصـــدقاؤه ، وكان يتحدث مع بطريرك الاقباط ، ومع طائفة من أهل الملق من الاوربيين وأجناس شرقى البحر الابيض المتوســـط ممن جاءوا يحيون هذه الشمس المشرقة ، وقد ظهر فيهم الوزير الجديد فى حســـن سمت وسمو كانا به لائقين ، فلم يلبث بعد ذلك الجندى قائد الفرقة ، ولكنه أضحى رجلا تمتلىء مشاعره بالمسؤولية العامة ، وكان لايزال بعد فلاحا ولا يزال وطنيا ولكن فى صورة الرجل السياسى ، وقد انتحى بى جانبا فأطلعتـــه على كتاب جلادستون وقلبناه بيننا فى سرور وعددناه رسالة ذات فأل طيب » ...

وطنية لا نزق

حل البارودى محل شريف وفى البلاد ما فيها من أثر تلك المذكرة التى جاءت فى تلك الظروف التى بينا دليلا على سوء تدبير واضعيها وعلى قصر نظرهم ورعونتهم ، ولكن ما لنا نشير الى قصر نظر الدولتين فيما فعلتـــا ونحن لايتداخلنا شك فى أنهما كانتا ترياناعاقبة فعلهما ، وانهما انما أرادتا اثارة الخواطر وزيادة أسباب الخلاف بين الخديو وزعماء البلاد المدنيين منهم والعسكريين ، فبهذا يتيسر لهما الوصول الى الغرض المرسوم ...

وكان طبيعيا أن يسير البـــارودى على نهج غير الذى ســـار عليه شريف ، فهو بحكم مركزه بين الزعمـــاء العسكريين ، وبحكم الظروف التى أدت الى اســـتقالة شريف ، لم يكن لبستطيع أن يحمل نفسه على الهوادة والملاينة ، والا ففيم كان احراج شريف ثم اخراجه من الحكم ؟.. والامر قبل كل شىء أمر كرامة الوطن تلقاء تحدى الاجانب وتحرشهم السخيف الآثم بحريته ...

ومن ذلك يتبين لنا أن البارودى لم يكن له منتدح عن السياسة التى جرى عليها ، وأن مردها فى الحق الى مسلك الدولتين وعلى ذلك فمن الظلم أن نرجع باللوم كله على تلك الوزارة فيما أبدت من تطرف ، فان جانبا كبيرا من اللوم ، بل لعل اللوم كله يقع على الذين دفعوا

الوزارة بقبح تدبيرهم وسوء نيتهم فى تلك الطريق التى ما لبثت أن رأت نفسها فيه تخرج من أزمة لتدخل فى أزمة غيرها ...

وهكذا تدفع الدولتان البلاد فى طريق الثورة دفعا ثم تتهمانها مع ذلك بالفوضى وتجعلان من مبررات تدخلهما القضاء على الفتن والقلاقل الداخلية وانها لمن صنعهما.. ولن يكون فى صور الظلم أبلغ وأوجع من أن يضرب مضعوف فوق رأسه فاذا تأوه ونفر من ألم الضرب عد تأوهه جموحا ونفوره ثورة !..

كان على وزارة البارودى من بادىء الامر أن تواجه أزمة الميزانية ، وقد نجمت هذه الازمة كما رأينا من تجنى الدولتين على البلاد ومن غضب نواب الشعب لكرامة بلادهم واستمساكهم بحقهم تلقاء باطل أعدائهم ، وكان من الطبيعى أن تعمل وزارة البارودى ، أحد الزعماء العسكريين ، والتى كان عرابى نفسه أحد وزرائها ، على تحقيق آمال البلاد ، بل لقد كان أمرا حتميا على هذه الوزارة أن تفعل ما كانت مقدمة على فعله ، فعلى هذا الاساس كان قيامها بالحكم ...

وما أسخف كلام المطلين وأرذله تلقاء هذه الحقيقة التى تنهض الحوادث دليلا عليها ! أجل ما ارذل أن ترمى وزارة البارودى بالنزق والعناد والرغبة فى اثارة الفتنة ، كالذى يأخذ على شخص طريقه فى غير مبرر فاذا طلب اليه أن يخلى سبيله انتهره وتوعده ، فاذا خطا خطوة ليتقدم رماه بالشطط والجنون وخوفه عاقبة أمره !..

لقد قامت وزارة البارودى على ارادة الامة ، لامراء فى ذلك ، فان النواب حينما أظهروا لشريف أسفهم أن يكون المجيب لمطالبهم رجلا غيره ، وحينما ذهبوا الى الخديو يشكون اليه حالهم كانوا معبرين فى ذلك عن

مشيئة الامة ، وآية ذلك أن الخديو لما سألهم بأى حق يطلبون اقالة شريف قالوا : هذه ارادة الامة .

ولم يسع الخديو الا أن يذعن ، ولكن على طريقته فى الاذعان ريثما تسنح الفرصة ، فدعا شريفا والقنصلين الاجنبيين وعرض عليهما الامر ، فلم يكن أمام شريف غير الاستقالة ، ثم ان الخديو سأل زعماء النواب عمن يرضون لرئاسة الوزارة ، فبعد أن بينوا له ان ذلك من حقه اختاروا البارودي واشترطوا أن يكون قيام وزارته على أساس اجابة مطالب النواب (١) .

ولقد أضاف الخديو الى أخطائه خطأ جديدا بقبوله هذا الوضع ، فمن حقه وحده اختيار رئيس وزرائه ولكنه خطا حتى هذه الخطوة باشارة القنصلين ، فلقد أوهماه ان فى هذا خيرا له ، فبه يخلو من التبعة ويلقيها على عاتق النواب والزعماء .. ولكنهما كانا فى الواقع يريدان أن يوسعا مسافة الخلاف بين الخديو ونواب البلاد ، ومن السهل عليهما أن يوحيا اليه على لسان أعوانهما بعد ذلك أنه أصبح وليس له من الامر شيء .

على أن مالت وكلفن وأشياعهما ما لبثوا أن راحوا يذيعون المفتريات فى مصر وفى أوربا عن الوزارة ويرمونها بكل أباطيل الاتهام ، فهى وزارة عسكرية لاتعرف سياسة أو تنظر فى عاقبة أمر من الامور ، وانما قوام أعمالها العنف والثورة ، وهى وزارة لا تحسب لاى سلطة غيرها حسابا فليس للخديو وجود فعلى بازائها ، وليس للأجانب على ما لهم من ديون فى مصر حق أو شبه حق الى غير ذلك من اللغو والافك ...

أما عن عرابى فقد خرج بأوفر نصيب من التهم

(١) مقدمة كتاب « التاريخ السرى » ترجمة البلاغ ، والمقدمة بقلم الاستاذ عبد القادر حمزة .

الباطلة ، ومن هذه التهم مانسبته اليه جريدة التيمس من أنه تهدد شريفا ، وأنه شهر سيفه فى وجه سلطان وهدده بتيتيم أطفاله فى صدد الخلاف على مسألة لائحة المجلس ، ولقد كان مالت من مروجي هذه الاشاعة ومن المتمسكين بها ، بل لقد ذهب مالت الى أكثر من هذا فأثبت فى يومياته كذلك أن الخديو ما قبل استقالة شريف الا تحت تأثير تهديد لا يقل عن هذا ...

ويذكر بلنت انه يرجح أن الخديو هو مصدر هذه الفرية لما كان يبدو منه يومئذ من بالغ الحقد على الوزارة ، وقد أصبح لهذه الفرية خطرها حين أرسل مراسل روتر الىأوربا يزعم ضغط العسكريينعلىشريف

قال بلنت : « ومع ما يبدو من سخف هذه القصة فقد غضب منها سلطان غضبا شديدا ، ولما كنت يومئذ معروفا لدى النواب بأنىصديقهم طلب الى سلطان لقاءه وسألنى أن احمل الى مالت انكاره القصة كلها انكارا تاما ، وعلى ذلك توجهت الى بيت سلطان باشا حيث جمع عددا كبيرا من النواب ومن علية القوم ومن بين هؤلاء المفتى الاكبر العباسى وعبد السلام المويلحى بك وأحمد السيوفى بك وأحمد محمود أفندى وهمامحمادى أفندى وشديد بطرس احد كبار نواب الاقباط وقد انكر هؤلاء جميعا مع سلطان أنهم عملوا تحت أى اكراه ، وتكلم سلطان فى غضب عن سخف القصة فيما يتصل به قائلا : ان أحمد عرابى بمثابة ابن لى ، وهو يعرف ما هو من حقي وما هو من حقه ، فمكانى فى البرلمان ومكانه فى وزارة الحربية وجدير به أن يطلب نصحى لا أن يجرؤ على ان ينصحنى فيما يعنينى من الإمور، وأما عن شهره السيف فى حضورى فانه لا يفعل ذلك الا تلقاء عدو يهاجمنى ، وهذه قصص لايصدقها من يعرفنا كلينا

وانها لباطلة كل البطلان وتستطيع أن تأخذ على اليقين ان اقل عضو هنا ممن يمثلون الشعب أحسن حكما على مطالبه من أكبر جندي . اننا نحترم عرابيا لاننا نعرفه وطنيا ورجلا ذا فطنة سياسية لا لانه جندى .

وقد أثبت كلمات سلطان باشا هذه فى حينها ، وقد اشتكى الى هذا الشيخ من سياسة مالت وتعضيـــده مخترعى الاباطيل وطلب منى أن أطلعه على الحقائق وأن أبرقها الى جلادستون واذيعها فى الصحف الاوربية وقد فعلت ذلك على خير ما يدخل فى وسعى ، فارسلت نصا كاملا منها الى « التيمس » ومع ذلك فانها على ما أذكر لم تنشره لسبب ما ، وكذلك أرسلت تلغرافا بالمعنى نفسه الى مستر جلادستون ، ثم كتبت اليه كتابا مطولا أشرح فيه الموقف كله .

وذهبت من فورى الى مالت وناقشته فى شدة ولكنه اصر على صدق قصته التى استقاها كما أخبرنى أول الامر من سلطان نفسه والتى عاد يقول انه استمدها ممن يمكن الاعتماد عليه ، ولما الححت عليه أن أعرف من هو المصدر غضب وقال انه ليس لى من حق أن أستجوبه على هذه الصورة » .

هذا هو كلام بلنت عن هــذه الفرية ، وما أجمل ما وصف به سلطان عرابيا فهو لايحترمه لانه جندى ولكنه يوقره لوطنيته ولمقدرته السياسية ، ومثل هذا الكلام لا يصدر عن مثل سلطان عن خوف أو تملق ، فقد كان أكبر من أن يخاف أو يتملق ، وهو بطبعه شديد الكبر كثير المباهاة بجاهه والاعتزاز بثروته بل ان صدور هذا الكلام عن رجل هذه صفاته انما يزيد فى قيمته ويجعل منه وثيقة خطيرة ندعو الذين يجهلون حقيقة عرابى الى قراءتها فى روية وحسن طوية ...

ويذكر بلنت أن التيمس لم تنشر تكذيبه لسبب ما ، والامر واضح لايحتاج الى طويل شرح ، فالتيـــمس وأمثالها من الصحف الانجليزية تخدم قضية الاستعمار أبدا ، وهى خير من يدرك نيات الساسة فى بلدها وأول من يطلع على حقائق الامور ، فلم تكن تجهل يومئذ ماكانت تبيته انجلترا لقضيـــة الاحرار فى مصر ، بل وما كانت تنتويه السياسة الانجليزية العليا من الاستيلاء على مصر قبل أن تستولى عليها ، ولذلك فما كانت لتنشر رأيا مثل هذا الرأى يأتى على لسان رجل مثل بلنت فيكون به من الانجليز شاهدا من أنفسهم عليهم ...

***

فى مثل هـــذا الجو الذى كدرته دسائس المــاكرين والطامعين ، راحت وزارة البارودى تعالج ماكانت تشكو منه البلاد ، ومن ورائها نواب الامة يشدون أزرها وانهم ليعلمون ما كان يحيط بوطنهم من الـكيد والاعنات .

وأحس البارودى من أول الامر بتزايد الجفاء بينـــه وبين الخديو ، فما كان ليسيغ توفيق أن يصبح الامر بينه وبين الوزارة قائما على غير ما ألف من مبـــادىء السيطرة ونوازع الاستبداد ، ولكن الوزارة استعاضت عن معونة الخديو بمؤازرة البلاد ...

وكان أول ما واجهته الوزارة تلك المشكلة التى خلقها الكائدون وهى مسألة الميزانية ، أو بعبارة أخرى لائحة المجلس التى استقال بسببها شريف أو أجبر فى الحق على الاستقالة ...

ويجمل بنا أن نأتى بالحديث على سرده فى هذه المسألة لنتبين الى أى مدى كان افتيات الدولتين على البلاد ، وليرى الذين رموا حركتها الوطنيـــة ورجلها بمختلف التهم مبلغ ما فى مزاعمهم من جهل أو عدوان ...

جاء فى خطاب شريف باشا الذى تقدم به الى المجلس بعد انعقاده قوله : « فانه لم يحجر عليكم فى شىء ما ، ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم ، انما لا يخفاكم الحالة المالية التى كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الاجنبية بها ، ونشأ عن ذلك تكليفها بترتيب مصالح ، وتعهــدها بالتزامات ليست خافية عليكم ، بعضها بعقود خصوصيــة ، والبعض بقــانون التصفية ، فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الامور موضعا لنظرها أو نظر النواب ؟ حاشا لانه يجب علينــا قبل كل شىء القيام بتعهداتنا وعدم خدشها بشىء ما ، حتى نصلح خللنا ، وتزداد ثقة العموم بنا ، ونكتسب أمنية الحكومات الاجنبية ، ومتى رأت منا تلك الحكومات الكفاءة لتنفيذ تعهداتنا بحسن اخلاص بدون مســاعدتها فنتخلص شيئا فشيئا مما نحن فيه ! »

بهذه الـكلمة مهد شريف لخطته فيما يتعلق بلائحة المجلس ، أو ما نسميه دستوره وبخاصة فيما يتصل بالميزانية ثم جاءت اللائحة تحرم على المجلس النظر فى الميزانية ...

ولقد كان المجلس يطمع فى أن ينظر فى الميزانية ما دام هو القيم على حقوق البلاد ولكن الحكمة قضت عليه أن يتواضع فيقبل كما اسلفنا النظر فى نحو نصف الميزانية وهو القدر الباقى بعــد الجزية وما يقتضـــيه قانون التصفية ، ففعل ذلك ولكنه لم يفد وا أسفاه من حكمته شيئا ، فقد كبر على الدولتين أن ينظر المجلس حتى فى هذا القدر فرمتاه بالمذكرة المشئومة التى كان من نتائجها ما رأينا من تطرف المعتدلين وثورة المتطرفين والتقاؤهما جميعا ، وتمسكهم بالنظر فى الميزانيــة مهما يكن من

العواقب ، الامر الذى أطاح بوزارة شريف واحل محلها وزارة البارودى ...

وجاءت وزارة البـــارودى فلم يكن أمامها الا طريق واحد ، هو السير وفق رغبة النواب والرأى الوطنى العام فى البلاد ، فخطت هذه الخطوة معتمدة على حقها مستندة الى مؤازرة الامة اياها ، فكان ما قررته فى مسألة الميزانية ما يأتى : « لايجوز للمجلس أن ينظر فى دفعيات الويركو المقرر للآستانة أو الدين العمومى أو فيما التزمت به الحكومة فى أمر الدين بنـــاء على لائحة التصفيـــة أو المعاهدات التى حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية»

« وترســل الميزانيـــة الى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها ، بمراعاة البند السابق ، ويعين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأى لاعضاء مجلس النظار ورئيسه ، لينظروا جميعا فى الميزانية ويقرروها بالاتفاق أو بالاكثرية »

ووافق المجلس على اللائحة الجديدة التى تقدمت بها اليه وزارة البارودى ، وكان هــذا الرأى الاخير أعنى تكوين لجنة من أعضاء المجلس مساوية فى العدد لاعضاء مجلس النظار قد عرض كحل من الحلول على وزارة شريف ، فأبت الدولتان قبوله ، فلمـــا قضت وزارة البارودى فى الامر حسب مشيئة النواب ، ثارت ثائرة الدولتين اللتين جاءتا لنشر روح المدنيـــة والحرية فى الشرق ...

ولقد جعلت الوزارة الامر للأمة فيما اذا وقع خلاف بين المجلس والوزارة ، فنص فى دســـتور المجلس أو لائحته الاساسية ما يأتى : « اذا حدث خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار ، واصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة فللحضرة

الخديوية أن تأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط الا تتجاوز الفترة ثلاثة أشهر من تاريخ يوم الانفضاض الى يوم الاجتماع ، ويجوز لارباب الانتخاب ان ينتخبوا نفس النواب السالفين او بعضهم »

« واذا صدق المجلس الثانى على راى المجلس الاول الذى ترتب الخلاف عليه ينفذ الرأى المذكور قطعيا »

وقد فرح النواب ، وفرح الناس جميعا من وطنيين وعسكريين لصدور اللائحة أو الدستور ، وأخذت مصر تستقبل عهـــدا دســـتوريا كان يعد بداية طيبة جدا للديمقراطية فى مصر ، بل وفى الشرق كله ...

ويتجلى فرح مصر فى تلك الحفلات التى أقيمت غداة صدور الدستور ، ومنها حفلة جمعية المقاصد الخيرية وكانت بالغة الروعة والجلال وقد شهدها البارودى ، وعرابى ، وجمهور كبير من العلماء والاعيان ، ورجال الجيش ، وتبارى الخطباء وفى مقدمتهم السيد عبد الله نديم فى بيان مزايا الدستور واعلان ابتهاج النفوس به ، والشيخ محمد عبده الذى دعا الى نشر التعليم ليقوم الدستور على أساس سليم قوى .

ومن تلك الحفلات حفلتا نائبى البحيرة الشيخ أحمد محمود وابراهيم افندى الوكيل ثم حفلة احمد بك أباظة وحفلة أحمد بك يكن وغيرهم ، وتدل هذه الحفلات دلالة بينـــة على أن روح الحرية والدستور كانت متغلغلة فى نفوس مثقفى الامة ، وأن البلاد كانت تنهض فيها حركة قوميـــة حرة لو أنها حدثت فى بلد غير مصر لم يرزأ بالاحتلال لكان لها فى سجل الحركات القومية العالمية شأن جليل ، وما يضيرنا اليوم ما فعل الاحتلال بتاريخنا القومى ، وقد خطونا خطوات لن يكون بعدها نكوص...

رأينا الحل الذى عالجت به وزارة البارودى مشكلة

الميزانية ، ذلك الحل الذى من اجله حقت عليها لعنة الدولتين ، وحق عليها عقابهما ، مع أنه لايمكن أن يكون هناك تساهل فى مثل هذا الامر وفى مثل هاتيك الظروف أكثر من هذا التساهل الذى جرت عليه الوزارة ...

هؤلاء نواب شعب يجتمعون باسمه للنظر فى صالحه ، فكيف يتسنى لهم ذلك ان لم يكونوا قوامين على ماليته وهى أساس كل شىء ودعامة كل اصلاح ؟ وكيف يكون الحكم قائما على أساس ديمقراطى اذا حيل بين نواب الامة وبين النظر فى الاموال التى تجبى من أفرادها ؟

واذا كانت لمصر ظروف خاصة ناشئة من ديونها التى لم يكن لاهلها يد فيهـا ، فأى شىء كان يطمع فيه من نوابها أكثر من أن يتركوا ما يتعلق بالدين دون تدخل فيه ؟..

ولكن الدولتين كانتا تحاربان المجلس فحسب مهما بلغ من اعتداله وحكمته ، كانتا تحاربانه فتحاربان فيه الوطنية المصرية ، لانها ان ازدادت قوة ضاعت الفرصة وخرجت مصر سالمة مماكان يدبر لها ، أنظر الى الاحتجاج الذى كتبه المراقبان الاجنبيان فى ١٢ يناير سنة ١٨٨٢ عندما علما بنية النواب فى وزارة شريف قالا (١) « يظهر أن مجلس شورى النواب يتهيأ لان يطلب حق تقرير الميزانية ، ولهذا نرى من واجبنا أن نقول : ان اعطاء النواب هذا الحق ولو اقتصر على الادارات والمصـالح التي تخصص ايراداتها للدين يفسد الضمانات المعطـاة للدائنين ، لانه سيكون من نتائجه الضرورية أن تنتقل ادارة البلاد من يد مجلس النظار الى يد مجلس النواب »

ولا تسل عن مبلغ غضب هؤلاء الطامعين الكائدين لمصر

(١) تعريب الاستاذ عبد القادر حمزة عن كتاب دى فرسـنيه « المسألة المصرية »

ـمى وزارة البـارودى حينما حلت المشكلة على النحو المتواضع الذى بيناه ، فلقد انطلقت ألسنة الساسة منهم مع السن السفهاء من مراسلى الصحف بكل فاحشـة وجارحة فى الوزارة والنواب جميعا على نحو خليق بأن تخجل منه الانسانية ، فهذا نظام موضوع بأسره تحت سيطرة جيش ثائر كما صوره كلفن فى تقاريره ، وهذه وزارة جامحة تسوق مصر الى الخراب ، وهؤلاء نواب لايعرفون من معانى الوطنية الا التعصب الاعمى فضلا عن جهلهم وضيق عقولهم ...

كتب مالت يصف النواب قائلا (١) « ان ما يتظاهرون به من طموح الى العدل والحرية قد انتهى بأن حلت سلطة الجيش الفاشمة محل كل سلطة مشروعة » .

وقال كوكسن يصف قانون الانتخاب الذى وضعته الوزارة السامية : « ان الفرض منه فى هـذا البلد أن تكون كل المزايا الانتخابية لمن رشحتهم السلطة الحاكمة الآن وهى سلطة الجيش » .

وليس بعجيب ان يبلغ حنق هؤلاء على الحركة الوطنية القومية هذا المبلغ ، ذكر الشيخ محمد عبده فى مذكرات متتابعة مرقمة أثبتها فى ورقة لعله كان يجمع فيها عناصر فصل يكتبه وأوردها بنصـها مترجمه الشيخ رشـيد رضا (٢) . . قال الاستاذ الامام : « مجلس النواب قرر تعيين لجنتين للتحقيق فى بعض الشكاوى التى رفعت على مصلحة المسـاحة وعلى ادارة الجمارك وظهرت وجوه الخلل فى أعمال الموظفين الاوربيين ، وتحقق ماكان يخشاه المراقبون من مقاصد المجلس ، وقد رفض مسيو كاليار

---

(١) المسألة المصرية لروتستين

(٢) تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده الجزء الاول . ص ٢٤٠

مدير الجمارك ان يحضر جلسات التحقيق وعارض فى أعماله » ...

« وقف المجلس على تقرير قدم للمراقبين من أحـد موظفى الدومين المسمى «روفسل» يطلب فيه مراقبة المجلس حيث أعطى الفلاحين آمالا فى أن يصلوا بالطفرة الى ما يقال من حريتهم ، واشتكى من ان المدير لايحبس فى الحال من يطلب منه حبسهم لتوقفهم عن العمل ، ومن أن كل شخص يحبس بغير أمر قضـائى يرسـل بالتلغراف الى نائبه ، وعلى ذلك يسأل المدير عن السبب فى الحبس ، وهذا تظاهر من الاهالى بالاحوال الجديدة التى يبنون عليها حريتهم وخلاصهم » ...

وأوعز مالت الى وكلائه فى الاقاليم أن يكتبوا تقارير عن مبلغ ما وصلت اليه الحال من سـوء فى البـلاد ، وأرسل هذه التقارير الى حكومته ، وبلغ من الجرأة على الحق ، بل بلغ من صفاقة أحد هؤلاء الطامعين أن كتب يندد بالغاء الكرباج فقـال : وما أعجب وما أسـخف ماقال (١) « انالحاكم الشرقى اذا حرم كرباجه ، وحظر عليه أن يسجن من يشاء عجز عن سياسة قوم اعتادوا منذ القدم ان يخضعوا لحكومة فردية قوية ، ان الطريق الذى سارت فيه الحركة منذ عام ، جعل الفلاح يعتقد أنه يستطيع الوصول طفرة الى ما يسمونه له حرية . فى حين أن ما اكتسبته هـذه الحركة من قوة جديدة باسلام أزمة الامور الى طائفة من الخياليين النظريين ، جعل أثرها فى السلطة على وجه العموم أثر الماء تصبه على قطعة من السكر » .

هذا ما قاله ذلك الانجليزى الذى تفتخر دولته بأنها سبقت الدول الى الحرية ، والتى ما فتئت منذ عهـد

(١) المسألة المصرية لروشستين

كرومر فى مصر تفاخر بأن معتمـدها هو الذى ابطـل الـكرباج فى هذه البلاد !

وانا لنسأل الدين يقرأون هذه المفتريات وأشباهها ، والدين تتبعوا أساليب انجلترا وفرنسا فى الكيد لمصر ، نسأل هؤلاء السادة الدين يعلمون هـذا ، ومع ذلك يعيبون على عرابى وزملائه تطرفهم ، أكانوا يفعلون غير ما فعل عرابى وأصحابه اذا كانوا يحبون أوطانهم حقا ، وكانوا يعيشون فى مصر فى تلك الايام ؟

أما الذين كانوا يجهلون هـذه الدسائس التى تبثها انجلترا فى مصر ، وحملوا لجهلهم بها على عرابى ماحملوا مجاراة منهم لما اشيع عنه ، فحسبنا أن نريهم حقيقة الامر ونكل المسألة بعد هذا الى فطنتهم وضمائرهم .

وما ندافع عن عرابى الا لاننا نعتقد أنه ظلم ، وان الدين ظلموه هم أعداء البلاد الذين استباحوا ذمارها والحقوا بها الذل والهوان ...

وما يجدر بمصرى وبلاده فقيرة فقرها هذا فى الابطال أن يشايع الدين حاولوا أن يطمسوا بالباطل تاريخ رجل كانت البطولة فى مقدمة صفاته ، فيصفون وطنيته ووطنية أصحابه بأنها نزق وفوضى ...

ولقد جعل الكائدون لمصر الجيش هدفهم فيما راحوا يشيعونه من مفتريات ، أنظر الى قول مالت فى تقرير له عن « تزايد اختلال الامن فى البلاد لقلة اكتراث الاهالى بأولياء الامور الملكيين ، ويعزى ذلك الى سلوك رجال الحزب العسكرى الدين لا يعاملون زملاءهم الملكيين بالاحترام الضرورى لادارة البلاد ، وقد أخذت الرشوة تعود الى سابق عهدها بين الموظفين ، ومما يساعد على انتشارها كثرة التغيير والتبديل فى كبار الموظفين » .

ثم يقول فى وصف مازعمه من ضيق وقع فيه الفلاحون

فى سبيل الحصول على المال « ويعزو الملاك قلة رؤوس الاموال وما هم فيه من الضيق الى سياسة الحكومة الحاضرة التى لا تبعث على الثقة بها ، ويجهرون بأنهم اذا عجزوا عن دفع الضرائب فالتبعة واقعة على الوزارة »

وليس بعجيب أن يسلك كلفن ومالت وأشياعهما هذا المسلك فى الطعن على الوزارة ، وقد أدركا ماكانت تنويه حكومتهما من العمل على تمهيد السبيل المتدخل المسلح بعد هذا التدخل السياسى ...

ولقد كانت تلك المذكرة المشئومة خطوة واسعة نحو هذا الغرض المرسوم ، فكان لابد أن تتفاقم الحوادث بسببها لتصل بالبلاد الى كارثة الاحتلال ...

كتب قنصل فرنسا الى حكومته يوم ٢٩ يناير يقول : « ان الرغبة البادية على مجلس النواب من جانب ، فى ان يصير برلمانا ، والخطة القوية التى رأت الدولتان من جانب آخر ، أن تختاراها ، والتى كانت مذكرة ٧ يناير تعبيرا عنها هما السببان الجوهريان اللذان اصطدم كل منهما بالآخر فأوجدا الموقف الحالى »

وكتب كذلك يقول : « يمكن أن يقال ان الانقلاب الذى أحدثه مجلس النواب المصرى هو جواب منه على مذكرة ٧ يناير فلقد أعلنا فى هذه المذكرة أننا نحتفظ بالنظام الحالى ضد الجميع ، فأجاب المجلس على ذلك بأن غير هذا النظام تغييرا جوهريا وبذلك وضعنا أنفسنا فى موضع صارت الضرورة قاضية علينا فيه بأن نتدخل أو نعدل سياستنا » .

وهذا الذى ذكره ذلك القنصل يصور الحال تصويرا صادقا ، وما كان موقف الدولتين يخفى على أحد من الوطنيين ، وعلى ذلك يقضى الانصاف على الذين يحكمون على أعمال رجال ذلك العهد وفى مقدمتهم عرابى أن

يضعوا فى أذهانهم قبل كل شيء أطماع هؤلاء الساسة ، وأن يصوروا تلك الاعمال على هذا الاساس ...

***

مضت الوزارة فى سبيلها غير عابئة بصراخ أعدائها لا تتخاذل من دون غايتها ولا تستبعد الشقة ، وذلك على الرغم من أنها كانت لا تجاوز عقبة الا قامت فى سبيلها عقبات

ولقد قبع الخديو فى زوايا العزلة ، وجعل الخوانون الغدارون بينه وبين وزرائه حجابا من الاباطيل التى أحكموا نسجها ...

والواقع أن الخديو لم يكن على شيء مما كان يجب أن يتصف به من يضطلع بأعباء الحكم فى مثل هاتيك الظروف فلقد كان مستطار القلب حائر اللب مما يجرى حوله ، فهو لا يسيغ الحركة الوطنية ولا يستطيع أن يصالح عليها طبعه ، وهو مستريب فى نيات الحكومة العثمانية نحوه ونحو عرشه ، وهو فزع مما يشاع من دسائس الامير عبد الحليم ، بل ودسائس أبيه ومساعيه فى مصر والآستانة على يد اعوانه ، ثم هو فضلا عن هذا كله قد بات تحت سيطرة الاجانب وبخاصة الانجليز منهم فما يقطع أمرا حتى يوافقوا عليه ، بل لا يخطو خطوة حتى يرى رأيهم فيها ...

ومن كان هذا شأنه فى موقف كهذا الموقف الدقيق الذى كانت تفقه مصر من أعدائها يومئذ كان مثله مثل الراعى أحاطت الضوارى بقطيعه فما يرجو أكثر من أن ينجو هو بنفسه ولو هلك القطيع جميعا ...

وكانت الدولتان كما سلف القول تراوغ كلتاهما الاخرى ، وتغافلها بغية الظفر بالفريسة وحدها ، وهذه هى حقيقة السياسة الخارجية التى لا تفهم تلك السياسة على وجهها الحق دون الانتباه اليها .

وحسبنا أن نذكر فى هذا الصدد ما كتبه ريناخ أحد أصدقاء جمبتا عن سياسة الدولتين قال (١) « ان الرأى العام فى انجلترا قد وقع تحت تاثير بعض رجال حزب الشورى الذين اعتقدوا أن خير ما يعمل هو استعجال الحوادث جهد الطاقة أملا فى ايجاد فرصة لدخول وادى النيل دون فرنسا »

حسبنا تلك العبارة التى حاول كرومر أن يفندها ، فلم يستطع أن يأتى بدليل او شبه دليل على صحة رأيه وما ملك غير أن ينفى ، وما كان مجرد النفى مما ينهض دليلا يؤخذ به فى أمر من الامور ...

وكان جمبتا من أشد أعداء مصر ، بل من اشد أعداء الاسلام قاطبة ، وكان هـذا اليهودى على صلة برجال المال من الدائنين ، وكان يحيط به فى باريس ريفرزولسون ونوبار يوحيان اليه بما يريان ، وكان بطبعه ممن يميلون الى اللجوء الى القوة فى كل ما يتعلق بالشرق والشرقيين

وكان هـذا الوزير كما بينا يحاول أن يدفع انجلترا لتأخذ بسياسته ، ولكن جرانفل راح يراوغه مظهرا له أن خيرهما فى أن يتفقا ، وفى الوقت نفسه كان يحذره عاقبة التدخل المسلح فى شؤون مصر سواء أكان ذلك من جانب احدى الدولتين أم من جانبيهما معا لان ذلك العمل كان من شأنه أن يجر فى أعقابه كثيرا من المشاكل

ولقد رأينـا مبلغ تشدده فى وجوب ارسال المذكرة المشتركة ، ثم أصراره بعد ذلك على عدم تخفيف وقعها بأى وجه من الوجوه ، ولقـد كانت كل من الدولتـين تحرص على الا تنفرد فتنكشف ، لذلك كانت تجارى احداهما الاخرى وانها لمستكرهة اشد الاستكراه وأقبحه

---

(١) Modern Egypt, Cromer.

وكانت انجلترا تأخذ نفسها بالصبر حتى تحين الفرصة فتقتنصها ...

على أن جمبتا لم يلبث فى الحكم طويلا فسقطت وزارته فى أول فبراير سنة ١٨٨٢ أى قبل تأليف وزارة البارودى بخمسة أيام وحل محله فى الوزارة دى فرسنيه ، وكان هذا من أول الامر يرى فى المسألة المصرية ما لايتفق وسياسة جمبتا ...

ولكن الامور كانت قد تحرجت فى مصر بما فعل جمبتا ، وفقدت العناصر الوطنية فى البلاد كل ثقة فى الدولتين جميعا حتى أصبح من أصعب الامور التفاهم على السياسة العامة ...

***

لقد ارتخص هؤلاء الساسة من دعاة المدنية الناقمين على أهل الشرق ماكانوا فيه من تأخر كل كرامة ابتغاء الوصول الى أغراضهم ، وانقلبت عندهم الاوضاع التى تعارف الناس عليها ، فلقد عز على هؤلاء السادة الذين راحوا يدلون بمدنيتهم ويتطاولون بما فعلوا فى سبيل حرية الانسان أن يروا أهل مصر ينزعون حقا الى الحرية، ويعملون على الرقي بوطنهم جادين غير متوانين، يتعاونون على الحق ويتناسون ما بينهم من دواعى الخلاف ويطرحون الاثرة ويحرمون على أنفسهم الطيبات ليتم لهم ما أرادوا ...

وذعر هؤلاء الكائدون لمصر الطامعون فيها أن أفاق أهلها على هذا النحو ، وقد كانوا يظنونهم أمواتا أو كالاموات ، وهالهم ان يروا فريقا من هؤلاء الفلاحين يستلبون سلطة الخديو شيئا فشيئا ، ويحاولون أن يضعوا أنفسهم بحيث تكون الامة وهم نائبون عنها مصدر كل سلطان ...

وأدركوا أن هذا البعث الذى أفاقت عليه مصر من نومها الطويل هو الصبح الذى يهتك أسدالهم ويبدد آمالهم ، فما ونوا يوما كما بينا عن محاربة مصر وزعماء مصر ورميهم بكل فاحشة ، وفى مقدمة هؤلاء جميعا ذلك الرجل الذى خطا نحو الحرية الخطوة الاولى وصرخ فى وجه الظلم الصرخة الاولى ...

ولم ير هؤلاء لوزارة البارودى حسنة واحدة ، ولكن هذه الوزارة كانت لا تعبأ بما يرجف المبطلون ، فمشت الى غايتها على الشوك وقد عقد أعضاؤها النية على انقاذ بلادهم من طمع الطامعين وكيد الكائدين ، وعلى تعهدها بضروب الاصلاح فى شتى مرافقها حتى تقوى فتعز على كل باغ ظلوم من خصومها ...

وما كان فى الوزارة من عوامل الضعف سوى جهل رئيسها وأعضائها باللغات الاوربية ، الا وزير الخارجية مصطفى فهمى باشا ، وقد ضم الى الوزارة ليكون لسانها فى الصلة بالاوربيين ، ولكنه كان من رجال العهد القديم على حد قول مؤرخى الثورة الفرنسية ، فلم يكن ينظر الى الوطنيين نظرة الاحترام والتوقير ، وانما كان يرى فيهم فريقا من الفلاحين يتطلعون الى ما ليسوا أهلا له ، شأنه فى ذلك شأن الشراكسة وأشباههم من سادات مصر وكبرائها فى ذلك العهد... وعلى ذلك فقد كان وجود هذا الرجل فى وزارة الخارجية عبئا يضاف الى أعباء الوزارة وذلك أمر لم تفطن اليه الا بعد فوات الوقت ...

وفيما عدا ذلك كانت وزارة البارودى وزارة وطنية حقا تعمل صادقة مؤمنة على تحقيق آمال البلاد والنهوض بها على الرغم مما كان يحيط بها من دسائس وما كان يملأ أسماع رجالها من نباح وعواء

انتهى دور انعقاد مجلس النواب فى السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٨٢ فقضى بذلك فى العمل نحو ثلاثة اشهر ، وهى مدة قصيرة كان يشغل الاعضاء فيها ترتيب أعمالهم ، ولكن المجلس على الرغم من ذلك قد قسم اعضاءه الى لجان مختلفة اخذت تتصل بالوزارات وتبحث معها ما يهم البلاد من الشؤون العامة ...

جد المجلس فى دراسة نصوص المعاهدات والتعاقدات العامة والخاصة المبرمة بين الحكومة المصرية والحكومات الاجنبية ورعاياها ...

واخذت الوزارات تعد مشروعات الاصلاح المختلفة لعرضها على المجلس فى دور انعقاده القادم ، فكانت تنظر فيما يتطلبه النهوض بالتعليم ، وتفكر فى انشاء مصرف زراعى ينتشل الفلاحين من وهدتهم ، وتعمل على اصلاح المحاكم المختلطة واختصاصاتها ، كما تناولت قانون الانتخاب بالدراسة لتعد قانونا جديدا يجعل للمحكومين الرقابة الفعلية على الحاكمين ... وقد أشرنا الى ما أبدى عرابى من همة فى اصلاح شؤون وزارته وبث روح النهوض فيها ...

ولكن الوزارة كانت كما تقدمت خطوة فى اصلاحها ازدادت لهجة الصحف الاوربية فى العيب عليها والطعن فيها ، واشتدت وطأة الساسة فى نقد أعمالها ، ونشطت دسائسهم من حولها وكان على رأس هؤلاء كلفن ومالت اللذان أدركا الآن — أو على الاصح وجها — الى أن مهمتهما فى مصر أصبحت استعجال الحوادث تمهيدا للتدخل العسكرى ...

***

والحقيقة التى لايمارى فيها الا المغرضون المبطلون أن البلاد كانت تشيع فيها روح الوطنية الصادقة التى

تبرهن على صدقها بالاعمال لا بالاقوال ، ولو أنه قدر للوزارة السامية أن تسير على هـذا النهج لكان أثرها بعيدا فى تاريخ مصر ، بل وفى تاريخ القرن التاسع عشر كله ، فلقد كانت تعد المسألة المصرية من كبريات المسائل فى ذلك القرن ...

وليس أبلغ فى الدلالة على وجود الوطنية العاملة فى مصر مما نهض به أعضاء مجلس الشورى من جليل الاعمال فى تلك المدة القصيرة التى عقد فيها جلساته « فان أعمالهم فى المجلس ومناقشاتهم تدل على مستوى ممتاز فى الكفاية والغيرة الوطنيـة ، وسـداد الرأى ، فقـد طرقوا فى مقترحاتهم ومناقشاتهم كل أبواب الاصلاح الذى تحتاج اليه البلاد فى التعليم والقضاء والرى والزراعة والمـالية والاقتصـاد والادارة والمواصـلات ، وكانت خطبـهم ومناقشاتهم وجيزة واضحة المعنى ، بعيدة عن التطويل الممل والعبارات الجوفاء ، وكانت لهم نظرات صادقة فى كثير من الشئون وآراء صائبة تدل على سـلامة المنطق والالمـام بالنظـام النيـابى وحسن الاحاطة بالشـئون الحيوية ، اعتبر لهم ذلك فى مناقشتهم الخاصة بانتخاب الوكيلين والاغلبية المطلقة والاغلبية النسبية ، وبحثهم فى علاج الخلل الذى كان موضـع شكوى الجمهور فى مصلحة المساحة ، ومناقشتهم فى علاج غلاء الاسـعار وتضخم المعاشات واستعجال اصلاح القضاء ، ومقترحاتهم فى نظام الرى . وتأمل فى الاقتراح الخاص بمشروع خزان أسوان وملاحظاتهم السديدة على مشروع قانون امتيازات العرب ومناقشاتهم فى مشروع تعميم التعليم ، تجد أنهم على قصر المدة التى اجتمع فيها المجلس قد بذلوا أقصى ما أمكنهم من الجهد لاداء واجبهم ، وبدت منهم رغبة صادقة فى أن يتابعوا البحث والدرس فى فترة عطـلة

المجلس ، وبرهنوا على أريحيتهم بما تعاهدوا عليه من أن ينشىء كل نائب مدرسة فى بلده على نفقته . فبرهنوا على روح طيبة فى تقرير العلم والبذل فى سبيل الصالح العام (١) » .

***

وكذلك نستدل على وجود الروح الوطنية فى مصر يومئذ بهاتين العبارتين اللتين نوردهما وندعو القارىء أن يتدبر فيهما .

اما أولاهما فهى ماكتبه دى فريسنيه فى كتابه «المسألة المصرية » حيث يقول معلقا على مجلس النواب واختصاصاته : « ان كتاب ذلك العصر اجتهدوا فى أن يسخروا من طلب الذين كانوا يطلبون توسيع اختصاص المجلس ، حتى ليخيل الى الذى يقرا خطابات بعض الخطباء أن الوطنية المصرية كانت فى ذلك الوقت تلفيقا ، وأن وادى النيل لم يكن يحتوى الا على فلاحين تحنى العصا ظهورهم . فكل ما نرد به على هؤلاء الكتاب والخطباء ، هو أن آباءنا كانوا أقل من هذا امتهانا للوطنية المصرية فى عهدهم ، وذلك أن نوابنا فى سنة ١٨٤٠ لم يترددوا فى أن يتكلموا فى خطبهم عن الرعاية الواجبة للوطنية المصرية الناشئة . فقد كانت هناك اذن وطنية مصرية ناشئة تستحق الرعاية فى سنة ١٨٤٠ ،

ولست فى هذا مبالغا ولا أنا ممن يحبون المبالغة ، ولكن لاريب فى أنه كانت توجد فى قلوب المصريين من أربعين سنة مضت مطامح كان من المكن أن تراعى فى حدود معتدلة . تلك حقيقة لا تحتمل جدلا . غير أن الذين كانوا يقبضون على حظ مصر لم يكونوا يرون من المصريين

---

(١) الثورة العرابية للاستاذ عبد الرحمن الرافعى .

غير قوم مدينين ، فلم يكونوا يعرفون فى معاملتهم الا مصلحة واحدة ، هى مصلحة الدائنين الاوربيين التى يجب أن تقدم على ما عداها . وبذلك لم ينتبهوا الى أن مثابرتهم على اعتبار مصر رهنا ، وتدخلهم فى شؤونها تدخلا أدى بحكومتها الى أن تصير فى أيدى الاجانب كانا قد انتهيا على طول الايام بأن يجرحا شعور الشعب المصرى الذى هو شعب حى مهما يقل القائلون فى تعوده الطاعة والخضوع من اجيال » .

***

وأما ثانية العبارتين فهى ما كتبه من باريس سنت هيلير الى قنصل فرنسا العام فى مصر فى السابع من أكتوبر سنة ١٨٨١ قال : « ليس من السهل علينا أن نقرر من هنا قوة هذه المطامح الشرعية ولا كيف يمكن ارضاؤها ، ولكن هذه المطامح حقيقية الى أعظم حد ، ومبررة من بعض الوجوه الى أعظم حد أيضا ، فلا يمكن اهمالها ولا يمكن على الخصوص التفكير فى خنقها » (١)

ليتدبر القارىء فى هاتين العبارتين ، وليتدبر فيهما كذلك من يريد أن يحكم على رجال ذلك العهد وفى مقدمتهم عرابى ، وليشفق على أنفسهم الذين يرمون عرابيا ورجاله بالفوضى والجهل والانانية ، ليشفق هؤلاء على أنفسهم فلن يجدر بهم أن يظلوا يجهلون تاريخ هذا الرجل فيحملون الذين يعلمون حقيقة هذا التاريخ على الاستخفاف بهم والزراية عليهم ، فليس أدعى الى الاستخفاف بعقل رجل من أن تراه يجهل أمرا من الامور ثم اذا هو يدلى فيه برأى قاطع فى لهجة يتردد فى اتباعها الراسخون فى العلم ...

(١) العبارتان من تعريب الاستاذ عبد القادر حمزة .

ونضيف الى هاتين العبارتين قول كرومر : « ليس هناك ريب فى أن حركة عرابى كانت من بعض الوجوه حركة قومية . وليس من شك كذلك فى أنه لو ترك عرابى وأتباعه فى القيام على الشئون من غير مراقبة ، فان حالة من أشد حالات الاضطراب كانت تنشأ فى مصر ، وان تدخلا أجنبيا مسلحا من نوع ما كان يصبح ضرورة من الضرورات » .

***

وغنى عن البيان ما تكشف عنه عبارته الاخيرة مما يريد به أن يمحو أثر اعترافه بقومية حركة عرابى ، فهذا المؤرخ الانجليزى الذى كان من أكبر أساطين الاحتلال لايستطيع الا أن يمحو بشماله ما أثبته بيمينه ...

ما كان عرابى طائشا ولا داعية فوضى ، ولكن كان زعيما مخلصا يعمل بوحى من وطنيته ويصيب ويخطىء كما يصيب الزعماء غيره ويخطئون كل على قدر ما اجتمع له من الكفاية والمقدرة ! ..

والخطأ والصواب من خصائص البشر ، ومردهما الى العقل وسعته أو ضيقه ، أما الصدق والاخلاص وما اليهما من صفات الزعامة والبطولة فلا تسامح فيها ولا تهاون ، بل لايصح أن تكون هذه أمورا يجوز فيها التفاوت اذا عقدت المقارنة بين زعيم وزعيم وبين بطل وبطل ! وكيف يجوز فى عقل أن يكون هناك صدق ونصف صدق واخلاص ونصف اخلاص ؟ ان هذه أمور جلالها وجمالها بل وجوهرها فى أن تكون غير قابلة لزيادة أو نقص ، وعلى الذين لايزالون يخاصمون عرابيا أن يأتوا بدليل واحد على كذبه أو مروقه ، أما الخطأ والصواب فليقولوا فيهما ما يشاءون ، وليس ما نعنى به خطأ عرابى أو صوابه فليخطىء عرابى أو فليصب ، ولكن

لو أنه كما زعم خصومه كان مدعيا أو مداجيا ولو فى موقف واحد من مواقف حياته السياسية ما استطعنا أن نكتب عنه كلمة واحدة ...

ومع ذلك فبيننا وبين خصوم هـذا الرجل حوادث هذه الثورة الوطنية على قدر ما علمنا من أمرها وهى كفيلة بأن ترينا مبلغ ما فى مزاعمهم هم من خطأ ...

أماني الصالح

لم يكن جهد أحمد عرابى منحصرا فى المطالبة بالدستور، بل كانت تنطوى نفسه على كثير من الامانى التى يتوق الى أن يراها حقائق ماثلة أمامه .

كانت تخالج نفسه منذ صلته بسعيد باشا رغبات فى الاصلاح مبعثها تعصبه لقوميته ذلك التعصب المحمود الذى انبعث فى نفسه مما كان يراه من حرمان بنى قومه فى وطنهم من كل ما يشعرهم بالعزة والكرامة ، بينما يتمتع بالسيادة أجلاف من الشراكسة ، لم يكن لهم من حق فى هذه البلاد الا أنهم بقية هؤلاء المماليك الذين اشتروا أول أمرهم كما تشترى السلع فى الاسواق !

وكان يفطن هذا الجندى الثائر أو هذا الوطنى الصادق العقيدة الى أن الاصلاح المنشود ، ينبغى أن يأتى من الاعماق فيبدأ بهؤلاء الفلاحين الذين هم عصب القومية المصرية ، فمتى صلح حال هؤلاء واستشعروا فى وطنهم الكرامة والعزة ، قامت القومية المصرية على أساس وطيد ، ومضت مصر قدما فى طريق الرقى والمجد ، وعزت على الطامعين والكائدين ...

وكانت أمانى هذا الرجل تظهر فى خطبه التى يلقيها فى شتى المناسبات ، فكان كثير الاشارة الى القضاء على الاستبداد والعناية بالعلم والمعرفة ، ولكن شيئا أشبه

بخطة موضوعة يتبين فى حديث له مع صديقه الانجليزى مستر بلنت ، ونحب أن يتدبر من يحبون عرابيا ، ومن لايزالون يكرهونه فى هــذا الحديث ، ففيه جانب من شخصية هذا الرجل الذى مسخ البهتـــان والعدوان شخصيته ، وما كان الانجليز لعمر الحق يرضون أن يكون عرابى داعية اصلاح وزعيم قومية ، ويكونون هم من قضوا عليه تحقيقا لمآربهم الاستعمارية ثم يدعون مع ذلك انهم جاءوا لاصلاح مصر والقضاء فيها على عوامل الفوضى... لذلك عملوا على انكار كل معنى من معانى الجد والنهوض فى تاريخه ، وتعمدوا أن ينظروا اليه نظرة الرجل المدل بحكمته وتجربته الى الطفل الــذى يدعى لنفسه ما ليس له ، ومن أدلة ذلك أن الجهـل والغرور فى مقدمة الصفات التى ينعته بها كتاب الاحتلال وانهم ليعلمون بينهم وبين انفسهم ان همة هذا الرجل وجراته وما كان يبتغى لقومه من ضروب الاصلاح جديرة بأن تجعل منه زعيما انجبته مصر ، كما تنجب الامم الزعماء ، وان تلك الصفات فى أحمـد عرابى المصرى الفلاح لن تختلف فى جوهرها عما يعزى من صفات الى أبطال الوطنية والقومية فى غير مصر من أمم الارض .

قال بلنت بعد كلام طويل جاء فى صدد شرائه حديقة الشيخ عبيـد بين المرج والمطرية ، ولنعد الى زيارتى التوديعية لعرابى قبل سفرى . ففى هـذه المناسبة تناولنا بالحديث جميع المسائل التى كانت تدور فيهـا المناقشات وقتئذ بين رجال الحركة القومية والتى كانت تتضمن خططهم فى سبيل الاصلاح وآمالهم ومخاوفهم فى الداخل والخارج .

وان الاسابيع القليلة التى قضاها عرابى فى منصبـه السامى قد اكسبته نضجا وقوت عزيمته ، فتناول معى

الامور بكل ما يمكن من سداد فى الفكر ولغة الحوار .

ولقـــد أكد لى تأكيدا وثيقا أنه وأصحابه الــوزراء يتطلعون أكبر التـــطلع الى تفاهم ودى مع الحكومة الانجليزية على كافة المسائل القائمة بينهم وبين وكلائها فى القاهرة . على انه اشتكى فى شدة من مالت وكلفن فان صنعهما الاخير والدور الذى أخذاه فى معركة تشويه الحركة الوطنية فى الصحف البريطانية يدلان على عداوتهما ... ثم قال عرابى : انه لن يقوم سلام فى القاهرة طالما انه ليس لدينا غير هذين نتعامل واياهما لاننا نعلم أنهما يدبران لنا السوء فى السر وان لم يبد ذلك فى العلن ، وسوف ننأى بجانبنا عنهما كليهما ، ولكن ليس معنى ذلك أننا لهذا نريد أن نخاصم انجلترا ، فليرسل الينا مستر جلادستون من يشاء غيرهما لنتعامل معه ونحن نتلقاه مرحبين بأذرع مبسوطة .

وتكلم عرابى كلاما طويلا عن الاصـــلاحات التى كان يفكر فيها محمود سامى والوزراء ، تلك الاصلاحات التى وضع معظمها فى ثبت الحسنات التى أسداها الاحتلال البريطانى الى مصر والتى ادعاها اللورد كرومر لنفسه. ومن أمثلة تلك الاصلاحات ابطال السخرة التى أنزلها الاغنياء من الباشاوات الترك بالفلاحين وابطال احتكار هؤلاء الاغنياء مياه الرى عند زيادة النيل ، ثم حمـــاية الفلاحين من زبانية الربا من اليونانيين الذين وضعوهم بين براثنهم معتمدين على عيوب المحاكم المختلطة ، وتناول التفكير فى الاصلاح حتى ذلك العلاج الاخير لهذه النكبة الزراعية ، ذلك العلاج الذى طالما جعله اللورد كرومر من مفاخره بوجه خاص ، الا وهو انشاء مصرف زراعى تحت اشراف الحكومة ...

وتكلم عرابى فيما تكلم فيه من المسائل عن اصـــلاح

العدالة التي تطرق اليها الفساد فى صورة سخيفة ، وعن تعليم الرجال ، بل وتعليم النساء كذلك ، وعن طريقة الانتخاب التى تنتقى للبرلمان الجديد ، وعن مشكلة الرق ...

وقد تكلم طويلا عن هذه المشكلة الاخيرة ، وذلك لان الموظفين الاوربيين فى الادارة المختصة بالقضاء على الرق، قد بدأوا كما بدا غيرهم من الموظفين الاجانب يبدون مخاوفهم من أن النظام الاقتصادى الجديد للحكومة الوطنية سوف يؤدى الى انقاص رواتبهم ، ولذلك عمدوا الى ادعائهم أن نهضة الاسلام سوف تفضى الى انتعاش تجارة الرقيق ، وأظهر لى عرابى مبلغ ما فى ذلك الكلام من ضعف الحجة قائلا : ان الذين لايزالون يمتلكون الرقيق فى مصر أو الذين يريدون امتلاك الرقيق انما هم أمراء الاسرة الخديوية وأغنياء الباشاوات ، أولئك الذين توجه ضد مظالمهم حركتنا القائمة ، حركة الفلاحين القومية ، وانه حسب مبادىء الحرية الجديدة سوف يكون الناس جميعا منذ الآن سواسية لا فرق بينهم بسبب الجنس أو اللون او الدين ، وان انتعاش تجارة الرقيق لهو آخر شيء يمكن أن يتمشى مع هذه المبادىء ...

وتناول آخر الامر ما يتصل بضرورة الاستعداد الحربى لما يتوقع من حرب ، ذلك الامر الذى كان يعنيه بصفة خاصة لانه جندى ولانه وزير الحرب ، وقد تحدث عن هذا فى بساطة ونشاط ...

قال : ان الحكومة القومية سوف لا تضع السلاح أو تغفل عما يجب من الحذر حتى تتوطد دعائم النظام الدستورى وتعترف به أوربا ، وأعرب عن أمله الا يتجاوز المخصصات الحربية التى اتفق عليها مع كلفن ،

والا يضطر أن يزيد عدد المجندين عن الثمانية عشر ألفا الذين تسمح بهم الفرمانات ، فاذا استمر تهديدهم بالتدخل المسلح فانهم سوف يتبعون الاسلوب البروسى القائم على فكرة قصر مدة الخدمة وبهذا يصلون الى ايجاد قوة كبيرة هى بمثابة جيش احتياطى تحت السلاح

وسألنى عرابى رأيى عن مبلغ امكان التصادم ، فقلت فى جلاء انه كما يتبين لى مما تفاخر به كلفن أمامى من نية العمل على وقوعه ، ومن لهجة الصحف التى وجهها لتتمشى مع ذلك ، فان الخطر حقيقى ، وان غرضى من ذهابى الى انجلترا هو أن أقضى على حملة الكذب التى بدأت ، بكل ما فى وسعى ، وسيكون ما أدعو اليه هناك هو السلام وخلوص النيات . ولكنى من جهة أخرى لست أنصح له الا بأن يظل على ثباته وعزمه ، فان خير وسائل السلام أن يستعد المرء للدفاع ، وان كبار أعداء مصر ليسوا بين صفوف رجال الحكومات كما هم بين صفوف رجال المال ، وان هؤلاء سوف يترددون طويلا قبل أن يحرضوا على هجوم مسلح اذا عرفوا أن ذلك يعرض مصالحهم فى مصر لخطر حرب طويلة الامد كثيرة النفقات ، وان أمة مسلحة قد عقدت العزم على الدفاع عن حقوقها لامة يصعب أن يبطش بها . وأذكر أنى اقتبست له أبياتا من بيرون تبدأ بقوله : « لا تثق فى طلب الحرية بالفرنجة » وقد وافق على ذلك الكلام موافقة قوية ، وأظن أن ذلك كان آخر ما دار بيننا من كلام ، وقد وعدته أنه اذا وصلت الامور الى أسوأ ما تصل اليه فسوف أعود لآخذ بنصيبى بين صفوفهم فى المعركة من أجل الاستقلال » .

وبعد ، فان نظرة فى هاتيك الامانى التى كانت تتمثل فى خاطر احمد عرابى ترينا بعد ما بين هذا الرجل فى

صورته الحقيقية وبينه فى صورته التى صورها المغرضون .

ثار هذا الرجل ثورته فاثبت فى سجل القومية المصرية يوما لايمحى هو يوم عابدين المشهود ، بل لقد أضاف أحمد عرابى بما صنع فى ذلك اليوم فصلا الى تاريخ الحرية فى هذا الوجود ...

وظفر أحمدعرابى بالدستور، ثم التفت بعد الدستور الى الاصلاح الاجتماعى فى ظل هذا الدستور ، ثم رأى الانجليز يتربصون به وبمصر فأخذ يعد العدة للمقاومة ، ولسوف يجد الجد فتجتمع فيه آمال أمة وتتمثل فيه بطولة شعب يطلب الكرامة ، ويرى التاريخ لاول مرة مصريين من صميم قرى مصر يخوضون الحرب فى سبيل مبادىء سامية .

فماذا كان يطلب منه أكثر من ذلك ليعترف له خصومه بالزعامة والبطولة ؟ اكل ذنبه عندهم انه هزم ؟ ألا ما أصدق قول القائل : « ولأم المخطىء الهبل » .

على أن الخيانة والخنوع من جانب فريق من المصريين كما سنرى من الحوادث هى التى سوف تودى به وبحركته ...

ولو أن عرابيا انتصر يوم التل الكبير ، أو لو أن الخديو كان فى صفه وكان المصريون جميعا من ورائه وواتاه الحظ فظفر برد الانجليز عن مصر ، أكان يجد بنو مصر فى تاريخهم رجلا قبله يستحق أن يقرنوه به ؟

الا ان خصوم هذا الرجل انما يخاصمونه لانهم يجهلونه فليقرأوا تاريخه فى غير تحيز وليطرحوا من نفوسهم ما بثه فيها الاحتلال ، ومن أضلهم عن الحق الاحتلال .

مراوغة وتربص

جدير بنا الا ننسى ما أسلفنا الاشارة اليه فى أكثر من موضع ، الا وهو موقف الدولتين احداهما من الاخرى موقف المراوغة والمداراة ، ذلك الـــــذى كان طرفاه أول الامر جمبتا وجرانفل .

ولقد تغير هذا الموقف تغيرا أساسيا من جهة فرنسا حينما حل دى فرسنيه فى الحكم محل جمبتا ، وذلك أن هذا الرجل قد انتهج فى المسألة المصرية نهجا جديدا ما لبث أن بينه لانجلترا حين ولى الحكم ...

وقد ألقيت الى فرسنيه مقاليد الحكم كما ذكرنا قبل أن يخلف البـــارودى شريفا بخمسة أيام ، فكتب الى الحكومة الانجليزية أنه لا يميل الى أى تدخل عسكرى فى مصر سواء أكان هـــذا التدخل من جانب انجلترا وفرنسا مجتمعتين ، أم من جانب كل منهما على حدة ، وانه كذلك يرفض كل الرفض أن يقر أى تدخـــل من جانب الباب العالى .

ولعل جرانفل قد رأى فى سياسة فرسنيه ما يسهل عليه الوصول الى غرضه ، مع ما قد يبدو لاول وهلة من أنها تؤدى الى عكس ذلك ، وذلك لانه يستطيع الآن أن يلزم دى فرسنيه بسياسته التى وضعها بنفسه ، بينما يتلمس هو الاسباب لتتدخل حكومته بمفردها ،

ولن يعدم أن يتخذ من الحوادث مبررا لتدخله فان لم يجد فما أيسر خلق الحوادث واستغلالها ... حتى اذا سنحت الفرصة أفلت من فرنسا وانقض على الفريسة وحده .

واذا بدا لتركيا أن تتدخل فلتستتر انجلترا خلف فرنسا ، لان فرنسا هى التى تعلن أنها تمانع فى تدخل الباب العالى ، وان انجلترا لتمانع اكثر مما تمانع فرنسا حتى لا تعود مصر الى حوزة السلطان فتضيع على انجلترا كل آمالها ولكنها تلقى هذه المانعة فى مهارة على عاتق فرنسا فتزداد نياتها خفاء ، وتزداد فى نفس الوقت قربا من غايتها .

وكان جمبتا يشير أبدا بالالتجاء الى القوة ضد الوطنيين فى مصر ، ومن هنا جاءت المذكرة المشتركة ، وكان يرى أن تتدخل الدولتان سريعا تدخلا عسكريا فى مصر ، ولكن جرانفل تباطأ وراح يبين له ما تنطوى عليه هذه السياسة من أخطار ، وانه ليخفى فى نفسه مايخفى ، ولقد جاء كلام جرانفل هذا الى جمبتا فى رسالة وصلته قبل سقوط وزارته بيوم واحد ، وجاء فى خاتمة هذه الرسالة قوله : « ان حكومة جلالة الملكة توافق على أن للدولتين مركزا خاصا فى مصر وذلك بناء على الاتفاقات الدولية وعلى الظروف القائمة ، وانها كذلك تعتقد أنه قد تنجم بعض المتاعب من دعوة عدة دول فى مسألة حكومية كهذه ، ولكن حكومة جلالة الملكة تكل الى الحكومة الفرنسية أن تنظر فيما اذا لم يكن الموقف يتطلب الاتصال بالدول الاخرى كخير وسيلة لتناول حالة من الحالات يتبين أنها ذات مساس بالفرمانات السلطانية وعلاقات مصر الدولية » .

وقد كانت السياسة الانجليزية تدور منذ حملة

بونابرت على مقاومة نفوذ فرنسا فى وادى النيل ، ثم الاستيلاء عليها متى أمكن ذلك وبخاصة بعد فتح قناة السويس ، دون مراعاة أى شيء فى سبيل الوصول الى هذا الفرض ...

واستفهم فرسنيه الحكومة الانجليزية ماذا أرادته بذلك الاحتياط الذى أبلغته جمبتا بعد موافقتها على المذكرة المشتركة ، فكان الجواب أن الحكومة البريطانية تحتفظ لنفسها بتعيين نوع العمل اذا لم يكن من العمل بد ، وفى تقرير وجوب العمل أو عدم وجوبه على وجه العموم ...

ثم أراد جرانفل أن يخفف من وقع هذا الكلام فى نفس فرسنيه فذكر أنه ليس فى مصر مايدعو الى القلق فان الوزارة الجديدة تجهر برغبتها فى المحافظة على تعهدات مصر الدولية ، واذا وقع ما يقتضى التدخل فان الحكومة الانجليزية تجعل أساس ذلك تضامن أوربا مع وجوب اشتراك السلطان فى كل خطوة وفى كل مفاوضة يؤدى اليها هذا التدخل .

وفى تلك الاثناء كان كلفن ومالت يحكمان دسائسهما فى البلاد ويباعدان بين الخديو ووزرائه ، ولا يتوانيان عن خلق الضرورة التى تقضى بالعمل ! ..

وكانت الحكومة الانجليزية التى تقف من فرنسا ذلك الموقف الذى أشرنا اليه تفكر فى ذلك الوقت فى اعداد حملتها على مصر ! ففى اليوم الخامس عشر من شهر مارس أى بعد استلام البارودى أزمة الحكم بأربعين يوما ، زار مستر بلنت السير جارنت ولسلى الذى سوف يكون أعما قريب قائد الحملة على مصر ، فدار بينهما الكلام عن هذا المشروع ، يقول مستر بلنت : « فى اليوم الخامس عشر من شهر مارس ذهبت لمقابلة سير جارنت

ولسلى وجرت بيني وبينه محاورة تستحق أن تذكر فى اهتمام ، فبعد حديث قصير عن قبرص اتجه الكلام الى مصر ، وما عسى أن يكون لدى القوميين من مقاومة اذا وقع تدخل، وسألنى رأيى فى ذلك ، فقلت انهم بالضرورة سيحاربون ، ولن يقتصر الامر على الجند ، بل سيشاركهم الناس جميعا ، وربما لجأوا بعد ذلك الى وسائل أخرى ، فرفض أن يصدق أن الجيش سوف ينهض لحرب ما ، فصممت على عكس ذلك وقلت له :

انهم اذا أرسلوه لقهر مصر فيجب عليه أن يسير فى ستين ألفا على الاقل ، وبهذا قد بالغت فى تصوير المسألة بلا ريب لانى أردت أن أجعلها صعبة ، بحيث أنه يجب على الحكومة أن تفكر مرتين قبل الاقدام عليها ، ثم أخبرنى من تلقاء نفسه أنهم شاوروه مرتين أو ثلاثا أثناء الشتاء فى احتلال عاجل ، وأكد لى مع ذلك أنه لا يحب التدخل

وأن القيام باحتلال مصر عمل لن يقابله الجيش بالاستحسان ، وانه هو نفسه سوف يؤسفه جدا أن يناط به هذا العمل ، وأعرب لى أنه خير لمصر كثيرا أن تسرح جيشها وتعتمد على حماية أوربا ، ولكنى أخبرته بأنى لا أستطيع أن أنصح للمصريين بذلك ، وان الامة التى تنوى الحرب نية صادقة قلما هاجمها عدو، فقال :

انه ليس هناك ما يسمى بالشرف فى الحرب ، وانه اذا كانت المسألة مسألة حرب فيجب ألا يثقوا بنا أكثر مما يثقوا بأية أمة أخرى ... ثم تكلم بعد ذلك عن الطرق الحربية المؤدية الى القاهرة كطريق بونابرت على الضفة اليسرى للنيل، ثم طريق الصحراء بوجه خاص بين ترعة السويس والدلتا ، ولقد شعرت أنه اذا ما أنزلت جنود انجليزية فى مصر فعلا فانها ستسير فى الطريق الثانى ، ولكنى كنت حريصا ألا أدلى اليه بما يكون فيه أقل فائدة

له من المعلومات ، ولم أبد الا الضحك عندما سألنى بين الجد والمزاح عما اذا كنت أرافقـــه لأدله على الطريق اذا ما بلغت الامور حدا ترسل معه حملة » .

ويكفى هذا الحديث وحده للدلالة على ما كانت تبينه انجلترا لمصر وما كانت تراوغ به فرنسا ...

وبينماكانت تدبر الدسائس لمصر فىالداخل والخارج، لم يكن للوزارة المصرية من وســائل الدعايه شيء ما ، فكان اعداؤها يتقولون عليها ما شاءوا وما شاءت لهم أطماعهم ، حتى لقد صور زعيم الحركه الوطنية فى مصر أحمد عرابى صورا بلغت أقصى حدود الغرابة ، فهو تارة رئيس عصـــابة من المتمردين الخارجين على القـــانون والنظام، وهو طورا داعية اسماعيل اشتراه بالمال ليعمل على اعادته الى مصر ، وهو بالاضافة الى هذا عند بعض الانجليز أسبانى أو فرنسى فى زى مصرى ، الى غير ذلك من الاقاويل التى لا ندرى أنقابلها بالالم أم بالسخرية !

وانطلقت الصحف تذيع فى الناس الاراجيف فى غير حياء أو فتور وليس لمصر لسان يدافع عنها الا بلنت ، فلقد سافر هذا الرجل الحر كيما يقابل كل من لهم صلة بالمسألة المصرية ليريهم وجه الحق فى هـــذه القضية ، وليصحح ما جاز على عقول بعض الساسة من خداع ، وليكاشـــف الذين يدعون أنهم لا يعلمون الحق بما يعلم هو من الحق لعلهم يرجعون اليه .

ولقد قابل جماعة من النواب ومن رجال المال ، ثم ما زال يسعى حتى ظفر بمقابلة جرانفل وزير الخارجية فتحدث اليه عما لديه من المعلومات ودافع عن قضيـــة الحرية فى مصر بكل ما فى طوقه من وسائل الدفاع ، ولكن شد ما كانت دهشته وألمه عند ما انطلق جرانفل نفسه يخبره أن لديه من المعلومات ما يؤيد عنـــده أن

عرابيا ان هو الا صنيعة اسماعيل وان المسألة من أولها الى آخرها ما هى الا سلسلة من الدسائس لارجاع الخديو السابق الى عرشه ! ..

وعول بلنت بعد ذلك على مقابلة جلادستون ، وقد كانت شهرته قائمة على أساس ميله الى الحرية ، والاخذ بيد الشرقيين جميعا لينهضوا من سباتهم ، فلما مثل بلنت بين يديه اندفع يتحدث عن الحركة الوطنية فى مصر فى حماسة وطلاقة ، وظل جلادستون صامتا ينصت اليه كأنه مقبل عليه مؤمن بما يقول يقدره حق قدره ، قال بلنت : « ثم سألنى عن الجيش المصرى ، وسبب ظهوره فى المسائل الوطنية ، فانه خشى عاقبة ذلك ، فأوضحت له تاريخ الحركة كلها واكدت له أن ما زعمه البعض عن تدخل الجند امر مبالغ فيه ، وأن ما أذيع من الانباء عن الجند وتوعدهم النواب ليست الا مفتريات ، وقلت : انه ليس هناك من سبب لما تبديه مصر من الاستعداد الا خوفها من الاعتداء والتدخل » .

ولكن ماذا كان ينتظر بلنت من جرانفل وجلادستون ، ولم تكن المسألة مسألة اقناع وحجة ؟ ماذا كان يأمل بلنت ولم تكن المسألة ماذا يجب أن يعمل ، وانما كانت متى ينفذ ما انعقدت النية عليه ؟ ..

وانى لاحس فيما قرأته مما كتبه بلنت عن مقابلته لجرانفل وجلادستون انهما كانا ينظران اليه نظرتهما الى غر لا يفهم ما يجب أن يتبعه الانجليزى فى معاملة الشعوب الشرقية ، أو الى ناشىء فى السياسة لا يدرى أن الكلام شىء والخطط المرسومة شىء آخر ...

ولقد علق كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » على مساعى بلنت فقال : « ومن هؤلاء الذين عطفوا على القضية نرى أبرزهم مستر ولفرد بلنت ، ولقد عاش

مستر بلنت زمنا بين المسلمين ، وكانت له لذة شديدة في كل شيء يتصل بهم وبدينهم ويظهر انه كان يعتقد في امكان احياء الاسلام على قواعده الاصلية ، وقد تصادف أنه كان في مصر في شتاء سنة ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، فالقى بنفسه بكل ما تبعثه الطبيعة الشاعرية من حماسة في جانب القضية العرابية وأصبح مرشدها وفيلسوفها ،

كما اصبح الصديق لعرابي واتباعه ، ورأى مستر بلنت انه كان يعني بحركة هي الى حد معين حركة قومية بلا نزاع ، وفشل في أن يفهم فهما كافيا تلك الحقيقة ، وهي ان سيادة الحزب العسكري كان فيها القضاء على العنصر القومي في الحركة . وكان في وقت ما يعمل وسيطا بين السير ادوارد مالت والقوميين .

ولكن هذا الاختيار لم يكن موفقا ، لانه يتبين بأجلى وضوح مما ذكره بلنت في كتابه عن مساعيه أنه فيما عدا بعض المعرفة باللغة العربية لم يكن على شيء من الصفات اللازمة لتحقيق النجاح في مسألة لها ما لهذه المسألة من دقة وصعوبة ، ولقد نصح للقوميين ان يعنوا بالجيش والا غالتهم أوربا وكان يعني النصيحة بلا ريب ، ولكنها كانت في غير وقتها كما كانت خبيثة ، فلئن كان ثمة من خطر من جهة الغزو الاوربي فان موطن هذا الخطر كان في انضمام الحزبين الوطني ، والعسكري ، أكثر مما كان في انفصالهما ، ولقد كان من السهل على السياسي المجرب أن يدرك هذا ، ولم يكن للمستر بلنت تجربة سياسية ذات قيمة وانما كان رجلا متحمسا يحلم بيوتوبيا عربية »

هذا ما يراه كرومر في بلنت ، وليس عجيبا ان يكون هذا رأي كرومر ، وهو من أساطين الاستعمار ، في رجل مثل بلنت كان بلا مراء من كبار الاحرار ، وانما

نورد رأى كرومر هذا لانه يكشف عن جانب من أساليب المستعمرين الانجليز فى محاولة طمس الحقائق فى سبيل الوصول الى ما يطمعون فيه من أغراض، وهو من ناحية أخرى يشف عما كان يمكن أن يقابل به مسعى رجل مثل بلنت فى دوننج ستريت ابان تلك الظروف التى نتحدث عنها ، ظروف مقاومة الوزارة الوطنية فى مصر ...

ولم يكن ينتظر أن يصيب بلنت غير الفشل ، وقد كانت وزارة جلادستون تتعجل الحوادث لتفلت من فرنسا وتنفرد بوضع يدها على مصر حتى تخلص من الموقف الحرج الذى وضعها فيه فرسنيه ؛ فلقد ذهب هذا الوزير فى تجنب العدوان على مصر الى حد انه كتب الى قنصل فرنسا فى القاهرة يأمره « أن يلزم خطة التحفظ والحذر ، وان كان ذلك لايمنعه من أن يحسن صلته بكل حكومة فى مصر تحترم الاتفاقات الدولية وتحافظ على النظام » .

ولقد زاد فرسنيه على هذا ان استدعى المسيو دى بلنيير العضو الفرنسى فى المراقبة لما كان يعلم من مسلكه نحو الحركة الوطنية فى مصر ، وباستدعاء دى بلنيير خلا الجو لكلفن ومالت فراحا ينفثان سمومهما ويتعجلان الحوادث فى غير اناة ولا استحياء .

ومضت انجلترا تتربص بمصر كما يتربص الوحش بالفريسة ، وبعد شهرين من سحب دى بلنيير وقع فى القاهرة ما عرف بحادث المؤامرة الشركسية .

وسيرى القارىء فيما يلى كيف استغل مالت وكلفن هذا الحادث العادى دون أى وازع من ضمير أو قانون أو عرف ، فلننظر ماذا كان من أمرهما وأمر الخديو فى هذا الحادث الذى لولا أطماع السياسة وتربص القوى بالضعيف ما كان ليثير شيئاً مما أثار من متاعب للوزارة ، وما كان ليلد ما ولد من أحداث ..

إعنات وإحراج

كان الانجليز فى مصر يعملون جهد طاقتهم لحساب دولتهم كما بينا ، حتى اذا حانت ساعة العمل لم يكن بينهم وبين فريستهم حائل .. ولقد ظلوا متربصين بمصر بعد أن نجحت وزارة البارودى فى حل مسألة الميزانية ، ينتظرون أن تواتيهم فرصة فيعملوا على تنفيذ ما بيتوا.

وأخيرا وقع فى مصر حادث مانظن فى تاريخ الاستعمار الاوربى كله أن استغل حادث كما استغل هذا الحادث فى قبح ما بعده قبح ، على بعد ما بينه وبين السياسة العامة للبلاد ، وذلك هو حادث المؤامرة الشركسية المشئوم ...

نمى الى عرابى وزملائه ان فريقا من الضباط الشراكسة يأتمرون به وأصحابه ليقتلوهم ، فكان ان قبضت عليهم الحكومة كما يقضى بذلك واجبها وساقتهم الى المحكمة فقضت فيهم قضاءها ...

وليس فى هذا الحادث ما يتصل بالسياسة العامة للبلاد بسبب من الاسباب ؛ وماكانت أية وزارة تستطيع أن تسلك فيه سبيلا غير ما سلكته وزارة البارودى ...

ولكن الطامعين المفترين ما لبثوا أن عادوا يملؤون الدنيا صياحا وتنديدا ، وتهديدا ووعيدا ، فقد واتتهم فرصة جديدة بعد أن أفلتت من أيديهم أزمة الميزانية .

ونسى هؤلاء كل شىء الا تحقيق أطمـاعهم من وراء هذا الحادث ، فكان من أقـوالهم وأفعالهم ما هـو خليق بأن يسمهم بميسم الخزى والعار ، بل ما هو خليق بأن يساق بين أقوى الادلة وانصعها على صحة مبدأ القائلين بأن‌هذه المدنية المزعومة قد أفسدت بنى‌الانسان فزادتهم قربا الى الحيوانية ، بقدر ما باعدت بينهم وبين ما يرجى للآدمية من سمو ...

والحق لقد دل مسلك دعاة المدنية الاوربية على مبلغ ما يمكن أن يصل اليه غدر الانسان بالانسان فى عصرنا هذا ، وما برح مثل عملهم هذا يوحى الى ذوى الاحلام من البشر أن الانسان لايزال هو الانسان ، وانه اذا كان ارتقى فى شىء ففى وسائل الكيد والبطش ، أما غرائزه الاولى غرائز السيطرة والانانية فما زالت بحيث لم يطرأ عليها أى تهذيب على الرغم مما يحلم به الخياليون من حماة الانسانية ...

وانا لا نجد فى بيان مدى ما بلغه هؤلاء الساسة من انحطاط خيرا من‌أن نعرض‌المسألة فى وضعها كما حدثت مكتفين بذلك عن كل تعليق عليها ، فما يمكن أن يبين‌كلام ما يقوم فى الذهن أو يعتلج فى أطواء النفس ، تلقاء هذا العدوان الشنيع ...

أراد الشراكسة المتذمرون من سـياسة عـرابى والمضللون منهم أن يقتلوه هو وأصحابه من كبار رجال الحركة الوطنية ، وقد نمى ذلك الى علم عرابى من طلبة باشا عصمت قائد اللواء الاول ، وهذا علمه من أحد المتآمرين وهو راشد أنور أفندى الذى خالف اخوانه فسارع الى افشاء سرهم ...

وفى اليوم الثانى عشر من شهر ابريل سنة ١٨٨٢ ، قبض‌على تسعة عشر ضابطا وسيقوا الى مجلس‌عسكرى

الف لمحاكمتهم بعد أن عرض الامر على الوزراء وعلى الخديو ، وقد جعلت رئاسة المجلس للفريق راشد باشا حسنى وهو شركسى ، وقد اختير كما ذكر عرابى فى مذكراته المخطوطة (١) لنزاهته وتقواه واعتداله ...

وبعد عشرة أيام بلغ عدد المقبوض عليهم ثمانية واربعين ، وكان من بينهم عثمان باشا رفقى نفسه «وقد اعترف احدهم وهو القائمقام يوسف بك نجاتى بالمؤامرة وأقر بأن راتب باشا هو مدبرها ، وانه أغرى الضباط الشراكسة بحضور عثمان باشا رفقى بقتل عرابى ، واعترف بعض الضباط المتهمين بما يؤيد اعتراف نجاتى بك » (٢) .

وقضى المجلس بادانة اربعين رجلا منهم رفقى، فحكم بتجريدهم جميعا من القابهم ونفيهم الى أعالى النيل الابيض فى ربوع السودان .. وعوقب بهذا العقاب اثنان من المدنيين مع حرمانهما من الحقوق المدنية ، واحيل خمسة على المحاكم الاهلية ، وعوقب راتب باشا المدبر للمؤامرة كما راى المجلس بالحرمان من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ومنع من العودة الى مصر واذا عاد فينفى من فوره ... وذكر المجلس ان الخديو اسماعيل هو الذى حرك المؤامرة ، واقترح ان ينظر مجلس الوزراء فى مرتباته ...

***

اختلفت الآراء فى بواعث هذه المؤامرة الشركسية ، ومن هذه الآراء ما ذكره بلنت حيث يعزوها الى الخديو

(١) تحت يدى نسخة من هذه المذكرات المخطوطة تفضل بعض ابنائه بامدادى بها ..

(٢) الثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعى ، وقد نقل ذلك عن جريدة الوطن عدد ٢٩ آبريل سنة ١٨٨٢

اسماعيل ، الذى وكل بها رجلا عرف بعداوته القاسية للحركة الوطنية ووجوهها يدعى راتب باشا ، وكان اسماعيل يطمع أن يصل بهذه المؤامرة الى العودة الى عرشه ابتغاء القضاء على القلاقل والفتن المزعومة التى عجز توفيق عن القضاء عليها كل العجز ، وكان يمنى نفسه بأن توافق انجلترا على ذلك فتقنع به تركيا أو تجبرها عليه ...

ويؤكد بلنت هذا الرأى قائلا : انه عرفه من جملة مصادر منها ابراهيم بك المويلحى سكرتير اسماعيل ، ولقد أيد الشيخ محمد عبده هذا الرأى فيما جاء بكتابه الى بلنت بعد سفره الى اوربا عن هذه المؤامرة قال : « أما فيما يتصل بالمؤامرة الشركسية على حياة عرابى باشا فليست بذات خطر حقيقى ، فان الخديو السابق اسماعيل أكبر عدو رأته مصر والرجل الذى لايزال يحقد على ما بلغناه من سعادة ، لا يفتأ منذ مدة طويلة يضع الغام مؤامرته ليدمر حكومتنا الحالية ظنا منه أن ذلك يمهد السبيل لعودته ، ولكن الله القادر قد بعثر آماله أدراج الرياح حيث ان كل مصرى يعرف أن عودة اسماعيل معناها خراب مصر » (١) .

ولقد بدات المؤامرة بتذمر الضباط الشراكسة فى الجيش مما اتخذه وزير الحربية الجديد أحمد عرابى باشا من اجراءات الترقية ، زاعمين انها اجراءات ظالمة تنطوى على الكيد لهم والانتقام منهم ، لا عن جريرة ارتكبوها ولكن لانهم ليسوا مصريين ، ومما غاظهم كما زعموا الحاق بعضهم بالمناصب الخالية بالجيش المصرى فى السودان ...

والذى يقف على أساليب السياسة الانجليزية الماكرة

S, H. of The British Ocupation of Egypt. P. 252 (1)

فى تعكير كل جو ترى مصلحتها فى تعكيره لايستبعد أن يكون لمن كان يقيم بمصر من الانجليز يومئذ أثر كبير فى الايحاء الى هؤلاء الشراكسة بهذه الآراء لكى تشيع فيهم الفتنة ، ثم تجاوزهم الى المصريين فلا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة ...

ومما يميل بنا الى الاعتقاد فى صحة هذا القول الذى نقول ــ فضلا عما أسلفنا بيانه من سوابق السياسة الانجليزية ــ ما رمى به الانجليز الوزارة الوطنية من التهم على ألسنة صحفهم ومندوبيهم فى مصر وبخاصة ما ذكروه من الافك حول الجيش وسيطرته على كل شيء

والواقع انه لم يكن فيما فعل عرابى الا ما يقتضيه تطبيق القوانين العسكرية الجديدة التي وافقت الحكومة السالفة عليها ، فان تلك القوانين تنص على وجوب احالة المرضى والذين بلغوا سنا معينة على الاستيداع ، ولقد دافعت الوزارة بهذا ، ولكن الخراصين المناوئين لم يحملوا هذا العمل الا على الرغبة فى الانتقام ...

ولقد كان ممن نقلوا الى السودان ستة وثمانون من المصريين وتسعة من الشراكسة فحسب وستة من الاتراك فأى معنى للكيد والانتقام فى هذا ؟

ونحن اذا جارينا هؤلاء الكائدين لمصر وحركتها فيما زعموه من أن الوزارة متهمة فلا تصدق فيما توردة دفاعا عن عملها ، فان فيما كتبه الشيخ محمد عبده الى صديقه مستر بلنت فى كتابه المشار اليه أقوى دليل على براءة عرابى والوزارة السامية مما اتهمت به قال : «أما عن ترقية الضباط التى لاتزال تلفظ بها الصحف الاوربية فاسمح لى أن أشرح لك الحقائق ، فأول كل شيء أن هذه الترقيات ليست من عمل عرابى باشا وحده ولا كانت رشوة يقصد بها اجتذاب الضباط نحو عرابى،

فانها كانت نتيجة للقوانين العسكرية الجديدة التي تقضى بأن يحال على المعاش من يبلغون سنا معينة ومن يصابون بالمرض أو التقاعد أو العجز ، وقد بدأ تنفيذ هذا القانون من عهد شريف باشا ووضع فى قائمة الاحالة على المعاش ثمانية وخمسون وخمسمائة ضابط ثم أرسل ستة وتسعون الى حدود الحبشة والى زيلع وأماكن أخرى ، وأخرج من الجيش نحو مائة ضابط ألحقوا بالوظائف المدنية ، ويبلغ عدد هؤلاء جميعا أربعة وخمسين وسبعمائة ضابط ، فكان من الطبيعي اذن أن تجرى ترقيات لملء المناصب الخالية . ولا يزال فى الجيش خمسون منصبا يحتفظ بها لخريجى المدرسة الحربية »

هذا ما ذكره الشيخ محمد عبده ومنه يتبين الحق فى هذه المسألة . على أننا لو فرضنا أن عرابيا قد آثر المصريين بالترقيات وتخطى بذلك نفرا من الشراكسة ، فلن يكون فى رأينا مخطئا حتى فى هذا العمل . فحسب هؤلاء الشراكسة ما نالوه من حظوة طوال العهود السابقة وبخاصة فى عهد رفقى ، وذلك على ما كانوا يضمرونه وما كانوا يبدونه من حقد واحتقار لمصر والمصريين ، وحسب المصريين وهم ابناء البلاد الذين تجبى منهم الضرائب ماذاقوا من هوان ومذلة على أيدى هؤلاء السادة الذين استنزفوا دماءهم ، واتخذوا منهم عبيدا واماء ...

وماذا كان ينتظر من عرابى غير أن يطبق القانون ، وهذا أقل ما يفعله رجل هو زعيم ثورة كان هذا القانون ثمرة من ثمارها ؟ ماذا كان ينتظر من ذلك الذى ظل طول عمره ناقما على حرمان المصريين فى الجيش واستئثار الشراكسة فيه بالخير ، فلم يكف عن الشغب على هؤلاء الشراكسة الباغين منذ أن كان جاويشا ليس له من الامر

شيء ولم يفتر عن مقاومتهم ومصاولتهم في كل خطوة خطاها في سلك الجيش حتى انتهت اليه زعامته ؟

اجل ، ماذا كان ينتظر من هـذا الرجل ، وما كان حقده على هؤلاء في يوم ما صادرا عن صغار أو انانية ، وانما كان مبعثه ما يحس في أعماق نفسه من حماسة وطنية وغيرة قومية هما في مقدمة ما كان يتصف به من صفات ؟ !

ومهما يكن من الامر فما كان عمل عرابي في اية صورة له ، مما يقابل بالقتل ! ولا كان تقديم المتآمرين الى المجلس العسكري مما يستأهل كل ذلك السباب الذي راحت تنبح به جوقات الاستعمار ، وهل نسي هؤلاء ان عرابيا وصاحبيه قد قبض عليهم في صورة مخزية غادرة تبعث على الاشمئزاز والسخرية ، لمجرد انهم تقدموا ليرفعوا شكواهم الى أولى الامر مما كانوا يحسونه من اجحاف بحقوقهم دون أن يفكروا في قتل أحد أو العدوان على أحد ؟

وكيف لايستحي دعاة الاستعمار من أن يلوموا هذا الرجل بالامس ويتهموه بالفوضى لمجرد انه شكا أمره الى رؤسائه ، حتى اذا قبضت الحكومة عليه عد ذلك منها عين الصواب ، ثم يعودون اليوم فيندددون به ويستصرخ بعضهم بعضا عليه لا لشيء الا لانه يقدم الى المحاكمة فريقا ممن يتآمرون على قتله ! الا ما أشد ما تحسه النفس من ضيق وغيظ تلقاء هذه المقارنة بين الموقفين !

واتت الفرصة كلفن ومالت واشياعهما من الثعالب وبنات آوى ، وهيهات أن تواتي الانجليز فرصة فيضيعوها ، لذلك ما كان أسرعهم الى استغلال الحادث فبدأوا أولا يذكرون التعصب الاعمى ، ثم انتقلوا الى

ذكر الفوضى الحكومية ، وعدوا ترقية الوطنيين مظهرا من مظاهر الرشوة التي أريد بها التأثير فى رجال الجيش كى يكونوا على استعداد عند أول صيحة ، ثم راوا فى محاكمة الشراكسة مظهرا من مظاهر الظلم والاستبداد الغاشم قائلين فى منطق عجيب ليس مثله فى معنى الصفاقة والتبجح : ان المؤامرة وهمية لم توجد الا فى رأس عرابى ، وان الغرض منها لم يكن سوى التخلص من الشراكسة بأى وسيلة ، وان المحكمة العسكرية التى فصلت فى الامر كانت جلساتها سرية فكانت تعمل بما يشير به عرابى ، لذلك جاء حكمها فى منتهى القسوة بحيث لا يقل عن الاعدام ، ولم يكفهم ذلك حتى يدعوا فى جراة وفى امعان فى القحة أن عرابيا كان يذهب الى السجن فيعذب هؤلاء الشراكسة أيام المحاكمة ويشفى غليل نفسه بمنظر ذلتهم وخضوعهم ...

ولقد جعل الافاكون الخراصون هذه المحاكمة من أكبر سوءات ذلك العهد ومن كبائر خطيئات عرابى ، وحذا المؤرخون من الانجليز حذو الساسة فى موقفهم من هذه المسألة ، وما كان ينتظر منهم أن يفعلوا غير ذلك ، ومن هؤلاء كرومر ، وهو رجل كان بحكم صلته برجال ذلك العهد جميعا يعلم حقيقة الامر ، ومع ذلك طاوعه ضميره على أن يقول فى كتابه « لم يظهر دليل جدير بالتصديق ولا ظهر دليل على أن تهمة المؤامرة كانت تهمة حقيقية ، وكان حكم المحكمة العسكرية وثيقة وحشية تحمل طابع المظاهرة السياسية أكثر مما تحمل طابع الحكم القضائى وكان عرابى كثير الظنون شأنه فى ذلك شأن كل جاهل من الرجال ، ولم تعش المؤامرة على قتله الا فى خياله هو فحسب » .

هذا الذى شاء أدب كرومر أو على الاصح شاءت

سخيمته أن يكتبه مع علمه باعتراف بعض المتآمرين بالتهمة ...

ولقد أخذ بعض المؤرخين من المصريين هذا الكلام المرسل على عواهنه وشايعوا الانجليز وا أسفاه فى رأيهم هذا فى عرابى كما شايعوهم فى غير هذا من الآراء ، الامر الذى يؤلم النفوس أكبر الالم ، فليس يعنينا ما يقول خصوم الوطن وخصوم عرابى ، ولكنا نضيق كل الضيق أن تجوز الاباطيل على المصريين فى رجل منهم ، ومن هنا ضاع تاريخ عرابى وأنكره بنو قومه ونجح الاحتلال فى مأربه فساق الجيل الذى خلف جيل عرابى كما يحب ، فأضاف هؤلاء الى عيب خضوعهم للدخيل فضيحة مشايعته فيما يسبهم به فى شخص بطل من أبطالهم !..

ويجدر بنا أن نضع امام عينى القارىء بعض ما كتبه الشيخ محمد عبده تعقيبا على المؤامرة .. قال فى كتابه الى بلنت : « كانت الوزارة يخالجها منذ زمن طويل شبهات عما عسى أن ينجم من شر ، فمنذ أن عاد راتب أول مرة الى مصر ، طلب البارودى رئيس الوزراء الحالى وكان يومئذ وزير الحربية ، من شريف باشا فى حضرة الخديو اخراج راتب ، فقد داخلته الريبة بسبب أن راتبا ترك الخديو السابق فجأة فى نابلى ولكن شريفا رفض ذلك على الرغم من أن البارودى حمله تبعة ما عسى أن يقع من الحوادث يوما ما ، وكان ذلك لان راتبا كان صهر شريف ، وربما كان شريف لذلك يرى رأيه فى العمل على اعادة اسماعيل » .

ثم قال الشيخ محمد عبده : «وقد أحدث هذا الحادث شيئا من الهياج بين عامة الناس . ان كل امرىء يعلم أن حياة عرابى معرضة للخطر كل يوم كحياة غيره ، كما أنه لا يتفق لرجل مهما يكن من عظمته الا يكون بين

الناس من يريده بالسوء ، ولكننا لا يسعنا الا أن نضحك اذا أعلن أن انجلترا على وشك الفوضى لان أحد المجانين من المدنيين أو من العسكريين حاول قتل ملـكتكم » .

وليت هؤلاء المفرضين قد اقتصر أمرهم على الكذب والاتهام ، فلم يخطوا تلك الخطوة النكراء التى أكدت القطيعة بين الخديو والوزراء وعجلت الكارثة للبـلاد ، وما كانت ادعاءاتهم الا مقدمة بدأوا بها ما كانوا يبيتون من المكر السيىء .. يقول فى ذلك بلنت : « وفى تلك الاثناء بلغت الحوادث فى مصر مبلغا عظيما من الحرج بسبب المؤامرة الشركسية التى وصلت أنباؤها لندن فى الاسبوع الثالث من ابريل ، ولم أعرها أول الامر كثيرا من الاهتمام وأخذتها على أنها احدى الشـائعات التى كانت تذاع يومئذ ، ولكن سرعان ما أصبحت ذات خطر كبير لا من حيث هى فى ذاتها ، ولكن بوجه خاص لانها أمدت رجالنا السياسيين بالفرصة التى طالما ترقبوها ، لكى يوقعوا الخلاف الصريح بين الخديو ووزرائه ، وكان مالت يومئذ قد خضع تمام الخضوع لكلفن ، وصـــار منذ ذلك الحين يهتدى فى حركاته حتى النهاية بما يعرض كلفن من آرائه الانجليزية الهندية » .

عرض قرار المحكمة العسكرية على الخديو فأسقط فى يده ، أيوافق على هذا الحكم فيظهر أمام الانجليز أنه يظاهر وزراءه فيخسر الذين يظاهرونه هو ، أم يرفض التصديق عليه فيرضى الانجليز ويقضى على كل أمل فى ارضاء عواطف الوطنيين ؟

وكان مالت قد أشار عليه برفض هذا الحكم الذى ينطوى على القسوة والظلم على حد قوله ، وللقارىء أن يقدر مبلغ ما فى هذا التدخل من تطفل وقحة اذ ما شأن مالت وهـذا الحكم مهما كان ظالما كما يزعم ؟ وانهم

ليعلمون أن جلسات المحاكم العسكرية كانت سرية حتى فى عهد المراقبة ، وأن الخديو لايملك رفض أحكامها وكل ما له من حق فى هذا الصدد هو تخفيف تلك الاحكام بعض الشيء بعد التصديق عليها ...

حار توفيق واشتدت حيرته ورأى الامر جد خطير ، وأى شيء اخطر من أن يتحدى وزراءه فى غير حق وفى موقف كهذا تخيط فيه بهم الدسائس من كل جانب ويعترض طريقهم من الصعاب ما يتطلب تذليله جهودا متواصلة .

لذلك وقف الخديو أول الامر موقفا مبهما ، وسرعان ما شاعت الشائعات عنه من ناحية ، وعن الوزارة من ناحية أخرى ، وكلما مر يوم ازدادت ريبة الوطنيين وتعاظم غيظهم وغضبهم ، ووجدت الدسائس الجو الصالح لنجاحها ، فنشطت نشاطا كبيرا ، ولازم مالت الخديو يوحى اليه ويوسوس له .

ولم تطل حيرة توفيق فانه آثر جانب مالت ، وخطا بذلك خطوة اخرى من خطواته التى كانت تعجل سير الحوادث أبدا نحو الغاية التى رسمها الانجليز والتى كان بلوغها من جانبهم معناه التهام مصر وازدراد تلك اللقمة التى طالما منت انجلترا نفسها بازدرادها ...

ولعلنا نذكر من مواقف توفيق السالفة ما كان يدفع به الحوادث فى طريق العنف والثورة دفعا ، فهو الذى أدى الى انضمام الحزبين العسكرى والوطنى وتضافرهما يوم تنكر للدستور وأخرج شريفا من الوزارة ، وهو الذى تقع على عاتقه قبل غيره مسؤولية مظاهرة عابدين ثم هو الذى قبل المذكرة المشتركة فأحبط أعمال شريف للمرة الثانية وصدم الوطنيين صدمة لم تدع لهم بعد رجاء فيه .

وليس بعجيب أن تكون خطى توفيق كلها مفضية الى الاقتراب من الكارثة فهو انما يعمل بوحى من الانجليز وقد عين هؤلاء الهدف الذى يقصدون اليه بسياستهم ، وكان الخديو قد دان بمبدأ نحسب أنه جرى فى نفسه مجرى العقيدة وذلك أن يؤثر جانب الانجليز فى كل شىء لان ذلك كما توهم منجاته من الصعاب التى كانت تحيط بعرشه

رأى الخديو كما اوحى اليه مالت أن حكم المجلس العسكرى على المتآمرين من الشراكسة حكم لا يسعه الموافقة عليه ، ورأت الوزارة من جانبها أنها سلكت فى المسألة منذ بدايتها مسلكا لا غميزة فيه فهى بذلك تتمسك بالحكم الذى أصدره المجلس، هذا الى أن رفض الحكم من شأنه أن يضيع هيبتها وينتقص من نفوذها ، ثم انها الى ذلك ترى التحيز واضحا من جانب الخديو، ذلك الذى كان يتشدد بالامس أعظم التشدد يوم سيق عرابى وصاحباه الى السجن لا لشىء سوى أنهم شكوا الى أولى الامر حالهم ... ومن هنا قامت أمام البلاد مشكلة من أدق المشاكل وأخطرها ...

وكان الذى يغضب الامة والوزارة فى الواقع أشد الغضب وآلمه تدخل الانجليز فى تلك المسألة التى لا صلة لهم بها ولا شبه صلة ، وأحست الوزارة أن غرضهم هو احراجها فحسب ، ومن هنا اتخذت المشكلة مظهرا دقيقا غاية الدقة ، خطيرا كل الخطر ، فلقد وجد الوطنيون البلاد تلقاء موقف .. تمتحن فيه الكرامة الوطنية ، والعزة القومية ، ورأوا الظروف تعود من جديد فتظهر للخديو ان لا سبيل له الا سبيل الوطنيين لانه بانحرافه عن هذه السبيل انما يطعن البلاد طعنة نجلاء فى صميم قوميتها .

ولقد فرح المستعمرون لاريب أن تتعقد المشكلة على هذا النحو ، وزاد فرحهم أنها من صنع أيديهم ، لذلك كانوا لا يألون جهدا فى العمل على تفاقمها بكل ماوسعهم من مكر وخبث ، وراحت صحفهم تزيد نار الخلاف اشتعالا لاتتورع ولاتتوانى ، ومن ورائها رجال السياسة ورجال المال يصورون مصر فى اشنع حالات الفوضى والاضطراب ، فلقد سيطر رجال العسكرية وسيطر زعيمهم عرابى على كل شىء حتى ما يقف فى طريقه حائل من قانون أو التزامات حتمتها الديون والظروف على مصر ...

وكان الخديو فى الواقع تلقاء آخر فرصة يستطيع أن ينقذ بها مصر مما كان يبيت لها ، ولكنه ألفى نفسه سليب الارادة أمام ارادة الانجليز ، بل انه فى الحق قد فرح أن يلطم وزارة البارودى لطمة يتخلص بها منها ويتخلص من عرابى الذى بات يغار منه اشد الغيرة ويمقته أشد المقت حتى ما يطيق أن يسمع اسمه .

وليت توفيقا تحرك من تلقاء نفسه ، اذن اهان الخطب وخفت وطأة البلوى على النفوس ، فقد كان يمكن أن يقال يومئذ انه ارتأى رأيا ، وانه ينتوى الخير او ينتوى الشر حسبما يرى ، ولكنه وا أسفاه كان يقوى على الوطنيين بضعفه ، فلم يكن يريد شيئا وانما كان يراد له كل ما يأخذ أو يدع من أمر ...

وبدا لمالت فأوعز الى الخديو أن يتخلص من المأزق بعرض الامر على السلطان ، وحجته ان عثمان رفقى يحمل لقب الفريق ، فلا يجوز لاحد غير السلطان أن ينزع منه هذا اللقب ، وسرعان ما فعل توفيق كما أشار به مالت فزاد الامور ارتباكا وتعقيدا .

ولقد اخطأ مالت خطأ كبيرا فيما اشار به ، فانه جرج

بذلك تركيا الى الدخول فى ذلك النضال ، الامر الذى كانت تحذره الدولتان أعظم الحذر، وان كانت احداهما تخفيه ، بينما الاخرى لا تتحرج من أن تعلنـه فى كل مناسبة وتبديه ...

أما الوطنيون فقدغضبوا لذلك أشد الغضب ، ورأوا فيه ضربا جديدا من اؤم مالت ، فأجمعوا أن يمنعوا تدخل تركيا مهماكلفهم ذلك من وجوه الصعاب والمشاق. وبلغ الغضب برئيس الوزراء ان اعلن فى عزم وتصميم : « أنه اذا أرسل الباب العالى أمراً بنقض حكم المجلس العسكرى على الشراكسة السجناء ، فان لن نطيع هذا الامر ، واذا أرسل الباب العالى من قبله مندوبين ، فسوف لا نسمح لهم أن يهبطوا مصر ، وسوف نردهم بالقوة اذا لزم الامر » (١) .

وهذه لاريب ثورة غضب من البارودى نعدها من اخطائه ، فلقد أفضى بهذا التصريح الى مالت ، وهذا أرسله الى حكومته وانه لشديد الاغتباط به اذ يسوقه دليلا على أنالامور قد بلغتغاية الحرج. ، ثم انه يسوقه منجهة أخرى دليلا على صحة ماذكره مرارا وهو تسلط زعماء الجيش واستهتارهم بكل سلطة . ولم ينج عرابى من حملات الكائدين له وحمل مسؤولية هذا التصريح كأنما كان هو قائله ، وأرجف المرجفون أن البارودى انما يعمل بوحى من عرابى الذى يعد الحاكم الحقيقى للبلاد ! ..

الحق أن البارودى قد أساء الى القضية اساءة كبيرة بهذا التصريح . فهو فضلا عما ذكرنا ، انما يتحدى السلطان فى ذلك الوقت العصيب فيضيف الى اعدائه عدوا جديدا ، وان الذى يحيط به الاعداء من كلجانب

(١) Modern Egypt — Cromer.

لجدير به أن يحتال ليستل السخائم من صدورهم ، أو ليكسب من الاعوان والاصدقاء من يكونون له فى الشدة قوة وسندا .

وكانت النتيجة المباشرة لهذا التصريح استحكام الازمة بين الوزارة والخديو ، فلقد رأى توفيق أنه أصبح فى الواقع وليس له من الامر شيء ، فاذا كان البارودى يقف هذا الموقف فى وجه السلطان نفسه فكيف اذا جاءت المعارضة من الخديو ؟ وهذا هو المعنى الذى لا يفتأ مالت وأعوانه يوحونه الى الخديو فى تلك الازمة العصيبة .

ولو كانت الوزارة أصرت يومئذ على موقفها من العناد والصرامة لحملت قسطا كبيراً من التبعة عن تعقد الامور وتحرجها ، ولكنها ما لبثت أن خطت خطوة حميدة حقا كانت تنطوى على كثير من الكياسة وبعد النظر ، فانها تقدمت الى الخديو تقترح أن يخفف هو الحكم من تلقاء نفسه دون الرجوع الى تركيا أو غيرها . والوزارة ترضى أن ينفى المحكوم عليهم من مصر الى أى جهة من الجهات دون أن تمس رتبهم أو ألقابهم وانما تستبعد أسماءهم من سجلات الجيش المصرى ...

وهذا المقترح لاريب دليل صادق على حسن نية الوزارة ورغبتها فى أن تنتهى المسألة وتنجو البلاد من كيد الاعداء ، وهى فيما تقدمت به على هذا النحو متساهلة فى الواقع أكبر التساهل ، فما دام المجلس العسكرى قد حكم بادانة هؤلاء فان ابعادهم من البلاد يقتضى ابعادهم من سجلات الجيش ، ولكن الخديو وا أسفاه قد تنمر وتنكر ، فرفض أن يجيبها حتى الى هذا الاقتراح ...

وكان مالت من ورائه لا ينفك يوسوس له ويزين

فعل السوء ، وكان جرانفل قد أنكر من مالت ما أشار به على الخديو من دعوة تركيا الى التدخل ، فكتب اليه أن يسير على وفاق مع ممثل فرنسا ، وفى هذا تلميح الى ما كان فى سياسته من خطأ ، وكان ممثل فرنسا يسير بوحى من فرسنيه ، ولكن عز على مالت أن يتراجع بعد هذه الخطوات فينقض ما نسجه من غزل بيده ، فانظر اليه كيف يخلع النقاب على صورة قل أن يوجد مثيل لها فى سجل السياسة العام فيكتب الى جرانفل قائلا : « اسمحوا لى أن الاحظ أنه عند النظر فى الخطة التى يجب أن يسلكها الخديو بآزاء حكم المجلس العسكرى يجب ان نلقى نظرة عامة على الحال كلها ، وأن نذكر أن الوزارة الحاضرة تسعى لتضييق نطاق الحماية الانجليزية الفرنسية ، وأن نفوذنا آخذ كل يوم فى النقصان ، وقد يستحيل علينا أن نستعيد سلطتنا العليا حتى تخضد شوكة الحكم العسكرى الذى يرزح القطر تحته الآن ، وفى اعتقادى أنه لابد من حدوث ارتباكات شديدة قبل الوصول الى حل مرض للمسألة المصرية ، وأن الحكمة تقضى باستعجال هذه الارتباكات لا بتأجيلها » (١) .

وأى كلام يمكن أن نعلق به على هذا الذى يقول مالت وبخاصة تلك الحكمة التى يشير اليها ؟ أهكذا تطغى المطامع على العقول والقلوب حتى تجعل من الحكمة استعجال الارتباكات ؟ ولكن خرافة الذئب والحمل لن تزال أبدا الاساس الذى يقوم عليه منطق الكلام بين القوى والضعيف فى هذا الوجود !

وأى دليل أبلغ من هذا على صحة ماذكرناه وما يذكره كل منصف عن السياسة الانجليزية تجاه مصر منذ كان لها فى هذا الوادى أطماع ؟ الا انا لنقرر تلقاء هذا فى غير

(١) المسألة المصرية تعريب الاستاذين العيادى وبدران

تردد أن هذه السياسة اللئيمة كانت خليقة بأن تقابل من جانب الوطنيين بكل مقاومة ، بل انها لسياسة كان يغتفر فى مقاومتها يومئذ كل عنف ، ونحب أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول انها سياسة كان لا يغتفر معها الاعتدال ولا تمتدح الحكمة ، ان كان الاعتدال والحكمة معناهما اقرار المذلة ومقابلة الغدر واللؤم بالصفح والمغفرة !

ولكن بعض الناس لايزالون يأخذون على عرابى وحزبه تشددهم وعدم مصانعتهم خصومهم ويعدون اباءهم الوطنى من السيئات التى لا تغتفر ولا تنسى ، وما نظن أن هؤلاء الناس يعلمون ماكانت تبيته السياسة الانجليزية لوطنهم من غدر واذلال ، فمن أصعب الامور أن يتصور المرء قبولهم الذلة على أوطانهم حتى ينكروا على الوزارة ما فعلت ...

ورأى جرانفل ان يشايع فرسنيه فى هذه المسألة ؛ وكان يرى فرسنيه أن يخفف توفيق الحكم كما ترى الوزارة فتنتهى الازمة ، ولكن كيف يدع مالت الفرصة تمر وهى من صنع يديه ؟ وكيف يطيق أن تخرج الوزارة من الازمة ظافرة فيكون ظفرها فى الواقع هزيمة له ؟ لذلك لم يزل بتوفيق حتى وقع على أوراق الحكم بنفى المتآمرين الى خارج البلاد لا الى السودان مع عدم استبعاد أسمائهم من سجلات الجيش ، ومعنى ذلك أن النفى مؤقت ...

وتلقت الوزارة اللطمة وتلقتها معها البلاد ، وآلم عرابيا وضباط الجيش من الوطنيين هذا الترفق بالمتآمرين ، وقد كان عرابى ومن شايعه على وشك أن يفقدوا رؤوسهم بالامس أو ينفوا الى أقصى السودان لانهم شكوا من سوء ما صنع بهم رفقى ...

وأعلنت الوزارة على لسان رئيسها أن لابد من قرار يلغى هذا القرار حتى تمحى الاهانة التى وجهت الى الوزارة والى البلاد فى شخصها ، ولكن مالت حذر الخديو أن يجيب وزراءه الى ما طلبوا ، ويستطيع القارىء ان يدرك خطورة هذا الموقف ، فلقد تأكدت القطيعة بين الخديو ووزرائه ، وانعدمت الصلة وتفاقم البلاء ...

وصل كل من الطرفين الى الموقف الذى يفسر فيه كل عمل حسب ما يجرى فى أطواء النفوس ، ففى كل حركة ريبة ، وفى كل بادرة اهانة ، وكل نية لن تكون الا نية سوء ، وكل جنوح الى السلم لن يؤخذ الا على أنه ضرب من الهزيمة والتسليم ، وكل كلمة نابية أوشديدة لن تفهم الا على أنها نوع من التحدى يراد به اعنات القلوب واحراج الصدور ...

وفى هذا الموقف راح مالت يجنى ثمار غرسه وانه ليطفر من الفرح كما يطفر الشيطان . كتب الى جرانفل فى اليوم الثامن عشر من شهر مايو سنة ١٨٨٢ ، أى بعد قرار الخديو بتسعة أيام يقول : « لقد انقطعت الصلة بين الخديو ووزرائه ووصل الموقف الى أقصى الخطورة » ...

وتقدمت الوزارة لترد على الخديو فخطت خطوة جريئة بالغة الجرأة ، فدعت مجلس النواب من عطلته دون الرجوع الى الخديو لتعرض عليه الامر ، فازدادت الامور حرجا على حرج ، فلقد عد أعداء البلاد هذا العمل من الوزارة بمثابة خروج على الحاكم الشرعى لا يقل فى مغزاه عن خلعه من عرشه ، ونسوا أو تناسوا أن الخديو باتباع مشورتهم هو الذى دفع الوزارة حتى أوقعها فى مأزق ضيق بحيث لم يبق أمامها الا أن تقر

الخديو على خروجه على الدستور ومشايعة أعداء البلاد او تستقيل ، وفى كلا الامرين تفريط منها فى حقوق البلاد فضلا عن كرامة رجالها ...

وانطلقت الشائعات من هنا ومن هناك ، فالبارودى يريد أن يثب الى العرش، والجيش على أهبة لان يتحرك الى عابدين ليرغم توفيقا على قبول مطالب الوطنيين كما أرغمه على مثل ذلك فى اليوم التاسع من شهر سبتمبر من العام الماضى ، والخديو يعد العدة للمقاومة ، الى غير ذلك من الاراجيف التى كان من طبيعة ذلك الموقف أن يخلقها .

ولو كانت الروح العسكرية هى المسيطرة على الحكم يومئذ كما أرجف المرجفون لما وقف دون الجيش حائل الى القصر وليكن بعد ذلك النصر أو الطوفان ، ولكن الوزارة رأت أن تحتكم الى نواب البلاد، ولما كانت واثقة أن الخديو لن يدعو المجلس دعته هى ليفصل فى الامر، ولا عبرة بالشكل فى سبيل تحقيق الجوهر ...

وسئل رئيس الوزراء عن وجهة نظره فى دعوة المجلس دون الرجوع الى الخديو ، فكان جوابه أن الخديو قد نشأ الخلاف بينه وبين وزرائه بحيث لا يمكن الاتفاق بينه وبينهم ، ولذلك فقد دعى المجلس دون مراعاة سلطته فى هذا ، ثم قال : « ان شكوانا من سموه هى أنه سلك مسلكا يقضى على استقلال مصر ، وكثيرا ما فعل ذلك دون مشاورة وزرائه » (١) .

والحق أن توفيقا كان يود التخلص من هذه الوزارة بأى ثمن وكان فيها البارودى الطامع فى عرشه ، وعرابى زعيم مصر وقائد حركتها القومية ، الذى يسير بطبيعة حركته فى طريق تعد عند الخديو طريق الضلال والعصيان

(١) M, Egypt.

وتعد كل خطوة فيها ثورة وتكبرا ، وأى شىء هو آلم لنفسه من أن يرى فلاحا من أبناء هؤلاء الذين ماخلقوا فى رأيه الا للفأس والطاعة يتربع على كرسى الوزارة ، ويتكلم اذ يتكلم باسم الامة ، ويقبل ما يقبل أو يرفض ما يرفض باسم الامة ؟ ..

ولقد عاب كثير من الناس على البارودى وعرابى مسلكهما تجاه الخديو فى الازمة ، وحجتهم أن الواجب كان يقضى على البارودى أن يترك الحكم ما دام الخلاف قد استحكم بينه وبين الخديو ، ولقد يبدو هذا الكلام وجيها لمن ينظرون فى النتائج دون تمحيص المقدمات ، أما الذين لا يصدرون حكما الا عن تقص وفهم ، فهم لا يذهبون مذهب هؤلاء ، ولا يقيسون قياسهم .

وليست المسألة دقيقة على الافهام حتى تتشعب فيها وجوه الرأى ، فحسب هؤلاء العائبين على الوزارة مسلكها أن يذكروا أن الخديو كان يعمل بوحى من الانجليز وعلى ذلك فاجابته لن تكون الا تسليما لاعداء البلاد ، الامر الذى لن يقبله وطنى ..

ولو أن الامر كان خلافا بين الخديو ووزرائه ، وكان الخديو يريد وجه الوطن ، فالسبيل واضحة أمامه ، وذلك أن يحتكم الى الامة ممثلة فى مجلسها النيابى ، ويجعل للمجلس عن طيب خاطر القول الفصل فى الخلاف

وهل كان يحمد من الوزارة أن يكون قصارى جهدها الاستقالة من الحكم وانها لفى موقف جهاد ومقاومة لدسائس الدساسين ومطامع الطامعين ، وان الخلاف بينها وبين الخديو فى جوهره لخلاف على السلطة لمن تكون ؟.. كلا ، بل انا لنرى استقالتها فى مثل تلك الظروف ضربا من الفرار ومثلا من أبلغ أمثلة الضعف ، وبخاصة اذا سلمنا بموقف الخديو من القضية كلها على

ألنحو الذى نذكره والذى لن نجد دليلا على صحته أبلغ مما ذكره كرومر فى كتابه حيث يقول عن الخديو : « أنه بين للسير ادوارد مالت فى يوم ٦ مايو أنه يؤثر أن تفقد مصر بعض امتيازاتها على يد الباب العالى وتعود اليها السلطة المنظمة على أن تبقى فى مثل ذلك الفوضى » ، ومعنى ذلك أنه كان يريد أن تطلق يده فى مصر فيحكمها كما يشاء ولا عبرة فى سبيل الوصول الى هذا الفرض بما تفقد مصر مما حصلت عليه من امتيازات خطت بها خطوات واسعة نحو الاستقلال ...

لم يكن أمام الوزارة الا أن تحتكم الى نواب الامة ، وقد لجأت الى ذلك بدعوة المجلس الى الاجتماع ما دام الخديو لم يدعه ...

ووقفت وزارة البارودى لا تتحول ولا تلين ، فكان موقفها هذا ثورة لا شبهة فيها ، ثورة قومية كأروع وأجمل ما تكون الثورات القومية ، وهو موقف نراه جديرا بالاعجاب والتقدير ، وما نحسبه لو كان فى بلد غير بلدنا الا كان يعد من المواقف المشهودة التى تذكر فى مواطن الفخر والمباهاة ...

وكانت الوزارة قوية بادىء الامر لانها كانت معتزة بالنواب واجماعهم على الاخذ بناصرها ولكنها نظرت فاذا بينهم تغامز وفى صفوفهم اسرار واعلان ! واذا كبيرهم سلطان يدعوهم الى الحكمة والروية ... وكم تحمل على الحكمة والروية أعمال ليست منهما بسبب من الاسباب !

قال سلطان باشا يومئذ للسير ادوارد مالت : « لقد أسقط المجلس شريفا تحت ضغط عرابى ، وان نفس الاعضاء الذين الحوا فى ذلك أكثر من غيرهم يتوقون اليوم الى اسقاط الوزارة وقد استبان اهم أنهم

خدعوا » (١) ولو إطلع عرابى على الغيب يومذاك لرأى أن هذه أخف ضربة من ضربات سلطان هذا الذى بدأ يتنكر للحركة القوميـــة ، تلك الضربات التى ســـوف يسددها الى قلب مصر فى ضجيج الجهـاد وسكرات الاستشهاد ...

انحاز سلطان الى توفيق منذ ذلك الوقت فطلب من النواب الحكمة والروية وما نلقى هذا القول على عواهنه فهذا كلامه لمالت الانجليزى عدو مصر اللدود ينبىء عن ذلك اذ أنه يكشف الوزارة أمام الكائدين لها من الانجليز ويجعلهم يستهينون بما تستند اليه من سلطة الامة .

وكتب مالت الى حكومته فى اليوم الثالث عشر من شهر مايو يصف الحال فى مصر ، أو على الاصح يصف مبلغ ما أصابته من نجاح دسائسه الاجرامية ، قال : « يظهر أن رئيس المجلس والنواب يميلون الى جانب الخديو ولقد سألوا ســموه أن يأخـذ بالعفو فيصالح وزراءه ، ولكن الخديو رفض ذلك... ويصر سموه على رأيه فلن يصـــالح وزارة تحدته صراحة وتهددته هو وأسرته ، واعتدت على القانون بدعوة المجلس الىالانعقاد دون الرجوع اليه ، وفى القاهرة قدر غير قليل من القلق، وكثير من الناس يغادرونها » (٢) .

ازاء موقف الســلطان وفريق من النواب انخلع عن رئيس الوزراء عزمه ، وتزايل اصراره شيئا فشيئا ، حتى رأت البلاد البارودى يرفع الى الخديو استقالته فيرتكب بذلك اثما نعيبه عليه أشد العيب فقد كان عليه أن يستطلع رأى النواب صراحة فى جلسة يعقدونها ، فاذا ناصروه كان عليه أن يبقى فى مكانه حتى يقال فيحظى

(١) M. Egypt

(٢) M. Egypt

بشرف الاقالة أو ينتصر فيكون له فخر الانتصار ...

لقد رفض النواب ان يجتمعوا فى مجلسهم ، اى انهم رفضوا أن يشايعوا الوزارة فى تحديها الخديو، واجتمعوا فى منزل رئيسهم ، ولكن هذا أمر شكلى لايمس جوهر الموضوع ، فالامر الذى كان يهم الوزارة هو معرفة رأى ممثلى البلاد ، وسواء لديها اجتماعهم فى مجلسهم أو فى أى مكان ، فليس ثمة من فرق بين الاجتماعين الا أن هذا رسمى وذاك غير رسمى ، ولم يكن المجال يومئذ مجال شكليات ، وقد جرى الخديو فى مضماره الذى اختاره على الرغم من ارادة البلاد، وهل كان نواب الشعب الفرنسى الذين التقوا فى ملعب التنس فى مستهل ثورتهم الكبرى لا يعبرون عن رأى الشعب لانهم لم يجتمعوا فى قاعة مجلسهم ؟

***

ألحق أن البارودى قد هدم ما فعل جميعا باستقالته هذه ، ولو أنه نال شرف الاقالة ، لكان منطقه متسقا ولأضاف بذلك الى نفسه والى وزارته معنى من معانى الاباء وحمل الخديو والموحين اليه وزرا جديدا يضاف الى سابق أوزارهم .

وعجز الخديو عن أن يقيم فى مصر وزارة ، فقد أشفق من الحكم الرجال يومئذ وأشفق مصطفى فهمى باشا حين عرضت عليه رئاستها عملا باقتراح ممثلى انجلترا وفرنسا اللذين صار لهما الآن حق اسقاط الوزارة الى من يرضيان عنهم فى مصر .

وصرح الوزراء على الرغم من استقالة رئيسهم أنهم لايستقيلون الا اذا كان ذلك بأمر من مجلس النواب .

هنا يعود عرابى فيثب الى مكان الصدارة من حوادث قومه بعد أن تنحى البارودى ، ولقد كان عرابى فى الواقع

فى رأى الناس وفى رأى الاوربيين فى مكان الصدارة دائما وان كانت رئاسة الحكومة للبارودى ...

عاد عرابى فوثب الى الطليعة ، وقد ضاق البارودى بالامر ذرعا ، فهو الذى أوحى الى الوزراء بما فعلوا وقد عز عليه أن يبعد الوزراء عن مناصبهم بمشيئة غير مشيئة الامة ، وتلك خطوة أخرى نضيفها فى غبطة وفخر الى سابق خطواته ...

***

ووقف عرابى فى مكانه لا يتزعزع وما كان أصلبه وأشد مراسه اذا وقف فى أمر يرى أنه الحق ، ولقد صور المبطلون وقفته هذه أنها عودة الى الثورة المسلحة وانه يوشك أن يفاجىء البلاد بيوم آخر كيوم عابدين ، فما حفل بكلامهم ولا خشى تهديدهم ، وكتبت الحكومات الى ممثليها فى مصر أن « يرسلوا الى عرابى فيبلغوه أنه اذا اصاب النظام خلل فسوف يجد اوربا وتركيا كمايجد انجلترا وفرنسا ضده ، وأنهم يحملونه تبعة ذلك » (١)

وتلقى عرابى هذا الكلام رابط الجأش ، وان كان ليفطن الى خطورة الموقف واصر ذلك الفلاح الذى لولا ما كان من حميته وانفته منذ حداثته لكان يجيل الفأس يومئذ فى حقل من حقول هرية رزنة ولا يدرى من أمر السياسة والحكم شيئا ...

وظل الرجل على عناده يكشف عن كرم عنصره فيفهم من يريد أن يفهم أن بين أولئك الفلاحين من أمثاله الذين يجيلون فؤوسهم فى صبر وصمت فى حقول هذا الوادى رجالا لاينقصهم الا العلم والحرية ليبهروا العالم ببسالتهم ونبوغهم ...

وصرح سلطان وقد أخذ يكيد للبارودى وعرابى معا

---

(١) M. Egypt

« أنه ليس من الممكن تغيير الوزارة مادامت القوة الحربية مجتمعة فى يد عرابى باشا » (١)

ولم يكن يدرى سلطان أن وراء تلك القوة الحربية قوة أخرى لولاها ما قام غيرها . لم يكن يدرى سلطان أن هذه القوة الحربية التى يشير اليها كانت قائمة فى مصر من قبل فلم يظهر أثرها وخطرها الا فى يد عرابى دون غيره من الرجال ، ولو أن رجال وطنه جميعـا التفوا حوله ما نالت انجلترا منهم شيئا ولسوف يدون سلطان هذا وأمثاله ممن نكبت بهم مصر، من أكبر عوامل الهزيمة يوم التل الكبير .

***

حلت الازمة بأن أشـار ممثـلا انجلترا وفرنسا على الخديو « بأن يطرح المسائل الشخصية جانبا ، وبما أن سموه لم يستطع أن يقيم وزارة جديدة فانهم يطلبون اليه أن يجدد علاقته بالوزارة القائمة »

وبقيت الوزارة فى كراسـيها ، وانتصرت كلمة الامة من جديد على يد ذلك الذى خرج من هرية رزنة ولم يلق الا قسطا من العلم فى الازهر ، والذى درج على الرغم من ذلك فى مدارج الرقى ، فكان نموه كما تنمو الشجرة الطيبة لا كما ينمو العليق الذى لايرتفع الا على غيره...

ولولا ذوو الاطمـاع من المتربصين بمصر وحرية مصر لجنت البلاد من هذا الانتصار أطيب الثمرات ولعزت بذلك كلمة الامة حتى ما تذل بعدها أبدا ...

ولكن مصر وا أسفاه سوف تجنى من انتصارها هذا العلقم والحنظل

---

(١) M. Egypt

بغي وعدوان

وكيف كانت ترجى لمصر الســلامة ، والانجليز وراء الخديو يتربصون ويكيدون ؟ لقد آن لمالت الآن أن يدعو حكومته الى التدخل المسلح فقد حانت الساعة وواتت الفرصة ، ولن يهم انجلترا أن تكون هى المدبرة لكل ما حدث فلن يكون احتجاج الضعفاء الا صرخة ضــائعة ولن يكون منطقهم الا ثرثرة ، وشكواهم الا تبجحا .

لم تكن فى البلاد ثورة ولا خاف فيها أجنبى على حياته أو متاعه ، ولكن أعوان السوء صوروها يومئذ صــورة منكرة انزعجت منها أوربا أشد الانزعاج ، مع أن هؤلاء كانوا يعلمون حقيقة الامر ويوقنون أن المســألة لا تعدو أن تكون خلافا بين الوزارة والخديو ما كان ليبلغ ما بلغه من الشدة لولا تدخلهم على ذلك النحو الاثيم الذى بينا .

لم تكن البــلاد فى مثــل تلك الحال من الفوضى التى ذكرها المبطلون ، وحسبنا أن نورد هنا بعض ما جاء فى كتابين أرسلهما عرابى باشا الى مستر بلنت ، وكان ذلك فى أوائل شهر ابريل أى قبل الازمة التى نحن بصددها بنحو شهر ، قال عرابى : « وفيما يتصل بنــا فنحن نشكرك على ما أسديت من صنيــع يهم مصر وانجلترا معا وانا نأمل أن تكون انجلترا أقوى صديق يعيننا على وضع نظام طيب مؤسس على الحرية وعلى أن نحذو حذو الامم الحرة المتمدنة .

وأما عن نصيحتك التى تعطفت فأسديتها الينا ، فانا نشكرك عليها ، ونرجو منك ان تقول عنا اننـــا لا نألو جهدا فى المحافظة على الهدوء والنظام ، لاننا نعد ذلك واجبا من أهم واجباتنا ، وانا لنحاول أن نحظى بالنجاح . ونستطيع أن نؤكد لك أن الهدوء الآن يشمل كل شىء ، والسلام يسود البلادكلها ، ونحن نبذل غاية ما فى وسعنا ومعنا اخواننا الوطنيون للدفاع عن حقوق من يقيمون فى بلادنا ، بصرف النظر عما ينتمون اليه من الامم ، وانا نحترم كافة المعاهدات والاتفاقات الدولية كل الاحترام ، ولن نسمح لاحد بالمساس بها ما دامت الدول الاوربيــة تحافظ على علاقاتها الودية بنا ...

أما عما يهددنا به كبار أصحاب المصارف ورجال المال فى أوربا ، فانا سنحمل ذلك فى ثبات وحكمة ، ففى رأينا أن ذلك الوعيد لن يضر الا أنفسهم وانه ليؤذى تلك الدول التى يضللونها .

وان غرضنا الاوحد هو أن تتخلص بلادنا من العبودية والظلم والجهل ، وان نرفع بنى مصر الى مستوى يستطيعون معه أن يحولوا دون أى رجعة للاستبداد ، الذى كان يضع مصر فيما سلف من الازمنة فى زوايا الاهمال ...

وان هذا الذى أكتبه اليك هو ما يفكر فيه كل مصرى حر العقل محب لبلاده ... »

هذا ما يقوله عرابى الذى يصوره مالت نزقا جاهلا مستبدا ، والذى ظل فريق من بنى قومه حتى يومنـــا هذا لا يجدون له فى خواطرهم من صورة الا ما صـــور الاحتلال ، فاذا ذكرت للرجل منهم عرابيا راح يتلو عليك ما لقنه فى المدرسة وا أسفاه من أوصاف هى أبعد ما تكون عن حقيقة هذا الرجل المظلوم ، ومن اغراض شـــــتان بينها وبين ما كان يبتغيه لقومه هذا الزعيم المفترى عليه

أجل ! لا زلنا مع بالغ الاسف نسمع حتى اليوم من بعض المصريين ومنهم من له فى الناس مكانته ، قدحا فى عرابى ، فاذا جادلناه لا نجد لديه من علم الا أن عرابيا كان طائشا جاهلا ، لايدرى شيئا من شئون بلاده ، الى أمثال تلك العبارات المحفوظة التى لا تغتفر لصبى فى المدرسة ، واذا كان عذر هؤلاء عن قدحهم انهم يجهلون تاريخ هذا الرجل ، فانا لن نجد لهم عذرا عن هذا الجهل فذلك هو العذر الذى يوصف بأنه أقبح من الذنب ...

لينظر هؤلاء فيما بينا من آمال هـذا المصلح وفيما قدمنا من أدلة بسالته وحميته ، وليتدبروا فى هذا الذى يكتب لصديقه بلنت ، وليسألوا أنفسهم بعد ذلك : ألا يزالون يرون فى هذا الرجل جنديا طائشا مغرورا لايدرى من أمور بلاده شيئا ؟

ان هذا الذى يقوله عرابى لبلنت هو ما كان يرجوه المصريون من انجلترا قبل الاحتلال ، وهو الذى ظلوا يرجونه منها بعد الاحتلال حتى يوم الناس هذا ، وكم تكرر فى مصر من أشباه ونظائر لهذا الموقف ؟ وكم جاء مثل هذا الكلام على ألسن غير لسان عرابى ، ولكنا نحجز القلم عن الاتجاه الى غير ما نحن فيه وقصارانا أن نقول ان السياسة الانجليزية فى مصر هى هى وان تغير الزمن، واختلفت على موضع الزعامة الرجال ...

وقد اكد عرابى نيـاته فى كتابه الثانى ومما جاء فيه قوله : « اننا نميل أشد الميل الى التفاهم على روابط الصداقة والمصالح المشتركة بيننا وبين الدول التى تربطنا بهم علاقات ، فانه بالصداقة وحدها يستطيع من لهم حقوق فى بلادنا أن يجنوا ثمار المعاهدات والعقود التى نجد من واجبنا العمل على احترامها وحمايتها ، فاذا وقع خلاف فانه لايؤثر فينا فحسب ، ولا تكون نحن أكثر

تأثرا بها من غيرنا وانما تتأثر به الدول الاخرى جميعا وبخاصة انجلترا ، ولا يخفى على السياسى الواسع العقل ما يكون من فوائد لانجلترا من وراء مصادقتنا ومعاونتنا فى كفاحنا ..

وفيما يتعلق بالمراقبة فكن على يقين أنه ليس هناك ما يحول بينها وبين أداء واجبها حسب الحقوق التى قررتها الاتفاقات الدولية . ولم يكن فى نيتنا قط ولا فى نية أحد فى هذه البلاد أن يمس حقوق المراقبين أو يعتدى على أية معاهدة دولية ...

ولئن كان ممثلو الدول فى بلادنا مخلصين حقا لواجباتهم ولمصالح دولهم فلن يجدوا خيرا من معاونتنا فى جهودنا القومية الحقة ، وليثبتوا بأعمالهم ما يعدوننا به فى أقوالهم ..

لقد صممنا أن نبذل كل ما فى وسعنا لكى يكون لبلادنا موضع بين الامم المتمدنة ، وذلك بنشر المعرفة فى البلاد ، والمحافظة على الوحدة والنظام ، والقضاء بالعدل بين الجميع ، ولن يردنا شيء عن عزمنا قيد انملة ، ولن يخيفنا وعيد ولا تهديد أو يلوينا عن قصدنا ، ولن نخضع الا لشعوز الصداقة التى نتقبلها ونقرها بكل ما فى وسعنا ..

أما عن هدوء البلاد ، فليس هناك أى قلق ، ونحن نحاول الآن أن نقضى على ما خلفته لنا الحكومات السالفة من مساوىء ...

فلندع الله أن يهدى المفكرين من رجال السياسة فى أوربا الى الصواب ، وعسى أن يعنوا بمعرفة أحوال بلادنا وبذلك يؤدون صنيعا الى بلادهم كما يؤدون الى بلادنا بتقوية روابط المودة ، نسأل الله أن يهيىء لنا جميعا التمتع بنعمة السلام والمودة » ...

ويذكر بلنت تعقيبا على كتاب عرابى أن الشيخ محمد عبده كتب اليه كذلك يؤكد له فى ذلك الوقت قيام النظام والسلام فى مصر ...

لم تكن البلاد اذن فى حالة تدعو الى القلق الا اذا كان الخلاف بين الخديو ووزرائه مشكلة تستدعى حتما تدخل الدول الاوربية لحلها ، فما يتسنى علاجها الا على هذه الصورة .

لم يكن هـــذا الخلاف الا الذريعة التى باتت انجلترا تتحينها لتخطو الخطوة التى كانت سياستها طوال القرن التاسع عشر متجهة فى مصر اليها ، وكانت انجلترا قد صممت أن تقطع العقدة اذا لم يتيسر لها حلها ، فبقطع تلك العقدة تصيب فى الواقع غرضين : السيطرة على مصر وهذا قصارى آمالها فى الشرق ، والتخلص من مشاركة فرنسا اياها فيما هى فيه من شئون مصر وهذا ما كانت مصلحتها توجب الاسراع فى تنفيذه .

والانجليز قوم نبغوا فى أن يأخذوا كل شيء والا يعطوا شيئا ، وأن يستبطنوا دخيلة كل عدو أو حليف دون أن يكشفوا له عن شيء مما تنطوى عليه نفوسهم ، ولهم فى ذلك أساليب يعد نجاحهم فيها من أكبر أسباب تفوقهم..

لذلك تقدم هؤلاء ليلعبوا احدى لعباتهم السياســية وقد سهلت عليهم سياسة فرسنيه الامر ، فقد رأى هذا أن تبتعد انجلترا وفرنسا عن التدخل المسلح فى شؤون مصر ، وفاته أنه ان استطاع أن يوجه سياسة بلاده نحو هذا الهدف فما له حيلة فى انجلترا ان استعصت عليه أو غدرت به ...

وتقــدم فرسنيه يعرض علي انجلترا مقترحات لحل المشكلة ، فطلب علي لسان سفيره فى انجلترا أن ترسل الدولتان سفنا من أسطوليهما الى مياه الاسكندرية وأن

تطلب الحكومتان الى تركيا ألا تتدخل فى شؤون مصر فى ذلك الوقت ، ولكن فرنسا لا تعارض اذا حضرت بعثة عثمانية الى مصر بدعوة من الدولتين على أن يكون عملها محدودا وأن تكون تحت مراقبتهما .

ورأى فرسنيه أن تحاط روسيا والنمسا والمانيا وايطاليا بما تتخذه انجلترا وفرنسا حيال المسألة المصرية ، على أن تكون تعليمات تلك الدول الى سفرائها فى الاستانة عين تعليمات الدولتين ...

أما عن الخديو فقد عدلت فرنسا عن رأيها فى خلعه ، ذلك الرأى الذى كانت ترى قبل ذلك أنه لو اتبع كان تمضى على كثير من الصعاب ...

وكان فرسنيه يريد من المظاهرة البحرية أن يلقى الرعب فى قلوب الوزراء ليقلعوا عن مقاومة الخديو فينتهى ما كان بينه وبينهم ، ولقد وافق جرانفل على مقترحات فرسنيه فى جملتها ورأى أن يبلغ الباب العالى واحتاط للمستقبل بقوله انه قد تعرض عليه فى المستقبل مقترحات أخرى ...

ولكن فرسنيه لم ير هذا الرأى ، لانه لم يكن يرغب فى التقرب الى تركيا ، ولذلك رفضه بادىء الامر على أنه عاد فقبله بعد الحاح جرانفل وكتب الى سفيره بالاستانة أن يبلغ السلطان أنه « ليس من المستبعد أن تقدم اقتراحات أخرى الى تركيا فيما بعد »

وأراد جرانفل أن يبعد عن نفسه وعن حكومته تهمة الرغبة فى التدخل فى شؤون مصر ، فاقترح أن تدعى الدول الاوربية الى ارسال سفن الى الاسكندرية تقف الى جانب السفن الانجليزية والفرنسية، وما كان جرانفل جادا فيما يقول فانه كان على يقين أن اقتراحه هذا سيقابل من فرنسا بالرفض ، ولو كانت لديه شبهة أن

ستقبله فرنسا ما تقدم به ، بل لو أن هذا الاقتراح كان من جانب فرنسا لعارضت فيه إنجلترا أشد المعارضة..
ولو أن انجلترا كانت جادة فى مقترحها هذا لبذلت قصارى جهدها لتحمل فرنسا على قبوله ولكنها اكتفت بأن تبلغ فرسنيه على لسان وزيرها أنها تأسف الا تقرها فرنسا على وجهة نظرها وأنها تعد من الخطأ عدم دعوة الدول الى الاشتراك فى تلك المظاهرة ، ولكن بما أن فرنسا قد ذهبت فى الموافقة على السياسة البريطانية الى مثل ما ذهبت اليه فان انجلترا لايسعها الا أن توافق فرنسا على ما ترى ...

وآمن فرسنيه بنزاهة السياسة الانجليزية ، ولو كان غير فرسنيه فى موضعه لآمن بها كما آمن هذا ، فلم يكن يدور بخلد أحد يومئذ أن انجلترا كانت تترقب الفرصة لتنقض على الفريسة وحدها دون فرنسا ولا ظهر من عملها ما يبعث على الريبة ...

ولكن الانجليز خير من انتصح بنصائح مكيافلى فى هذا العالم وخير من حذقها ، ولو قد تاخر الزمن بهذا الرجل لاخذ عنهم مبادئه ولوجد فى أساليبهم وخططهم أبلغ أمثلة كتابه ...

الحق أن هذا المكر كان يدق على فرسنيه وغير فرسنيه من أولى الدهاء والخبرة من الرجال ، وما كان ليفطن الى هذا الا من يسىء الظن بانجلترا فيكون مبعث فطنته سوء الظن لا حسن الفهم ، ونحن انما نفطن الى مرامى هذه السياسة بعد أن تكشفت عنها حجب الدهاء وتعاقبت عليها السنون ؛ ولقد فطن اليها فرسنيه ورجال حكومته وشعبه الاريب ، يوم وقعت الواقعة وانفردت انجلترا بضرب الاسكندرية غير حاسبة لاى شىء من حولها حسابا

وكانت انجلترا تبغى من سياستها هذه أن تصرف

نظر الدول عن مصر ، فان دعوة تلك الدول الى مشاركتها فى المظاهرة البحرية يظهرها بمظهر من لا غرض له الا الصالح العام فى حين أن عملها هى وفرنسا يغضب الدول ويجعلها تميل الى التدخل لتنال حظا من الغنيمة فى مصر أو فى غير مصر يوم يكون الحساب وتوزع الاسلاب .

وفضلا عن ذلك فقد كانت انجلترا تحذر أشد الحذر أن تغضب السلطان فينحاز الى عرابى وحزبه ضد توفيق، فيظهر عرابى بمظهر المحافظ على حقوق السلطان صاحب الحق الشرعى فى مصر ، ضد الخديو ومشايعيه من الطامعين، وعلى ذلك فكل تهمة بالعصيان توجه الى عرابى أمام الشعب المصرى انما تذهب أدراج الرياح ...

ولقد فطن مالت الى خطورة هذا الامر وكتب الى حكومته ينذرها أن اغفال تركيا من شأنه أن يضم النواب الى العسكريين فيقفوا جميعا صفا واحدا ضد أوربا أو على الاقل انه يقوى جانب عرابى وأشياعه .

وكانت انجلترا فى الواقع تتبع سياسة حاذقة أكبر الحذق ، فهى تشايع فرنسا فى منعها تدخل تركيا ، ولكنها فى الوقت نفسه تحرص على ألا تغضب تركيا فقد تضطر اليها يوما ما ، وفى اغضابها ماقد يثيرها فتتدخل. وتعمل انجلترا فى مصر على يد مالت عملا متصلا لتخويف الخديو ولاذاعة المفتريات عن سوء الحال فى مصر ، وذلك لتمهد السبيل الى غاية يفضى اليها منطق الحوادث كما تزعمه وتلك الغاية هى التدخل المسلح على أى صورة ما محافظة على أموال الاجانب وأرواحهم فى مصر ، وما عليها الا أن تتحين الفرصة لتنفرد بالعمل ، وهى لن تحجم أن تضع فرنسا أمام الامر الواقع كما فعلت بازاء محمد على حين صمم بالمرستون على القضاء عليه... ولكنها الآن تتظاهر بالنزاهة وتحرص على الظهور بمظهر دولى فى سياستها

نحو مصر ، فتقترح اشتراك الدول فى المظاهرة البحرية تارة وتقترح دعوة السلطان الى حل الازمة تارة أخرى.. كل ذلك فى مهارة ودقة ولكنها مع الاسف مهارة من تجرد من الشرف فسهلت عليه غايته ، لا لشيء الا لانه يسلك اليها كل سبيل ولا عبرة عنده اى سبيل يسلك ...

ولما وجدت انجلترا أن فرنسا تصر على استبعاد تركيا والدول جميعا ، كتبت الى الدول قرارا ينفى أية نية من جانبها فى احتلال مصر ، واكدت أنها لم ترد بالمظاهرة البحرية الا اقرار السلام داخل مصر ، وأنها سوف تترك مصر وشأنها اذا قضى على ما فيها من القلاقل ، واذا لم تنجح تلك الوسائل السلمية فسوف تتفق انجلترا والدول على ما تراه هى وفرنسا خير سياسة تتبع ...

وتحدث اللورد دوفرين سفير انجلترا بالاستانة الى وزير الخارجية العثمانى فى لهجة شديدة قائلا : « انه اذا لم تعمل تركيا ما من شأنه أن يسهل على انجلترا خطتها فسوف تزيد انجلترا عدد القطع فى الاسكندرية وتطيل أمد بقائها جميعا هناك » .

ولكن السلطان آلمه وأغضبه أن توجد السفن الانجليزية والفرنسية أمام الاسكندرية ، فلم يكف عن احتجاجه واعلان سخطه ، مما زاد الموقف حرجا وتعقدا ...

وبينما كانت فرنسا وانجلترا تتبادلان الرأى على النحو الذى نذكر ، كان الحنق فى مصر على الخديو يزداد يوما بعد يوم ، وما زال الناس فى قلق وخوف من موقفه ومشايعته الانجليز على هذه الصورة حتى وصلت السفن الى الاسكندرية ...

ولقد أخذ بعض الناس على الوطنيين أنهم لم يخلعوا الخديو فى ذلك الوقت ويتصلوا بتركيا لتعين على مصر غيره ، والواقع انها مسألة دقيقة ، فمن الناحية الوطنية

كان يرى الوطنيون ضرورة خلعه ، وحجتهم أن السكوت معناه التفريط فى جانب الوطن ، ولكنهم من ناحية أخرى كانوا يرون ان عملهم هذا ينقلب وبالا عليهم فى ظروف كتلك الظروف التى اذاعت فيها أوربا عنهم المزعجات من الشائعات ...

وفى هذه الآونة وقع فى صفوف النواب ما نخجل أشد الخجل من ذكره ، فقد انحاز كبيرهم سلطان الى الانجليز بعد أن تودد الى الخديو كما أسلفنا ، وشايعه عدد من النواب ، ولم يكن للوطنيين من عاصم فى هذه المحنة الا الاتحاد والثبات ، وكانما تأبى الايام الا أن تجعل من أبناء مصر بعضهم لبعض عدو ، وكان ذلك لكثرة ما يتكرر منهم ، من باعهم التى فطروا عليها ، ولطالما نكب هذا الشرق المسكين بتخاذله وانقسام أبنائه بعضهم على بعض مع أنهم يرون أبدا أن الظالمين الطامعين فيهم من اهل الغرب فى الكيد لهم بعضهم أولياء بعض ...

وكان انحياز سلطان والمستضعفين من النواب الى انجلترا أولى ثمرات المظاهرة البحرية ، فان سلطانا حينما علم بها من الخديو فكر وتدبر فرأى ان المستقبل للخديو وللانجليز ، فلما حضرت السفن اطمأن الى الانجليز وآثر ان يبادر بالانحياز اليهم لتكون له الحظوة والمكانة عند أولى الجاه والبأس يوم يتخلصون من عرابى على اية صورة ...

وأمثال سلطان هذا انما يعملون لاشخاصهم فحسب ، وعلى ذلك فهم عبيد القوة وان تعاظموا ، وهم أضعف الناس وان تطاولوا ، وهم احرص الناس على عرض الدنيا وان تظاهروا بالنبل والعفة ، وهم انما يدلون بجاه من يركنون اليهم من الاقوياء ادلال الخادم بسيف سيده ، وسنرى يوم يكافأ سلطان بالذهب لا يحصى له عدا وينفى

عرابى من الارض وتصادر أملاكه التى رزقه الله ، ولايبقى له الانجليز فى مصر صاحبا ولا ولدا ...

ونشط مالت وأعوانه من جديد يذيعون أسوأ الانباء عن مصر وبخاصة عن عرابى وحزبه ، حتى لقد وقف جرانفل فى مجلس اللوردات فى اليوم الخامس عشر من شهر مايو سنة ١٨٨٢ يتوعد مصر ويتهددها ، ويصرح فى غير حياء منه مما يكذب به على العالم أن النواب والامة جميعا فى جانب الخديو !

وكانت أكبر دعوى يدعيها مالت أن فى ازدياد نفوذ الحزب العسكرى اكبر خطر على حياة الاوربيين وأن نفوذ هذا الحزب قد بلغ أقصى ما يصل اليه من زيادة ، والواقع أن مالت لم يكن يهمه ما قد يتعرض له الاوربيون من خطر حسب مزاعمه ، وانما كان يهمه الوصول الى غرضه بأى ثمن ولو ذهبت فى سبيل ذلك بعض الارواح ، تجد الدليل على ذلك فى رده على جرانفل حين سأله قبل ارسال الاسطول هل يكون فى ذلك العمل خطر على الانجليز والفرنسيين فى مصر فقد أجابه قائلا : (١) « يشرفنى أن أبلغ فخامتكم انى انا وزميلى الفرنسى نرى أن ما فى وصول الاسطول المشترك الى الاسكندرية من الفائدة السياسية كبير جدا ، يفوق فى أهميته الخطر الذى يمكن أن يصيب بسببه من فى القاهرة من الاوربيين » .

ويعلق روثستين على هذا السرد الذى أخفته الحكومة الانجليزية بقوله : « أن الذى نريد أن نقوله هو أن هذه الرسالة أكبر دليل على سياسة السير ادوارد مالت وبره بالانسانية . ولا ريب أنه لم يكن يقصد اظهارها ، وان الاذن بنشرها فيما بعد لما يؤخذ مرة أخرى على

(١) المسألة المصرية (روثستين) .

مقدرة اللورد جرانفل السياسية ، وان فيهـا دليـلا واضحا على ان كل ما كانوا يخافونه من الاخطار التى يتعرض لها الاوربيون بسبب السيادة العسكرية كان كله زورا وبهتانا ولا غاية منه الا تهيئة السبيل التـدخل المسلح . ومهما يكن من شىء فان‌الامر لايخرج عن احدى اثنتين : فاما ان تكون هذه المخاوف كلها لا أصل لها ، وعندئذ تتبين لنا مقدرة السير ادوارد مالت السياسية، واما أن تكون قائمة على أساس ثابت وعندئذ يتبين لنا مقدار بره بالانسانية . وسواء اكانت هذه ام تلك فان ما قاله السير ادوارد مالت كاف للحكم عليه بأنه من احط طبقات الساسة الدساسين » .

وكان بلنت لايزال يسعى‌سعيه فى انجلترا ، فلما اعلن جرانفل تصريحه أبرق بلنت الى‌عرابى فى اليوم السادس عشر من مايو يقول : « ذكر لورد جرانفل فى البرلمان أن سلطان باشا والنواب قد انحازوا الى الخديو ضدك فان كان هذا غير صحيح فاطلب الى سلطان باشا أن يرسل الى تكذيبا ، اذا تضامنتم فلا خوف‌عليكم . . . الا يمكنكم اقامة وزارة يرأسها سلطان ؟ على اية حال‌عليكم بالثبات»

وأبرق الى سلطان فى الوقت نفسه يقول : « اعتقد أن كل من يحبون مصر يجب أن يتحدوا ، لا تختلف مع عرابى ، ان الخطر جسيم » .

وكذلك أبرق بلنت الى‌كل‌من بطرس باشا وابو يوسف ومحمود باشـا الفلكى والشيخ محمد عبده والشيخ الهجرسى وعبد الله نديم يقول : « هل الحزب الوطنى فى جانب عرابى الآن ؟ الحكومة الانجليزية تدعى‌غير ذلك . اذا اختلفتم ضمنتكم أوربا » .

ورد سلطان على بلنت فقال : « زال الخلاف الذى كان بين الخديو والوزارة ولم يبق له اثر . كلنا متفقون

على المحافظة على الامن والسلام وعلى مناصرة الوزارة الحاضرة » .

وتلقى بلنت كذلك برقية من الشيخ الامبابى شيخ الجامع الازهر نصها : « من الشـيخ الامبابى شـيخ الاسلام ، سوى الخلاف بين الوزارة والخديو ، والحزب الوطنى راض عن عرابى ، والجيش والامة متحدان » .

وأبرق اليه الشيخ محمد عبده بما لايخرج عما جاء فى برقية الشيخ الامبابى ، كما يشير الى ذلك بلنت فى كتابه ...

ولكن أمل بلنت ما لبث أن خاب ، فان مجيء السفن الى الاسكندرية قد ألقى فى روع الخديو أنه اليوم قادر على أن ينزل بالوطنيين والعسكريين مايشاء من انتقام ، وطالما تمنى توفيق أن تواتيه الفرصة فيشفى غليل نفسه من هؤلاء الذين كانت يده مكفوفة عنهم وانه ليكاد يتميز من الحنق عليهم ...

وأخذ سلطان ومعه فريق من المستضعفين كما ذكرنا يمالئون الخديو وينكرون لأمسهم على نحو كم تمنينا لو خلا منه تاريخ القومية المصرية ...

وادى انقلاب سلطان ومن أخذ مأخذه من أشباه الرجال الى ازدياد حرج الوزارة ، وسهل على أعداء البلاد ماكانوا مقبلين عليه يومئذ من عدوان وإثم ...

وود مستر بلنت لو اتحد المصريون فى تلك الآونة التى لم يكن لهم فيها من أمل الا اجتماع كلمتهم ، وانه ليعلم ما كان يدبر لهم من كيد ، والواقع انه ان كان الاتحاد قوة فى كل وقت فقد كان ضرورة كذلك فى هذا الوقت . ومن هذا يتبين لنا مبلغ ماجره على البلاد سلطان ومن معه من أمثال هؤلاء الذين لم يخل منهم جيل فى تاريخ هذا البلد المنكود ، أولئك الذين يكونون عدة الغاصب

أبدا ومطيته الى مطامعه ، دون أن يخالج ضمائرهم أى ندم ، أو أن يميل بهم عن نهجهم شعورهم أنهم يقترفون أشنع الآثام ويأتون أقبح ضروب الاجرام .

وضاقت بالوزارة السبل ، بل لقد أخذت كل سبيل عليها ، وحزبها الامر فما تغنى فيه حيلة ، فها هو ذا الخديو أداة فى يد الانجليز ، وها هم أولاء بعض النواب يظهرون بمظهر الانقسام والتخاذل ...

واضطرب الوطنيون ممن يشايعون الوزارة ، وأخذ يتسرب الوهن الى النفوس وتناصرت وساوس اليأس على حجج العقول ، فزين لبعض الوطنيين أن يتخلصوا من الخديو فيأخذوه غيلة سرا أو علانية فما لهم مما هم فيه مخرج غير هذا .

لم يعمل سلطان بما أشار به بلنت فى برقيته ، فانه لم يبق يومئذ على حب بلاده ، وانما غدا من الامعات الطامعة ، ولقد رأى الدنيا مقبلة على الخديو مدبرة عن عرابى ، فآثر أن يكون له على الخديو يد فينال عنده الحظوة فى غد كما أسلفنا ، ولكنه ظل على الرغم من ذلك يتذبذب بين الجانبين شأنه فى ذلك شأن كل امعة ، فبينما نراه يعارض الوزارة فى موقفها من الخديو اذا به يرسل تلك البرقية التى أشرنا اليها فى اليوم السادس عشر من شهر مايو الى بلنت ردا على برقيته .

أما الوزارة فقد رضيت أن تخطو فى ذلك الموقف العصيب خطوة نحمدها لها كل الحمد ، بل انا لا نجد من عبارات الثناء ما يفى بما فعلت فى ظرف كهذا الظرف

لم تهتم الوزارة بما عسى أن يفسر به عملها من ذلة وخوف ، فتوجه الوزراء الى الخديو ، وأعلنوا لديه ولاءهم له وعبروا عن رغبتهم فى الوئام ، فمصلحة الوطن مقدمة على كل اعتبار ، واحباط كيد الكائدين هو الواجب

الوطنى الذى لايقدم عليه واجب غيره ، ويقال ان سلطان توسط فى ذلك فأخذ دور الشـفيع ليتصـل بكل من الجانبين بسبب ، ولعل هذا يفسر رده على برقية بلنت

آثرت الوزارة مصلحة البلاد فقبلت أن توصف بالمذلة من أجل مصر ، وكان موقفها موقف القائد الشجاع الذى يفعل ما يعتقد أنه الصواب دون أن يبالى بما عسى أن يقول الناس ، فينسحب ليجمع قواته ويعيد النظر فى خططه غير مكترث بما قد يفسر به الانسحاب فى ذاته .

يقول روثستين فى كتابه « المسألة المصرية » (١) وكان السخط على الخديو آخذا فى الازدياد ولولا الخوف من انتقام الدولتين لخلع توفيق ، ولكن كثيرا من النواب قد عارض فى ذلك الامر وانقسم المجلس على نفسه ، فانحاز رئيسه سلطان باشا الى جانب العدو دفعة واحدة وأخذ يعمل على اسقاط الوزارة ، ورأى غيره من الاعضاء أن يسعوا مرة أخرى للتوفيق بين الطرفين وتخفيف الازمة بشىء من التساهل . وبينما هم كذلك اذا بالاسطول الفرنسى قد وصل فى ١٥ مايو واذا باللورد جرانفل قد بعث فى اليوم نفسه الى السير ادوارد مالت برقية مضمونها أنه فضلا عن المظاهرة البحرية فانا نحفظ لانفسنا الحرية فى أن نستخدم من الوسائل مانراه ضروريا لاقرار النظام والمحافظة على سلطة الخديو . وقد قرر عرابى ورفاقه أن يعملوا بمشورة القائلين بالسعى مرة أخرى للتوفيق بين الطرفين فذهبوا بأجمعهم الى الخديو وعرضوا عليه خضوعهم التام ، وذهبوا كذلك الى مالت وأكدوا له أنهم سيبذلون غاية جهدهم فى حفظ السكينة العامة . يا أسفا عليهم ! لقد ظهروا فى مظهر مؤلم للنفس

---

(١) اسم الكتاب الحقيقى : The Ruin of Egypt. تخريب مصر .

وقد يكون غير مشرف لهم ثم هم لم يجنوا من ورائه شيئا على الاطلاق » ...

على أن موقف الوزارة لم يخل على أية حال من فائدة ، فقد أراد الوزراء بما فعلوا أن يبطلوا حجة القائلين بوجوب التدخل لتفاقم الخلاف بين الخديو ووزرائه ، وهم ان لم ينجحوا وأصر الخديو على انحيازه الى أعداء البلاد ، أظهروه بمظهر المتجنى الذى لايريد أن يغفر لهم حتى فى مثل هــذا الموقف ما زعم أنه كان من دواعى الخلاف ، وهذا أسلوب سياسى جدير بكل اعجاب...

ولا يضــح أن يقول قائل انه كان أولى بالوزارة ألا تغضب الخديو من أول الامر . لايصح أن يقال ذلك بعد الذى بيناه من مكر السياسة الانجليزية ، فالنية مبيتة من قبل على التهام مصر ، ونعود فنكرر ما قلناه انه لو لم يوجد عرابى لعمل الانجليز على خلقه ...

وكأن الذين ينكرون على الوزارة اغضابها الخديو من أول الامر يريدون أن يقولوا انه كان على الوزارة أن ترضى بالحكم المطلق ووأد الدستور ، وتسلط الشراكسة ، واذلال مصر بالقضاء على حركتها القومية الناشئة حتى لايغضب الخديو ، أعنى أنه اذا خير الوطنيون بين التمسك بالدستور واغضاب الخديو ، وبين وأد الدستور وارضاء الخديو ، كان عليهم أن يقبلوا الوضع الثانى والا كانوا طائشين مفسدين فى الارض . وهذا كلام لايستحق أن يوضع موضع المناقشة ...

لقد سلكت الوزارة المسلك الوطنى الذى يتفق وهذه الحركة الوطنية الدستورية التى بدأت فى مصر منذ عهد اسماعيل فكانت حركة طبيعية اقتضاها تطور الاحوال وعملت على وجودها عوامل كالتى عملت فى كافة الامم التى سبقت مصر الى الدستور والحرية ، ولقد بينــا

اتجاه الوزارة وقدمنا الادلة على صدق وطنيتها وعلى ما كانت تتوخاه من ضروب الاصلاح ...

وما كان التجاؤها الى الخديو تنازلا منها عن مبادئها فهذا ما لايتصوره عقل والا كانت الحركة من بدايتها الى نهايتهـا لعب لاعب ، وانما أرادت الوزارة الوئام والصفاء وازالة ماتركه حادث المؤامرة الشركسية فى نفس الخديو من غضب ، فهو نوع من الاعتذار والتودد تقتضيه مصلحة الوطن اتقاء لخطر محدق بالبلاد .. أما الدستور وسلطة الامة وما يتصل بها من مبادىء الحرية والقومية فدون التنازل عنها ، بل دون التساهل فيها بذل الرقاب

وكان توفيق خليقا ألا يميل الى المعتدين من غير دينه ، ولقد كان لهذا الاعتبار الدينى شأنه العظيم فى النفوس يومئذ ، وكان كذلك خليقا أن يدرك أن عدوانهم على مصر هو فى ذاته عدوان على السلطان صاحب الحق الشرعى وصاحب الولاية عليه ...

ولكن توفيقا لم يعد يبالى بالسلطان فلقد اطمأن الى قوة الدولتين وبخاصة انجلترا ، وكان الى جانبه مالت يوحى اليه ما يشاء ويزين له ما يريد ويقوى عزمه كلما آنس منه تخاذلا عما كان يدفعه اليه ، ولاريب أن موقف الخديو كان يزداد بذلك حرجا أمام البلاد وأمام السلطان مهما سندته الدولتان ...

وأوحى مالت الى الخديو الا يثق بما يقول وزراؤه ، وما كان توفيق فى حاجة الى هذا الذى يوحى به مالت ، فهو يتطلع الى الساعة التى يلطم الوزارة فيها لطمة تشفى ما بنفسه من غل ...

ولم يطل ترقبه تلك الساعة ، ففى اليوم التاسع عشر من شهر مايو أوعزت الحكومتان الى ممثليهما أن يشيرا على الخديو بأن يغتنم فرصة وصول السفن الى الاسكندرية

فيطيح بالوزارة ، ويعهد بتأليف وزارة جديدة الى شريف باشا أو الى سواه ممن تتوفر فيهم مثل ثقتهما فى شريف

ورد المثلان بأن المسألة ليست من السهولة بحيث يصنع الخديو ذلك ، فلن تقوم فى البلاد وزارة غير الوزارة القائمة ما دام للحزب العسكرى ما له فيها من نفوذ وسلطة ...

واقترح مالت أن يشير على عرابى وثلاثة من أشهر رجاله بمغادرة مصر ، وبدأ فعلا يسعى الى ذلك فاختار أحد موظفي القنصلية الفرنسية ليفاوض عرابيا لان هذا كان يعرف العربية ، ولكنه رفض أن يلعب هذا الدور، ففوتح سلطان فقبل فى غير خجل ، وذهب يشير بذلك على عرابى فعظمت دهشة الوزير ! ورفض أن يسمع بقية الحديث ، وأعلن اصراره على عدم ترك مصر مهما يكن من الامر ، وأكد أنه لن يترك منصبه فضلا عن موطنه فى تلك الظروف .

ووصل هذا الحديث الى الضباط فقابلوه بالاستياء حتى لقد صرح أحدهم على مسمع من أحد رجال القنصلية الفرنسية أن الجيش يمزق عرابيا اذا هو أعتزلهم يومئذ

وأخذت الوزارة تتأهب لملاقاة ما كان ينذر به الموقف من جسيمات الحوادث ، وصمم الوزراء الا يقروا أى تدخل لانجلترا وفرنسا وأن تكون اجابتهم على أى انذار رسمى أنهم لايعترفون بسيادة غير سيادة السلطان .

وتزايد انحياز الرأى العام الى عرابى بقدر ما تزايد سخطه على الخديو والاجانب ، ومن انحاز اليهما من الامعات والمستضعفين ، وعاد بعض الذين أشفقوا من الحزب الوطنى ينضمون اليه فى تلك الساعة الرهيبة وشاعت فى البلاد دعوى المحافظة على حقوق السلطان أمير المؤمنين وحامى حمى المسلمين ...

وهنا نسأل الذين يستريبون فى شجاعة عرابى وزعامته : أيرون دليل جبنه فى اصراره هذا على البقاء فى مكانه مخلصا لواجبه ؟ لقد كان من اليسير عليه أن يسافر الى القسطنطينية أو الى أوربا متحيزا الى السلطان أو الى انجلترا وكانت انجلترا ترحب بذلك كل الترحيب وتطرب له أشد الطرب ، ولكن ما هكذا يفعل الرجال ...

لقد صمم عرابى على البقاء حيث هو كما صمم سعد زغلول على البقاء فى مكانه مخلصا لواجبه حين طلب اليه فى موقف من مواقف جهاده أن يذهب الى عزبته ليقيم بها تحت مراقبة مدير الاقليم ، وآثر عرابى أن يواجه المحنة والبلاء كما آثر سعد أن ينفى من مصر ، ولكن الامة التى وضعت على رأس سعد من أجل ذلك أكاليل الغار ، لايزال فريق من أبنائها ينسبون الى عرابى البطل أسباب الهزيمة والعار !..

وصمم عرابى على امتشاق الحسام ليجاهد فى سبيل مصر أشق الجهاد وأعظمه وليكن بعد ذلك ما يكون فاما نصر ، واما فناء ، أما مغادرة مصر فى ساعة العسرة ، فذلك هو الهرب الذى لا يفعله الا الجبناء ...

ولما فشل مالت فى طريقته الشخصية اتفق وزميله الفرنسى فأرسلا الى حكومتيهما يطلبان أن تطلق يديهما كى يتقدما الى الحكومة المصرية رسميا بمذكرة تنص على ابعاد عرابى من مصر هو وكبار العسكريين على أن تؤيد المذكرة بعمل ايجابى فى حالة ما اذا رفضت ، ومما ذكره مالت قوله : « ان الموقف الحالى قد سببه الوزراء ، والناس يعتقدون أن انجلترا وفرنسا لن ترسلا جنودا ، وان معارضة فرنسا تجعل تدخل الترك مستحيلا» (١)

(١) M. Egypt

وأرسل عرابى كتابا الى بلنت فى اليوم الحادى والعشرين من شهر مايو ، ومما جاء فيه قوله : « ان جميع الاهالى ليطوف بهم الحزن لمجيء السفن الانجليزية والفرنسية وهم يرون فى هذا العمل ما يبيت من سوء للبلاد كما انهم يرون فيه عدوانا لامبرر له ولا ضرورة تدعو اليه. على أن المصريين قد صمموا على ألا يسلموا للدولة التى تريد أن تتدخل فى شؤونهم وفى ادارة البلاد الداخلية ، وهم كذلك قد جمعوا عزمهم على الاحتفاظ بالامتيازات التى ثبتتها المعاهدات ، ولن يسمحوا لاحد بانتقاص هذه الامتيازات أو مسها مادام فيهم رمق ، وهم فى الوقت نفسه حريصون على المحافظة على مصالح الاوربيين وحياتهم وممتلكاتهم ماداموا لايتعدون الحدود التى رسمتها لهم القوانين ، ونحن جميعا نبذل ما فى وسعنا فى أداء واجبنا ، وعلى الله اتكالنا فى الدفاع عن حقوقنا وبمعونته سننال غايتنا ، وتنحصر غايتنا فى اسعاد الوطن ونشر الامن والسلام بين سكانه ، ولا زلنا نأمل فى عدالة أوربا الا تتعدى علينا ، بل انا على خلاف ذلك نرجو أن يحسنوا سلوكهم معنا لان فى هذا مصلحتهم وهو يؤدى الى تحقيق رغباتهم ، وجدير بانجلترا ألا تثق بوكلائها هنا فانهم قوم لهم مآرب خفية شخصية يبتغون تحقيقها، ونرى أن نجاحهم فى تحقيق مآربهم يعود بالضرر على بلادهم وعلى حكومتهم ، وفى هـذا القدر ما يكفى الآن وسيأتيك الغد بما يجد من الانباء » (١)

ولكن ماذا كان عسيا أن يفعل بلنت وقد نشط مالت فى اذاعة أسوأ الاخبار عن مصر واحباط كل سعى يؤدى الى نجاتها ؟

يقول بلنت فى كتابه مشيرا الى برقياته وما جاءه عنها

(١) S. H. Blunt. P,

من ردود : « ولكن جاء الصباح فذهبت آمالي أدراج الرياح وانقلب فوزى هزيمة ، فقد كنت قضيت الليل بمنزلي بلندن فى شارع جيمس رقم ١٠ وأرسلت فى طلب الصحف فوجدت فيها جميعا برقية لشركة روتر وفيها نص البرقية التى أرسلتها الى أعضاء المجلس فى مصر، وقلت لهم فيها ان أوربا ستضم مصر ، وفيها أن شيخ الاسلام تبرأ من الرد الذى جاءنى باسمه ، ووجدت فى صحيفة ذى ستاندارد برقية من مراسلها بالقاهرة ، مؤداها ان سلطان باشا صرح له أن يكذب البرقية التى أرسلتها والتى نشرت بالتيمس ، وان برقية سلطان هذه انما كتبت تحت تأثير الارهاب العسكرى » ...

وعلى أى حال فما كان يغنى عن بلنت صدقه وحسن مسعاه ، وقد رسمت السياسة الانجليزية الخطة التى نتنهجها ولقـد كانت الحكومة الانجليزية على علم بكل شيء ولذلك فما كانت بها حاجة الى دفاع بلنت وأنبائه

وهل كانت انجلترا تتحرى فى المسألة وجه الصواب حتى تسير على هدى ما تعلم؟ حسب الانجليز أن يحققوا أطماعهم التى طال بهم العمل على تحقيقها فى مصر ، ذلك هو الواقع الذى لا يغيره جدال مهما طال ، وليجر بعد ذلك بلنت فى مضماره ماشاء ، وليطلق هـذا الشاعر الذى يعطف على حرية المصريين وآمالهم العنان لخياله حسبما يريد ، فلن يؤثر ذلك فى مجرى الحوادث ، ولن يغير شيئا مما عقد النية جلادستون وجرانفل عليه ..

والسياسة على أى حال شيء ، والشعر والاحلام شيء آخر ، وكثيرا ما سخر الساسة من أماني دعاة الانسانية وضحكوا ملء أفواههم من هؤلاء الذين يحلمون فيتخيلون احلامهم حقائق راهنة كما يتخيل الاطفال !

تلقت الحكومة المصرية ، وتلقى الخديو فى اليوم الخامس

والعشرين من شهر مايو المذكرة المشتركة الثانية وفيها تطلب الدولتان : « أن يخرج عرابى باشا من مصر مع احتفاظه بلقبه ورواتبه ، وان يبتعد كل من عبد العال باشا وعلى فهمى باشا الى داخل القطر مع احتفاظهما كذلك بلقبيهما وراتبيهما وأن تستقيل الوزارة الحالية من الحكم » ...

ومن أعجب الامور أن ممثلى الدولتين قد عزيا هذا الطلب الى ما نصح به سلطان باشا لرئيس الوزارة ، فقد جاء نصه كما يأتى : « ان ممثلى فرنسا وبريطانيا العظمى الموقعين على هذا يحيطان علم عطوفتكم بأنه من حيث أن عاطفة الوطنية حملت سعادة سلطان باشا رئيس مجلس النواب وكذا رغبته فى تأييد سلم مصر ورفاهيتها على عرض الشروط الآتية على عطوفتلو محمود سامى باشا رئيس مجلس النظار اذ راى أنها الواسطة الوحيدة لوضع حد لحالة الاضطراب فى مصر » ... ثم أوردا بعد ذلك الشروط أو الانذار ... ولقد أنكر الوزراء وساطة سلطان باشا كما أن سلطان تنصل منها ...

قال الشيخ محمد عبده (١) «حصلت مذاكرة فى المذكرة التى قدمها وكلاء الدولتين بحضور سلطان باشا والنظار فوضع سؤال : هل يمكن لنا أن نجمع المجلس ؟ فأجاب سلطان : أظن ان ذلك لايكون الا بأمر الخديو فنسأله فى ذلك ولاريب أنه يوافق عليه ، فقال له أحد النظار : الخديو الذى كنت تطلب خلعه ان لم يكن قتله قبل أيام؟

قبل هذا جاء كلام فى الخديو فى جلسة فطلب سلطان باشا قتله وأبى عرابى وكان سلطان يقول : اقتلوا الثعبان سلالة الجناة الناهبين الذين باعونا للأجانب ... هذا هو سلطان الذى كان رئيس الحزب الوطنى وهو لايريد

(١) تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده صفحة ٢٤٢

الآن الا مجاملة الخديو ، ذلك الخديو الذى لايبغى الا بيع البلاد للأجانب (١)

اجتماع مجلس النواب حق للشعب ، ونحن نوابه ولا بد لنا أن نطلب النواب الى القاهرة حتى لو اراد عرابى أن يوافى ماطلب من ابعاده ارضاء للسياسة الاجنبية فليفعل ، أما نحن فلا نخضع لمثل هـذه المطالب مهما ادى اليه الخلاف ...

سلطان رجع عن رأيه الى راى الحاضرين مع الحيرة فيما وعد به الخديو والقنصلين وفيما اضطر اليه من موافقة الثائرين » ...

قررت الوزارة فى غير تردد رفض هـذه المذكرة المشتركة الثانية وأبلغ هذا الرفض الى ممثلى الدولتين ومما جاء فيه قول الوزارة : « ان سعادة سلطان باشا صرح أمام الوزراء عند انعقاد مجلسهم بأن أعاد على رئيس مجلس الوزراء ذكر محادثةجرت بينه وبين قنصل جنرال فرنسا ، وانه لم يبدأ بذكر مقترحات أو اشارات لايعنيه أن يقدمها ولا يبديها باسمه الشخصى، ولا بصفة كونه رئيس مجلس النواب فان هذا المجلس غير ملتئم الآن ، أما الطلبات المدونة فى اللائحة التى قدمها قنصلا انجلترا وفرنسا فتتعلق بمسائل داخلية تختص بالامور الادارية التى اعترفت الدول الكبرى دائما بأن حرية العمل فيها من خصائص الحكومة المصرية ، ولايمكن لحكومة الجناب الخديوى أن تولج فى باب المناظرات والمباحثات فى هذه القضايا بدون التعدى على الفرمانات السلطانية والمعاهدات الدولية التى حددت مقام مصر الخصوصى وبدون نقض القوانين الشورية لهذه البلاد

(١) يعلق الشيخ رشيد على هذه العبارة بقوله « أى بحسب رايه » اعنى رأى سلطان .

التى هى أعظم كفالة تتكفل ببقاء الحال على ما هو عليه »

وأصر الوزراء وفى مقدمنهم عرابى على موقفهم ، هذا الموقف الوطنى الجليل ، وأيدهم كبار الضباط وأعلنوا أنهم معهم ولو أدى الامر الى القتال ...

ولكن ماذا عسى أن يغنى عن الوزارة جلال موقفها فى هذه الازمة العصيبة ، ولم يمض يوم واحد حتى قبل توفيق مذكرة الدولتين ، وأعلن ذلك فى غير تحرج من هذا الفعل على شناعته البالغة ؟

ولم يجد البارودى بعد ذلك مناصا من الاستقالة ، فكتب استقالة الوزارة على النحو التالى :

« القاهرة فى ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢ :

ان جنابكم العالى قد بلغنا عند وصول الدونمتين : الانجليزية ، والفرنسية بأنكم حررتم الى الآستانة بطلب التعليمات ، ولما كنا منتظرين ورود خطاب من الباب العالى واذا بقنصلى فرنسا وبريطانيا الكبرى قدما لحضرة رئيس مجلس نظاركم لائحتهما بتاريخ ٢٥ مايو، وبناء على أوامر جنابكم العالى اجتمعنا والتأم مجلسنا وقرر هذا الخطاب المرفق مع هذا ، وعندما توجهنا الى جنابكم العالى لاستشارتكم أخبرتمونا بأنكم قبلتم لائحة وكيلى فرنسا وبريطانيا العظمى ، وهذا القبول مباين لما أجمع عليه رأى كل النظار اجماعا كليا ، فان قبول تدخل الدول الاجنبية فى هـذه القضية يمس بحقوق الحضرة السلطانية ، وبناء على ذلك نتشرف بأن نقدم لجنابكم استعفاءنا جميعا » ...

ولم يتردد الخديو، وكان وراءه مالت،فى قبول استقالة الوزارة قائلا انه يقبلها لان هذه هى ارادة الامة ، وفيما عدا ذلك فانها أمور بينه وبين السلطان الذى يحترم حقوقه دائما . وتنفس الخديو الصعداء ، ظانا أن الامر

انتهى الى غايته ، ولم يعلم أن صنيعه هذا كان معجلا بالكارثة ، بل لقد كان هذا الصنيع فى ذاته هو الكارثة ، فلولا ما كان من ركونه على هذه الصورة الى الاجانب ، ما أقدمت انجلترا على تنفيذ ما بيتته طويلا من غدر بالبلاد ...

ومع ذلك فان كارثة الاحتلال لازالت على ألسنة بعض المصريين تنسب الى عرابى ، ذلك الرجل الذى تلفتت القلوب اليه وقد اشتدت الازمة وأزفت الآزفة تأمل على يديه النجاة من الخطر المحدق ...

ان القضيـــة كلها يمكن تلخيصهـــا وقد قرب دوى العاصفة فى كلمة قصيرة ، هى أن خلافا داخليا وقع فى مصر بين الخديو المتمسك بالحكم المطلق وبين زعمـــاء الشعب المتمسكين بالحكم الدستورى ، فانتهز الانجليز هذه الفرصة لتحقيق نياتهم المبيتة من قبل هذا الخلاف ولم يشأ الخديو أن يتنازل عن مبدأ الاستبداد فركن الى الاجانب ليتخلص من الوطنيين ، وعمل هؤلاء الثعالب على زيادة الخلاف وعلى راسهم مالت كبير شياطينهم ، حتى كانت المذكرة المشتركة الثانية وهى الضربة التى تصيب الحركة القومية فى مقتل ، فلم يجد عرابى وأعوانه بدا من دفع هذا العدوان الفاجر عن البلاد انفة وحفاظا ولو ذهبت أرواحهم فى سبيل ذلك ...

فليت شعرى كيف كان ينتظر منهم أن يفعلوا غير ذلك فى موقف كهذا الموقف ؟ ألا فليحتـــرموا عقولهم أولئك الذين يردون ســـبب الاحتـــلال الى عرابى ، ان كانوا يرجون لانفسهم ولوطنهم وقارا ...

عرابي ملاذ البلاد

كان لقبول استقالة البارودى أسوأ وقع فى البلاد جميعا ، واحس الناس فيها نذر الخوف وبوادر العاصفة وقر فى نفس كل وطنى أن الخديو اليوم فى قبضة الاجانب وبخاصة الانجليز وان مالت هو الذى يحركه ويوحى اليه ما يريد ...

ولم يعد خافيا على اقل الناس دراية مغزى قبول الخديو المذكرة الثانيه ومغزى قبول استقالة الوزارة .

وأظهر توفيق صرامة لم يالفها الناس منه ، فاصر على قبول استقالة الوزارة على الرغم من احجام شريف ومصطفى فهمى وغيرهما عن تاليف وزارة جديدة ...

وبادر توفيق بارسال أمر منه الى المديرين قال فيه : « بما أن هيئة النظار الحاضرة استعفت وصار قبول استعفائها فليكن معلوما ذلك لديكم لتصرفوا جهودكم وقدرتكم فى المحافظة التامة منكم ومن مامورى المديرية الموكلة لادارتهم والدقة والانتباه لحسن سير الاشغال والمصالح المتعلقة بكم ، كما أنه من حيث ان السفن الحربية الاجنبية التى حضرت الى الاسكندرية لم يكن حضورها الا بوجه سلمى فقط ، ولم يكن هناك شىء آخر خلاف ذلك ، فليس هناك لزوم لارسال احد من عساكر الامدادية الذين صار طلبهم أخيرا بمعرفة

الجهادية ، بل ان الموجود منهم تحت الحضور لهـذا الطرف يصير اعادته لبلده ، والذى تحت الحضور من البلاد يتنبه بصرف النظر عن حضوره ، واعلان المراكز والاقسام بالتنبيه على مشايخ وعمد البلاد بهذا المضمون للعلم بعدم الافتضاء لجمع عساكر ، وانتباه لل لاشغاله وزراعته بدون اشتغاله فى غير ذلك ، هـذا وان الامور المهمة التى كان قد جرى العرض عنها لنظارة الداخلية يجب ان يعرض عنها من الآن لمعيتنا الى أن تشكل هيئة نظاره جديدة كما هو مطلوبنا » .

وهذه أوامر من الخديو تعد بالغة الخطورة ، فهو يهون من حضور السفن الاجنبية ، ثم يريد أن يحبط الدفاع الوطنى وذلك بمنع ارسال الجنود التى كانت وزاره البارودى قد استدعتهم من الجيش الاحتياطى قبل استقالتها ، وهو يحث الناس على الاشتغال بالزراعة دون غيرها أعنى الا يلبوا اذا دعا داعى الجهاد وفوق ذلك جميعه فهو يستبد بالامر كى يلقى فى روع الناس أنه السيد الوحيد الذى يجب طاعته فى البلاد.

وأى رضاء بالاحتلال والتمهيد له يكون أصرح مما يفعل توفيق بأوامره هذه فى وقت كذلك الوقت الذى يحدق فيه الخطر بالبلاد ؟

انما يريد توفيق أن يعترض طريق ثورة مشروعة فى مصر مبعثها تدخل الاجانب فى شئونها الداخلية توطئة لالتهامها ، وأن يظهر عرابيا ومن معه بمظهر العصاة المتمردين ، الذين يعمل هو ومن يعضده من الاجانب على قمعهم والقضاء عليهم وليس أكثر من هذا الذى يفعل ممالأة للعدو واندماجا فى سياسته ..

ولكن ما لبث توفيق ومؤيدوه أن تبينوا أن الامر ليس من السهولة كما تصوروا ، وان أمامهم من الصعاب

ما ينوء من حمله أقدر الرجال ...

وكان مالت قد تصور الامر هينا كما تصوره توفيق، فقد أبرق الى جرانفل فى اليوم التالى لسقوط الوزارة يقول : « رأى الوزراء أنهم اذا رفضوا الشروط التى قبلها توفيق فانهم بذلك يبيتون فى ثورة مكشوفة بدلا من ثورتهم المستترة وهذا موقف أشفقوا منه ، وعلى ذلك فان سقوط الوزارة يرجع الى المسلك الحاسم الذى سلكه سموه » (١) .

واطمأنت كذلك الحكومة الفرنسية وظنت ان مصر قد ماتت فيها روح المقاومة بسقوط الوزارة السامية وكانت انجلترا قد عادت الى مراوغتها فىاليوم الرابع والعشرين من مايو اى قبل سقوط الوزارة بيومين فاقترحت على فرنسا أن تحاط الدول علما بما تراه انجلترا من علاج للحال وهو أن يكون جيش تركى على أهبة الاستعداد للذهاب الى مصر ، فكتب ممثل فرنسا فى لندن الى جرانفل قبل سقوط البارودى بيوم يقول : « أبرق الى مسيو دى فرسنيه أن مجلس الوزراء الذى عرض عليه مقترحكم قد أجمع رأيه على أنه ليس فى الموقف الحالى ما يبرر الالتجاء الى قوة تركية ، فقد وصلتنا مذكرة من قنصلنا العام بمصر فى اليوم الخامس والعشرين من هذا الشهر وفيها أن الوزارة فى سبيلها الى الاستقالة وأن عناصر المقاومة فى طريقها كما يتضح الى الانحلال ، وعلى ذلك فلدينا كل ما يدعو الى انتظار ما عسى أن تصير اليه الحوادث » (٢) .

ولكن مالت ما لبث ان أبرق الى حكومته أنه قد طلب الى شريف باشا أن يؤلف وزارة فرفض ذلك مصرحا

---

(١) ، (٢) M. E. Cromer.

بأنه لايمكن اقامة حكومة فى مصر طالما يقيم بها العسكريون، ثم قال مالت : « ولكن الخديو يحاول الآن اقامة وزارة ولو أن أمله ضعيف فى أن يوفق الى وزارة ذات كفاية ان كان ثمة من أمل فى امكان قيام وزارة ما » (١) .

وعاد مالت يقترح أن يستعان بالسلطان ليعيد النظام فى مصر وذلك بأن يرسل ضابطاً من لدنه فى أقرب وقت « وكذلك يرى توفيق أن مبعوثا تركيا يمكنه أن يسمع العسكريين صوته وأن يعيد الى مصر الهدوء » .

والحق أن سقوط الوزارة السامية قد هز البلاد من أعماقها ، وبات الناس يتوقعون الاعتداء فى كل لحظة ، ولم تبق فى البلاد هيئة أو طبقة الا أسخطها مسلك الخديو . قال عرابى فى مذكراته (٢) : « وما طير البرق خبر استعفاء الوزارة واحتجاجها على قبول الخديو للائحة انجلترا وفرنسا حتى بلغ الاضطراب فى جميع بلاد القطر مبلغا عظيما وأخذ القلق من النفوس مأخذا جسيما ، فكثر اللغط وزادت بواعث الايجاس والخوف ثم حضر الى العاصمة جميع أعيان البلاد ومستخدمى الحكومة وقدموا لنا مئات العرائض بواسطة مديريهم محتجين فيها على عمل الخديو هذا وطالبين أحد أمرين : اما رفض اللائحة المشتركة المذكورة ، واما عزل الخديو الذى قبل تدخل الاجانب فى أحوال البلاد الداخلية » .

ويتبين لنا مبلغ ما لقى توفيق من عسر فى الاجتماعين اللذين عقدهما فى الصباح وفى المساء برئاسته بسراى الاسماعيلية فى اليوم التالى لسقوط الوزارة ، ففى اجتماع الصباح حيث شهده النواب وكبار العلماء والاعيان وكبار الموظفين ، عرض الخديو الوزارة على

---

(١) M. E. Cromer.

(٢) من نسخة من مذكراته المخطوطة تحت يدى ص ٢ الجزء الثانى .

شريف باشا فاعتذر واصر على اعتذاره ، وحضر أثناء الاجتماع قنصل فرنسا العام ينبىء الخديو بأن برقيــة وردت عليه من حكومته تأمل فيها فرنسا أن يقبل شريف باشا الوزارة وستعضده الحكومة الفرنسية بكل جهودها ولكن شريفا ظل على احجامه وخوفه ... ثم اشترط أن يقبل وزارة الحربية معه عمر باشا لطفى محـــافظ الاسكندرية فرفض ذلك عمر باشـــا ، وعرض الخديو رئاسة الوزارة على عمر فأشفق منها ...

وفى اجتماع المساء صارح الخديو المجتمعين بأنه سوف يشكل الوزارة برئاسته وستكون له وزارة الجهادية ثم عاد يبين للمجتمعين ماحدا به الى قبول مذكرة الدولتين، وهدد الخديو وتوعد وقال انه مع عفوه عما مضى لن يسمح بعصيان أو مخالفة فى المســتقبل ، ثم أراد أن يخفف من وقع البوارج الحربية فعاد يؤكد أنها ماجاءت الا لاغراض سلمية ...

وكل ذلك يدل على مبلغ ما أحاط بتوفيق من حيرة كما يشير الى شدة شعوره بما يجد فى نفسه من حرج مما فعل ، وان تظاهر أنه لا يبالى بشىء ...

وتكلم طلبه باشا عصمت أحد الزعماء العسكريين ، فقال يرد على تهديد الخديو : « اننا مطيعون جميعــا للجناب السلطانى الشاهانى وللجناب الخديو ، ولكن هذه اللائحة يستحيل علينا تنفيذها ، ولا حق للدولتين فى طلب تنفيذها ، فهى تتعلق بمسائل من اختصاص الباب العالى أن ينظر فيها ويستحيل علينا قبول أحــد رئيسا للجهادية خلاف رئيسنا أحمد عرابى باشا » (١)

(١) مذكرات عرابى المخطوطة : وقد أورد كرومر هذه الحادثة فى كتابه وزاد عليها أن طلبة قال ان السلطان هو السلطة الوطنية التى يقرونها .

وفى هذا الـكلام تحد صريح للخديو يدل على مبلغ ما كان فى نفوس العرابيين من استياء منه ، ومن حماسة وطنية أوقد جذوتها مسلكه بانحيازه الى الاجانب .

وزاد الموقف خطورة أن ورد على الخديو برقية من كبار رجال الجيش والشرطة بالاسكندرية يقولون فيها انهم لايطمئنون لغير عرابى ناظرا للجهـادية وانه اذا مضت اثنتا عشرة ســاعة ولم يعد عرابى الى منصبه فهم غير مسئولين عما تفضى اليه الحوادث ...

وكان مالت لاريب فرحا لوقوع توفيق فى مأزق كهذا ، فان ظاهر الامر يؤيد قوله ان تسلط الجيش هو سبب كل خوف ، وان كانت حقيقة الامر تقطع بأنه هو وكلفن كما بينا أصل كل المصائب ...

ويذكر كرومر فى كتابه « ان سلطان باشـا وبعض النواب أخبروا الخديو فى حضور القنصـلين الفرنسى والانجليـزى انه ما لم يوافق على اعادة عرابى وزيرا للجهادية فان حياته يحف بها الخطر » .

وعلى الرغم من ذلك ، كما ذكر كرومر أيضا ، فان الخديو أصر على رفضه كما جاء فى تقرير مالت ...

وفى نفس اليوم الذى عقد فيه الخديو اجتماعيه عقد اجتماع شعبى فى دار سلطان باشا وقد شـهده كبار العلماء والنواب ، كتب عرابى يصف هـذا الاجتماع فقال : « فى ليلة السبت ٢٧ مايو سنة ١٨٨٤ دعيت الى منزل محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، فذهبت اليه ومعى اخوتى على باشا فهمى ، وعبد العال باشـا حلمى ومحمد بك عبيد ، وغيرهم من الاخوان ، فلمـا وصلنا المنزل المذكور وجدناه غاصـا بأعضـاء مجلس النواب ومعهم قاضى قضـاة مصر الشيخ عبد الرحمن نافذ والشيخ عبد الهادى الابيارى امام المعية ، وحصل

الاتفاق على ملازمة الراحة والسكون وان الخديو يرفض اللائحة الثنائيـــة ويأمر برجوعى الى نظارة الجهـــادية والبحرية ، أو يعزل عزلا ، وفى أثناء ذلك حضر بحديقة المنزل جماعة من الضباط والنبهاء من الملـكية وغيرهم وصـــاحوا بقولهم : اعزلوا الخديو الذى دعا الاجانب للتدخل فى أمرنا وتهديدنا بأساطيلهم ...

ثم خرجت بمن معى من الضباط وتوجهنا الى منزل محمود باشـــا سامى فوجـــدنا كثيرا من الذوات هناك ينتظرون ماعسى أن يحدث من مخبآت الدهر فقابلنـــا عبد الله باشا فكرى الذى كان أستاذا أو مربيا للخديو فى صغره وقال لنا : ان قتلتموه ؟ فقلت له : من تعنى؟ فقال : أعنى الخديو ، ألم يقتل ؟ فقلت له : اننا لا نقتل أحدا بغير حكم شرعي فلا يليق بك أن تتكلم بهذا الكلام ثم توجه كل منا الى منزله »

وفى اليوم الثامن والعشرين من مايو ، أبرق الصدر الاعظم الى الخديو ينبئه بأن « مبعوثا من لدن السلطان يرسل الى مصر اذا تلقى السلطان طلبا رسميا بذلك» (١) وكان ذلك ردا على ما أرسله توفيق الى الآستانة فى اليوم التالى ليوم استقالة الوزارة من أنباء مؤداها أن الجند غير راضين عن اسقاط الوزارة وان الوزارة احتجت فى استقالتها على تدخل الدولتـــين ... واشترطت تركيا هذا الشرط لايفاد المبعوث خوفا من انجلترا وفرنسا ان تغضبا اذا هى تدخلت من تلقاء نفسها ...

وســـأل توفيق القنصلين ماذا يصنع فيما جاءه من الصدر الاعظم ؟ وأبرق مالت الى حكومته يقول : « لقد ذكرت للخديو انه اذا كانت حياته معرضة للخطر، فلست أستطيع أن أنصح بشىء يخالف الخطوة التى يقترحها

(١) M. E. Cromer.

اذا ظهر انها هى فرصة الخلاص الوحيـدة ، واقتصر مسيو سينكويكس على قوله انه سيطلب رأى حكومته ، ثم تركنا الخديو بدون أن نفضى اليه بأكثر من هذا ، مع أن الخديو كان يلح علينا بضرورة ارسال رد عاجل الى الصدر الاعظم »

ووصف مالت موقف توفيق فى ذلك الظرف بقوله :
« ان موقف الخديو موقف مؤلم أعظم الالم ، فهو مهدد بالقتل ، ثم اننا صرفناه عن الذهاب الى الاسكندرية. حيث كان فى الوقت متسع لهذا ، وكذلك لم نخل بينه وبين الالتجاء الى الجهة التى يأتيه منها تأييد ذو أثر ، ولذلك فهو والحال كما أذكر خليق بأن يشعر شعور المرارة تلقاء ما يبدو له الآن من عواقب اتباعه نصحنا واعتماده على تأييدنا »

وهكذا نرى مالت يضغط ضغطا شديدا على حكومته لتعجل بالتدخل المسلح المنشود ، وكان من أثر ذلك أن كتب جرانفل دون أن ينتظر مشورة الحكومة الفرنسية الى اللورد دوفرين فى الآستانة يقول : « انحكومة جلالة الملكة ترى الضرورة ملحة بألا يضيع السلطان شيئا من الوقت دون أن يرسل أمرا به يؤيد الخديو ، ويرفض الاتهام الذى عزته الوزارة الساقطة الى سموه ، ويأمر كبار العسكريين الثلاثة ، وكذلك رئيس الوزارة السابق اذا دعا الحال ، بأن يحضروا ليشرحوا مسلكهم فى القسطنطينية »

ويتضح من ذلك ان الحكومة الانجليزية تخطو خطوة سريعة نحو الانفراد بالعمل وتنفيذ خطتها فى التهام مصر ولا نجد فى تفسير سياستها خيرا من قول كرومر فى هذا الظرف تعليقا على الموقف « ان النتيجة على أى حال لم تكن بعيدة ، فانه كان يتضح يوما بعد يوم أن عرابى لن

يخضع الا بالقوة ، فاذا لم تتبع القوة المطلوبة أى جهة أخرى فان هذا العمل يلقى بالضرورة علىعاتق انجلترا»

هذا هو الذى كانت ترمى اليه السياسة الانجليزية من جميع مراوغاتها واقتراحاتها ، ولسوف تنفرد عما قريب بضرب الاسكندرية ، وحجتها فى ذلك تأييد سلطة الخديو تجاه عرابى الثائر الذى تحركه الاطماع والمآرب الشخصية !

واشتد خوف الاجانب فى مصر حين فهموا ان الخديو عاجز عن تأليف وزارة ، فذهب وفد من القناصل الى عرابى فى الثامن والعشرين من مايو ، وقد أشار عرابى الى ذلك فى قوله : «ولما تعاظم الخوف حضر لمنزلىجميع قناصل الدول ماعدا قنصلى انجلترا وفرنسا يطلبون منى التأمين على رعاياهم فأجبتهم بأنى قد استعفيت ولا صفة لى تخولنى تحمل هذه المسئولية العظيمة ، فقالوا ان الجيش لايخالف ارادتك ، وأنت رئيسالحركة الوطنية فلا نأمن على رعايانا وأنفسنا الا باعطائك لنا كلمة الشرف بحفظ رعايانا ، فلأجل طمأنينتهم وتسكين روعهم كتبت تلغرافا الى جميع مراكز العسكرية بصفة انى رئيس الحزب الوطنى أرغب اليهم فيه ان يلتزموا الهدوء والسكينة وأن يحافظوا على راحة العموم ، وخصوصا رعايا الدول الاجنبية ، وأن يعاملوا الجميع بحسن المعاملة وكمال المجاملة »

وقابل هؤلاء القناصل الخديو ورجوا منه أن يعيد عرابى الى الجهادية حفظا للأمن فى مصر وتفاديا للأخطار

أما الوطنيون فقد اشتد قلقهم وقد مضى يومان والخديو عاجز عن اقامة وزارة ، ونشط سلطان باشا ، وأكثر من مقابلة الخديو ، وفى نفس اليوم الذى قابله فيه القناصل ، ذهب سلطان الى سراى الاسماعيلية

وتحدث مع الخديو طويلا ، ولكنه وجد منه تصميما على موقفه ...

واجتمع بمنزل سلطان باشا عدد كبير من النواب والعلماء والاعيان وكبار ضباط الجيش ، واتفقوا على أن يذهب وفد منهم الى الخديو يرجو منه أن يعيد عرابى وزيرا للحربية ، ففى ذلك ضمان الامن والسلامة

وذهب وفد مؤلف من سلطان باشا وحسن باشا الشريعى وسليمان أباظة الى سراى الاسماعيلية وقابلوا الخديو وعرضوا عليه ملتمسهم أن يعيد عرابى الى الوزارة فرفض الخديو وأصر على رفضه ، وبعد طول توسلهم وتوسط سلطان باشا أجابهم الخديو الى طلبهم قائلا : « بما أنكم أتيتم طالبين تقليد نظارة الجهادية لسعادة عرابى باشا حيث أنكم تظنون أن هذا التعيين يساعد على حفظ النظام فلا مانع من اجابتكم » ...

وان اتفاق هذا العدد الكبير من رجالات الامة على اعادة عرابى حتى يطمئن الناس ويتحقق الهدوء لدليل لا شبهة فيه على أن الرجل فضلا عما تحقق له من الزعامة قد أصبح بحق ملاذ البلاد ، أما الخديو فلم يعد فى رأى الناس الا أداة طيعة فى يد مالت يصرفه كيف شاء ...

أشار الى ذلك روثستين فى كتابه بعد أن أشار الى احتجاج ضباط الجيش ورؤساء الشرطة فى الاسكندرية على الخديو بقوله : «وسرعان ماوصل نبأ هذا الاحتجاج الى أهل القاهرة فقام الى الخديو وفد مؤلف من رؤساء الاديان المختلفة ، علماء الاسلام ، وبطريرك الاقباط ، وحاخام اليهود ، وطلب اعادة عرابى وزملاءه ، فكان ذلك مظهرا من مظاهر ارادة الامة غير متوقع بالمرة ... وعندما قدم سلطان باشا على الخديو مهرولا يكاد يقتله الخوف ، وتوسل اليه أن يرجع النظار الى مناصبهم

والا كانت حياته فى خطر ، نقول عند ذلك أذعن توفيق وأصحابه البررة ، وأعيدت الوزارة ، وأرسلت الاوامر الى الاقاليم بالغاء أوامر التسريح السابقة ... ولم تدم هذه المأساة الهزلية أكثر من ثلاثة أيام ، ولكنها كانت كافية فى اظهار شعور الامة الحقيقى . وان فى السرعة التى أرسلت بها الاوامر الى الاقاليم لوقف جميع وسائل الدفاع لبيانا لسبب كره الدبلوماسيين البريطانيين عرابى ورفاقه ، فقد رأوا أنه ما دام هؤلاء قابضين على أزمة الامور فلا يحتمل أن تقع مصر غنيمة باردة فى أيدى المعتدين » .

ولكن مالت لم يروقه هذا المظهر فكان مما افتراه فيما أبرق به الى حكومته ماجاء فى قوله : « فى هذا المساء توجه رؤساء رجال الدين وفيهم البطريرك ، والحاخام ، كما توجه النواب جميعا والعلماء وغيرهم الى الخديو وسألوه أن يعيد عرابى وزيرا للجهادية ، فرفض الخديو ، ولكنهم توسلوا اليه قائلين : لئن كان الخديو مستعدا ليضحى بحياته فينبغى ألا يضحى بحياتهم هم ، وان عرابى يهددهم جميعا بالموت ان لم يحصلوا له على موافقة الخديو ، وان حرس القصر قد ضوعف ، وان أوامر صدرت اليهم بأن يمنعوا مغادرته القصر طلبا لرياضته المعتادة ، وأن يطلقوا النار اذا حاول أن يشق طريقه بالقوة ... ولم يجد الخديو أمام هذه الظروف الا الاذعان لا لينجى نفسه بل لينقذ المدينة من سفك الدماء »

الى هذا الحد يبلغ افتراء مالت فيصور توفيقا سجينا فى قصره ويجعله عرضة لان يطلق حرسه النار عليه ، وهذه رواية لم يوردها غير مالت بين جميع من كانت لهم صلة بهذا الموقف من القناصل ومن المؤرخين . ومن

الامور البديهية انه لم يحجم عن أن ينقل مثل هـذه الشائعات المفزعة الى توفيق نفسه ليملأ قلبه رعبا ، ويوحى اليه أن يطلب النجدة ...

وفى مساء اليوم الثامن والعشرين من مايو ، أصدر الخديو أمرا الىعرابى باشا باعادته الى وزارة الجهادية والبحرية هذا نصه : « ولو أنكم استعفيتم ضمن هيئـة النظار التىاستعفت ، ولكن مراعاة لحفظ الراحة والامن رأينا بقاءكم على نظارة الجهادية والبحرية وأصـدرنا أمرنا هذا لكم لتعلموه وتبادروا باجراء ما فيه انتظـام أحوال العسكرية بالطريقة الكفيلة لحفظ الامن العام على الوجه المرغوب كما هو مقتضى ارادتنا »

يقول عرابى فى مذكراته : « حضر لى رئيس مجلس النواب سلطان باشا وحسين باشا الشريعى وسليمان باشا أباظة وسلمونى أمر الخديو القاضى برجوعى الى نظارة الجهادية والبحرية ، وأخبرونى بأنهم لما وفدوا على الخديو وجدوا جميع القناصل فى حضرته ما عدا قنصلى فرنسا وانجلترا وأنهم طلبوا من الخديو صدور أمره برجوعى الىنظارة الجهادية والبحرية لاجلاطمئنان العموم ، فكان القناصل مع النواب على رأى واحد ، وحينئذ فرح الضباط والجنود وجميع الوطنيين وسروا بذلك سرورا عظيما ...

وبعد ذلك توالى اجتماع قنصلى انجلترا وفرنسـا الجنرالين بالخديو ليلا ونهارا ، ثم انىأصدرت منشورا الى قناصل الدول، وتكفلتلهم فيه بتأييد الامن والراحة لجميع سكان القطر المصرى وطنيين وأجانب مسلمين وغير مسلمين ، وطلبت من الخديو لزوم جمع العسـاكر لاستكمال الآلايات على مقتضى القدر المقرر فى الفرمانات السلطانية فأجابنى بالموافقـة على ذلك ، وصـدر أمر

الجهادية بجمع عساكر الامدادية نمرة ٢ ، ونمرة ٣ ، استعدادا لما عسى أن يطرأ من الحوادث »

وأخذت الطمأنينة تحل محل القلق فى نفوس الناس، الا من كانوا يفطنون الى حقيقة الموقف ، فليست المسألة مسألة الخلاف بين توفيق وعرابى ، وانما المسألة هى نوايا السياسة الانجليزية ! ولذلك ما كانت أية تسوية داخلية لتجدى فتيلا والانجليز متربصون ، ومالت يسعى جهده لتعكير الماء كى يسهل عليه الغدر ...

والواقع أن تعلق الناس بعرابى الى هذا الحد واطمئنان الوطنيين والاجانب اليه ، أقوى رد يدفع به باطل مالت وأشياعه ممن خوفوا أوربا من نفوذ الحزب العسكرى وأنذروها بالويل والثبور ، فها هم أولاء الناس من وطنيين وأجانب لا يجدون لهم ملاذا غير عرابى ليطمئنوا على حياتهم وأمنهم ...

وكان عجز الخديو كذلك عن اقامة وزارة أبلغ فشل لسياسة مالت ، فان طوائف الامة تؤيد الجيش ما عدا سلطان ونفرا من النواب ، وما تلتف الامة حول الجيش ورئيسه عرابى الا لانه اليوم فى نظر الجميع أكثر مما كان من قبل أمل البلاد فى انقاذها من التدخل الاجنبى ، وهل يقول أحد ان الامة كانت فى صف توفيق بعد قبوله المذكرة المشتركة الثانية ؟

اذن فالقضية تزداد وضوحا يوما عن يوم فهذه أمة تطلب الحرية ، ولكن انجلترا وعلى رأسها جلادستون زعيم الحرية تتهمها بالتمرد والفوضى ، كى تتقدم لالتهامها ، كما اتهم الذئب الحمل فى تلك الخرافة التى يقصونها على الاطفال بأنه يعكر عليه الماء ، والذئب فى رأس المنحدر ، والحمل فى أسفله ؟ !

وما أرذل موقف مالت بعد التفاف الامة حول عرابى

على هـذه الصورة ، وما أكثر ما يكشـفه الموقف من صفاقته ولؤم طبعه ... يقول روثستين : « لاشك أن السير ادوارد مالت قد ساءه الاخفاق الذى لقيه وهو يحاول التخلص من وزارة سامى ، ولو أنه كان على شيء من الشعور بكرامة النفس لاستعفى وقتئـذ من عمله . ولكن الرجل لم يكن يريد المحافظـة على كرامة نفسه ، وانما كان يريد أحداث تدخل مسلح ، فاذا لم تؤده الى ذلك طريق سياسة سلكها ، فلا بأس بأن يعيد الكرة ويسلك طريقا أخرى تكون أقصد وأهدى الى وجه النجاح . لذلك لم يكن الاخفاق الذى لقيه الا ليزيده اقبالا على العمل ومضيـا فيه ، فقـد كتب عن رجوع الوزارة (١) الى رئيسـه فى ٣٠ مايو يقول : ان القوم يعدونه ايذانا باخراج المسـيحيين من مصر ورجـوع الارض التى يمتلكها الاوربيون أو يرتهنونها ، كما يعدونه ايذانا بالغاء الدين العام » ...

وكيف كان يطيق مالت أن يضمن عرابى الامن فى مصر؟ وكيف كان يطيق أن ينجح عرابى فيما تعهد به ؟ ان معناه بطلان كل حجة له ، بل بطلان حجته الوحيدة التى لا يفتأ يرددها الا وهى اختلال الامن فى البـلاد وقلق الاجانب على أموالهم بسبب تسلط العسكريين ...

لذلك يبالغ مالت فى وصف ما يدعى من سوء الحال فى مصر ولا يكتفى بما ذكره فيما أورده روثستين ، بل انه يبرق الى حكومته فى نهاية شهر مايو قائلا : « ربما وقع تصادم فى أى وقت بين المسلمين والمسيحيين (٢) » ولنا عودة الى هـذه البرقية الخبيثة عند كلامنا على مأساة الاسكندرية ...

(١) يقصد رجوع عرابى الى الوزارة .
(٢) M. E. Cromer.

ويذكر مالت فيما يذكره لحكومته أن البلاد فى حالة ذعر ، وان الاوربيين يغادرون القاهرة أفواجا ، وان الوزارات جميعا ما عدا وزارة الجهادية تكاد تكون معطلة الاعمال ، الى غير ذلك من المفتريات الفاجرة ...

ويشايع مالت انجليزى آخر ، هو كوكسن قنصل انجلترا فى الاسكندرية الذى رأيناه يلعب دور الشيطان يوم عابدين ، فقد أبرق قبل اليوم الاخير من مايو يقول : (١) « ان كل يوم نتأخره يزيد روح العسكريين الخطرة كما يزيد تحديهم المتواصل للنظام » ...

ويقول كذلك وما أبعد ما يقول عن الحق : «ان ضباط الجيش يحصلون بالقوة على توقيعات من الناس على عريضة بطلب عزل الخديو . وان رئيس مجلس النواب طلب الى الاعضاء أن يستقروا فى بيوتهم لكى يخلصهم من ارغام الجند اياهم على التوقيع » (٢) ..

وللقارىء أن يتدبر فى قول كوكسن : « ان كل يوم نتأخره » ومعنى ذلك أنه كان كصاحبه مالت يستعجل دولته بالعدوان الغادر على البلاد ...

---

(١) (٢) M. E. Cromer.

بين عرابي والسلطان

ذكرنا أن الحكومة العثمانية أجابت الخديو بأنها مستعدة لارسال مندوب الى مصر اذا جاءها من مصر طلب رسمي بذلك ، ويقول كرومر فى كتابه : ان هذا الطلب الرسمى أرسل فعلا الى الآستانة ، ومهما يكن من الامر فان السلطان فى اليوم الثانى من شهر يونيو سنة ١٨٨٢ عين مصطفى درويش باشا مندوبا عثمانيا ساميا وأمره بالسفر الى مصر رئيسا لوفد يعالج الحال فيها، ولعل السلطان كان يرى أن هذا الوفد أو هذه البعثة التى اشتهرت باسم بعثة درويش باشا كانت كفيلة بوضع الامور فى موضعها الصحيح ، وازالة أسباب الشكوى من جميع الجوانب على أساس الاستفادة من الخلاف بين الفريقين ابتغاء تثبيت سلطة الدولة فى مصر ...

ووصل درويش باشا ووفده الى الاسكندرية فى اليوم السابع من يونيو ، وقد أقلهم اليها اليخت السلطانى « عز الدين » ، وكان من أهم أعضاء الوفد الشيخ احمد أسعد احد ذوى الحظوة والمكانة عند السلطان عبد الحميد ، وبلغ عدد أعضاء البعثة ورجال حاشيتها ثمانية وخمسين ....

ويجدر بنا قبل الكلام على بعثة درويش أن نأتى على تاريخ الصلة بين عرابى والسلطان منذ بدأت بينهما ،

لما لذلك التاريخ من أهميـــة لعلاقتـــه بما كان من أمر درويش ومسلـــكه نحو الخديو ونحو عرابى ...

كانت أولى خطوات عرابى نحو الاتصال بالآســـتانة تقابله مصادفة فى اليوم السادس عشر من أكتوبر سنة ١٨٨٤ بأحمد راتب باشا ، أى بعد يوم عابدين بشهرين وبضعة أيام، وقد ذكرعرابى نبأ هذه المقابلة فىموضعين : الاول فى مذكراته ، والثانى فى حديثه مع مستر بلنت بالشيخ عبيد فى اليوم الثانى من شهر يناير سنة ١٩٠٤ أى بعد عودته من منفاه بأكثر من عامين وقد اثبت بلنت هذا الحديث فى آخر كتابه ...

قال عرابى فى مذكراته : « وفى ١٦ أكتوبر تقابلت مع أحمد راتب باشا أحد رجال الوفد العثمانى ، واحـــد رجال المابين المقربين من جلالة السلطان الاعظم فى محطة الزقازيق ، وكان قاصدا بندر السويس ليبحر منه الى الحجاز لمأمورية فوق العادة ، فركبت معه فىعربة واحدة وعرفته بنفسى ، ثم أخبرته بكل ما اجريناه منأول الامر الى آخره ، واننا لم نشـــق عصـــا الطـــاعة كما يدعى الاوربيون ، بل طلبنا الاصلاح باسم الذات الشاهانية ، وبذلك علم الصغير والكبير بأن لنا سلطانا شرعيا هو صاحب السيادة العظمى على البلاد المصرية وان الخديو هو نائب عن جلالته فقط ، من بعد أن كانوا لايعرفون لهم حاكما شرعيا غير الخديو . ولما وصلنـــا الى راس الوادى حضر الضباط والصف ضباط ، واصطفوا صفا واحدا تعظيما واجلالا للذات المشـــار اليها ، وهتفوا بقولهم : يعيش السلطان ، ثم ودعناه والتمسنـــا منه عرض اخلاصنا وطاعتنا علىالحضرة السلطـــانية حين عودته الى الآستانة العلية ، وقام به القطار بين أصوات المودعين والدعاء له وللذات الشاهانية »

وقال فى حديثه مع بلنت : « ولما جاء على باشا نظامى الى القاهرة ومعه احمد راتب باشا من قبل السلطان ، انزعج الخديو مخافة أن يحدث تحقيق ، ولما كان محمود سامى قد عاد الى نظارة الجهادية فقد أمرنا أن نغادر القاهرة ، فذهبت الى رأس الوادى وذهب عبد العال الى دمياط ، وبقى على فهمى فى القاهرة ، ولم أر على نظامى ولا كانت لى صلة به ، ولكن حدث أن كنت فى الزقازيق ذات يوم فى زيارة صديقين لى هما : أحمد افندى الشمسى ، وسليمان اباظة باشا ، وبينما كنت راجعا بالقطار الى راس الوادى ، تصادف أن كان أحمد باشا راتب فى طريقه الى السويس ليبحر منها فى رحلة الى مكة ، ووجدت نفسى فى العربة التى كان يجلس بها ، وتبادلنا التحية كشخصين يجهل كلاهما الآخر وسألته عن اسمه ، وسألنى عن اسمى وحدثنى عن رحلته وعن اشياء اخرى ، ولكنه لم يشر الى بعثته للخديو، وكذلك لم أساله عنها . ولكنىأخبرته عن ولائى للسلطان بصفته رئيسا لديننا وقصصت عليه جميع ماحدث فقال خيرا ما فعلتم ، وتركته عند راس الوادى ، وقد ارسل الى مصحفا من جدة ولما عاد الى استانبول كتب الى يخبرنى انه ذكرنى بخير عند السلطان ، وبعد ذلك تلقيت كتابا املاه السلطان على الشيخ محمد ضفر يخبرنى فيه (١) بما تعلم » .

أما عن بعثة على نظامى فان عرابى لم يكن له بها صلة لولا ما كان من لقائه أحمد راتب باشا على الصورة التى ذكرناها ، وكانت بعثة نظامى هذه هى الوفد العثمانى الاول وقد وصلت مصر فى اليوم السادس من أكتوبر

(١) حرف بلنت هذا الاسم وحقيقته محمد ظافر كما جاء فى مذكرات عرابى الخطية .

سنة ١٨٨١ ، وسميت بعثة درويش بعد ذلك بالوفد العثماني الثاني ...

نزل أعضاء الوفد الاول بقصر النزهة ضيوفا على الحكومة ، واستقبلهم الخديو فى اليوم التالى مرحبا بهم فى قصر الاسماعيلية ، وأبلغوه تحيات السلطان ، وثناءه على ما يبذل الخديو من همة فى تحسين أحوال البلاد ، وافهموه ان الغرض من مجيئهم هو تأييده وتثبيت حكمه فى مصر ... وعبر الخديو أمامهم عن عظيم شكره للسلطان وولائه له ، ورد لهم الزيارة فى قصر النزهة ...

وزار على نظامى باشا ديوان الجربية فى مقرها بقصر النيل ، وكانت مقر الآلاى الثانى واستقبله البارودى بالحفاوة ، وألقى نظامى باشا خطابا بالتركية على الضباط والجند حثهم فيه على طاعة الخديو وترجمه لهم البارودى ، وأجاب طلبه عصمت بقوله : « ان العساكر المصرية جموعا وأفرادا على قدم الطاعة والانقياد لولى أمرنا الخديو المعظم ، يتلقون أوامره بالامتثال ، ويقفون عند حد نواهيه ، فان كلا منا يعلم ان أول واجب على الجند هو اطاعة ولى الامر والاذعان لما يأمر به ، وما منا الا محب للجناب الخديوى ميال بكليته الى الامتثال لاشارته »

وصافح نظامى باشا الضباط جميعا وأثنى على ما يظهرون من ولاء وحسن نظام .

وزار نظامى باشا شيخ الجامع الازهر ونقيب الاشراف وبعض كبار العلماء فلقى منهم جميعا ثناء على الجيش وشهدوا بحسن نياته وولائه للسلطان وللخديو ، وكان زعيم الجند أحمد عرابى أثناء ذلك فى رأس الوادى فلم يره نظامى .

ويبدو عجيبا أن نظامي لمَ يحاول أن يتصل بعرابى، ولعل مرد هذا الى أن السلطان لم يكن يؤيد يومئذ الحركة الدستورية فى مصر ، فقد حارب عبد الحميد مثل هذه الحركة فى بلاده وذلك بتعطيل القانون الاساسى العثمانى واغلاق مجلس النواب وتشتيت انصار الدستور والحرية ...

وكانت بعثة نظامي فى الواقع مظاهرة سياسية ، أراد بها الباب العالى أن يستعيد نفوذه ويثبت سلطانه فى مصر ، وقد قوبلت كما أسلفنا بمظاهرة سياسية مثلها من قبل الدولتين ...

اما خطوة عرابى الثانية نحو الصلة بالآستانة فتتلخص فيما جرى من مكاتبات بين بعض رجال السلطان وبين عرابى ...

وقد أشار بلنت فى كتابه الى هذه المكاتبات بقوله بعد أن ذكر ما كان من لقاء بين راتب وعرابى « وقد أدى ذلك الى مكاتبات بينهما ، وتحت يدى أصل وثيقتين هامتين وقعت عليهما ضمن اضبارة كبيرة من الاوراق أثناء محاكمة عرابى وهما كتابان أرسلا الى عرابى بعد تأليف وزارة سامي بنحو ثلاثة أسابيع أى فى فبرايرسنة ١٨٨٢ وهي الوزارة التى كان عرابى فيها وزيرا للجهادية ، اما أولهما فمن أحمد راتب ، وأما الثانى فمن الشيخ احمد ظافر أحد كبار شيوخ الدين بالقسطنطينية الذى كان فى ذلك الوقت يقوم على شئون المكاتبات السرية للسلطان ، وقد كتبت هاتان الرسالتان بأمر السلطان شخصيا » . ثم أورد بلنت بعد هذا نص الرسالتين .

ويذكر عرابى فى مذكراته أن الاصل التركى للرسالتين ضبط بعد موقعة التل الكبير وترجمتا الى اللغة الانجليزية ثم أورد عرابى تعريبهما عن الانجليزية ...

أما عن قصة هاتين الرسالتين فيقول عرابى : « ولما رأينا كثرة تردد السير مالت قنصل انجلترا الجنرال على الخديو ليلا ونهارا واستسلام الخديو لما يوحى به اليه علمنا أن انجلترا طامعة للاستيلاء على وادى النيل الخصيب عملا بقاعدة التوازن الدولى لتضارع بعملها هذا عمل فرنسا فى استيلائها على ولاية تونس الخضراء ، فكتبنا بذلك للحضرة السلطانية ، وحيث لم يكن لنا واسطة فى الآستانة تبلغ عنا مقاصدنا للسدة الشاهانية اتخذنا الشهم المقدام الصادق الامين على راغب قبودان أحد شبان ضباط البحرية المصرية رسولا ، وكلفناه بابلاغ عريضتنا الى الحضرة السلطانية بواسطة الشيخ محمد ظافر شيخ السادة الشاذلية وشيخ الحضرة السلطانية فصدع بالامر واوصل الرسالة الى الشيخ المذكور . وكذلك بلغ أحمد راتب باشا ما أوصيناه به بعد عودته من مأموريته الحجازية الى دار السعادة .

فكتب لنا الشيخ ظافر بما صدر به النطق الشريف ، وكذلك فعل أحمد راتب باشا ، وكان الحامل لهذين الخطابين السيد أحمد أسعد أفندى وكيل الفراشة النبوية عن الحضرة السلطانية الذى حضر أخيرا بمعية درويش باشا ، وهاك ترجمتهما عن اللغة الانجليزية من تاريخ المستر برودلى وتاريخ المستر بلنت لان أصلهما التركى ضبط بعد واقعة التل الكبير وترجم الى اللغة الانجليزية » .

وأشار عرابى الى المكاتبات بينه وبين السلطان فى موطن آخر ، وذلك أثناء سجنه فى مقر الدائرة السنية قبيل محاكمته ، فقد كتب وهو فى السجن ملخصا لقضيته كلها ليستعين به محاميه مستر برودلى فى الدفاع عنه ، ولقد أثنى برودلى على حضور ذهنه وترتيبه

الحوادث ترتيبا منطقيا حسن السياق على الرغم مما كان يحيط به . قال عرابى فى هذا الملخص (١) وقد تكلم عن بعثة درويش ما نعربه كما يأتى : « أشعر الآن أن من واجبى نحو مصر ونحو نفسى أن اذكر فى وضوح عند هذه النقطة اتصالى بصاحب الجلالة السلطان أثناء الحوادث الاخيرة فى هذا البلد . لقد بدات على هذه الصورة : أرسل طلعت باشا الشركسى فى نوفمبر سنة ١٨٨١ فى رسالة الى القسطنطينية من جانب الخديو . وقد كلف أن يصور للوزراء الاتراك وللسلطان أن مصر فى حالة ثورة ، وان هناك اقتراحا لانشاء امبراطورية عربية وان أحمد عرابى والحكومة البريطانية قد اتفقا فيما بينهما على هذا الامر ... وقد أحدثت هذه الاشاعات التى نشرها طلعت أثرها فى الآستانة ، ولم يكن لنا وكيل هناك يدفع هذه الاباطيل ، فاضطررت ازاء ذلك الى الاتصال بالعالم الورع الشيخ محمد ظافر كاتم سر السلطان ومشيره الدينى ، ذلك الذى عرفته بشهرته ولم اقابله شخصيا قط . فكتبت اليه وحمل رسالتى اليه على راغب مفندا جميع المزاعم التى عزيت الينا ، وطلبت اليه أن يشرح للسلطان صادق ولائى ، وشدة تعلقى بالمبادىء الاساسية لديننا المقدس ، تلك التى تجعل من واجبنا أن نطيع أمير المؤمنين .

ولقد رد علينا هذا الشيخ فى سرور فحمل على راغب السالف ذكره كتابا باللغة التركية ، قال فيه انه ألقى بين يدى السلطان ما تضمنه كتابى ، وان السلطان أظهر اقتناعه بولائى ، وانه يأمرنى أن أظل على طاعتى ، واضاف الشيخ أن جلالة السلطان يطلب الى أن أدافع عن بلدى بكل ثمن ضد الاحتلال ، والا كان نصيبه نصيب

(1) How we Defended Arabi. By A.M. Broadley.

تونس ، وانه لايعنيه اسماعيل أو حليم أو توفيق ، وما يعنيه الا الرجل الذى ينفذ ما يأمر به ، وكتب الي بمثل هذا أحمد راتب باشا الذى قابلته مقابلة شخصية طويلة عندما كان بمصر ، والذىجاء كتابه الى مع كتاب ظافر»

هذه قصـة الرسالتين الخطيرتين بين عرابى وبلاط السلطان ، أو تاريخ الصلة بين عرابى والسلطان قبـل بعثة درويش ، ولقد راجعت الرسـالتين كما أثبتهما عرابى فيما بين يدى من مذكراته المخطوطة على الترجمة الانجليزية التى أثبتها بلنت فى كتابه عن الاصل التركى فوجدت التشابه بينهما تاما ، ولذلك آثرت أن أوردهما للقارىء فى عبارة عرابى فيما يلى :

ولنبدأ بكتاب الشيخ محمد ظافر ، قال : « ناظر الحربية المصرية، سعادتلو أفندم... قد قدمت الخطابين الكريمين الواردين منكم الى جلالة السلطان وجلالته علم من فحواهما جميع عواطفكم الوطنية وتيقظكم وخصوصا وعودكم بمساعيكم لحفظ مصالح جلالتـه بكل اخلاص وأمانة ، فانها وقعت لدى جلالته موقعا حسنا ، حتى ان جلالته أمرنى أن أبين لكم سروره ورضاه واكتب لـكم كالآتى :

حيث أن حفظ الخلافة واستقامتها فرض على كل واحد منا ، فيجب على كل مصرى السعى بمزيد الاهتمام وراء تثبيت سلطتنا لمنع خروج مصر ووقوعها فى قبضة الاجانب الطامعين كما وقعت ولاية تونس فى أيدى الفرنسيين فنحن وضعنا ثقتنا فيكم ياولدى لاستعمال قوتكم وعمل كل ما فى الامكان لمنع حدوث شىء مثل ذلك . فكن على حذر دائما ولا تغض النظر طرفة عين عن هذه النقطة المهمة ، ولا تتركوا أية طريقة أو وسيلة من وسـائل الاحتياطات والطرق المتخذة فى عصرنا هـذا ، واضعا

نصب عينيكم دائما الفرض الذى ترمى اليه ، ألا وهو الدفاع عن ملتكم وبلادكم ، وخصوصا يجب عليكم أن تثابروا على حفظ ثقتنا بكم والروابط التى تربطكم بنا.

تلك البلاد هى بلاد مصر التى لها أهمية عظمى لدى انجلترا وفرنسا وخصوصا لدى الاولى . ويوجد شرذمة من أصحاب الدسائس والفتن فى الآستانة يمالئون هاتين الدولتين ويشتغلون من زمن بعيد بمشروعاتهم الفاسدة التى تؤدى الى الخراب وسوء المصير . ومذ رأوا من صالحهم ازدياد تلك الدسائس والفتن فى مصر ، وجهوا عنايتهم الى ذلك بنشاط وغيرة فرغبة جلالته الخاصة هى أن تحذروا من أولئك الخونة الاشرار ومكائدهم ، وتراقبوا أعمالهم بعيون ساهرة لا تنام !

وبناء على التلغرافات والاخبار المرسلة من الخديو توفيق باشا احد أعضاء الجمعية المومأ اليها نرى أنه ضعيف ومتقلب ولاحظنا أيضا أن كل تلغراف من تلغرافاته لايؤيد الآخر بل جميعها على طرفى نقيض. وأزيدكم معرفة بأن على نظامى باشا وعلى فؤاد بك قد أثنيا عليك ثناء جميلا لدى الحضرة السلطانية وكذا أحمد راتب باشا فقد قص على جلالته موضوع الحديث الذى دار بينكما فى عربة السكة الحديدية ما بين محطتى الزقازيق والمحسمة ، وبما أن جلالته يضع عظيم ثقته فى أحمد باشا راتب ، فقد كلفنى بهذا السبب أن أظهر لكم ثقته فيكم واخبركم بأنه حيث ان جلالته يعتبركم رجلا ذا استقامة وأمانة فهو يطلب منكم قبل كل شىء منع وقوع مصر فى قبضة الاجانب وألا تتركوا لهم حجة تمكنهم من التدخل فى شئون مصر ...

هذا وان التعليمات التى ستصدر الى راتب باشا فى هذا الشأن ستكتب لكم على حدتها ...

وقد كتب خطابى هذا وخطاب أحمد راتب باشا بأمر جلالته بمعرفة احد كتاب جلالته الخصوصيين وبعد أن وقعنا عليهما بأختامنا فى حضرته العلية ختمنا على الظرفين

هذا واعلمكم بصفة خاصة وسرية ان جلالة السلطان لايعول على اسماعيل ولا حليم ولا توفيق بل يعول على الرجل الذى يفكر فى مستقبل مصر ويثبت الروابط التى تربطه بالخلافة ويحترم جلالته الاحترام الواجب ويعمل بمقتضى الفرمانات السلطانية بلا تعطيل ولا تغيير ويؤيد سلطته المستقلة فى الآستانة وخلافها ولا يعطى رشــوة لاولئك الموظفين الخائنين ولا يحيد قيد شعرة عن طريق واجباته ويكون له دراية تامة بدسائس أعدائنا الاوربيين وأعمالهم التى يقصد منها ايقاع الفتن والمشــاغبات ، ويكون واقفا لهم بالمرصاد ، ويحافظ على بلاده وملته من أن يمسها سوء فمن يفعل ذلك يرض جلالة متبوعنا الاعظم ويكن مقبولا لدى جلالته .

وانى ارجوكم الا تؤاخذونى فى عدم كتابة تفصيلات اخرى بخطابى هذا ، حيث ان أحمد راتب باشا حضر منذ ثلاثة أيام فقط ، ومع ذلك ففى المدة القصيرة نظرا للأقوال التى صرح بها عن حســن مقاصــدكم الشريفة واخلاصكم لجلالته أظهر عظيم ثقته فيكم . هــذا وقد وصلنى بالامس الخطاب الذى أرسلته لى وأتعشم بامكان ارسال خطابه لكم فى بريد الاسبوع الآتى متضمنا تفصيلات أكثر . وعلى كل حال فاحذروا من وقوع أى خطاب من الخطابات التى ترسلونها فى أيدى الغير واجتهــدوا فى الحصول على مراسل خاص بيننا تثقون به ، وأما فى هذه المرة فالاوفق هو تسليم رد هذا الخطاب ليد حامله

٤ ربيع الآخر سنة ١٢٩٩ محمد ظافر

ونورد بعد ذلك كتاب أحمد راتب باشا ونصه كما

أثبته عرابى كما يأتي :

الى ناظر الحربية المصرية احمد عرابى بك (١) : قد بلغت جلالة السلطان الاعظم الحادثة التى حصلت بيننا بالسكة الحديدية ما بين محطتى الزقازيق والمحسمة عند عودتى من الآستانة ، وقد أحدثت تلك المحادثة سرورا عظيما عند جلالته وأمرنى أن أبلغكم محظوظيته الملوكانية وانى بلغت جلالته المعاملة الحسنة التى عوملت بها ، والاكرام الذى راته عيناى مدة وجودى بالمحروسة ، وجلالته اظهر عظيم محظوظيته حتى أن الرضا الذى حصل عنده أقنع جلالته بحسن ولائكم وعبوديتكم أضعافا مضاعفة ...

هذا وقد سعى أناس فى جعل جلالته يفتكر أنكم كنتم تسيرون على خطة مخالفة للطريق القويم ولا أدرى كيف ذلك ، ونجحوا فى تغيير فكرة جلالته نحوكم . وأما الآن بعد أن أوضحت لجلالته حقيقة المسألة أقسم لكم أن جلالته متأسف جدا لكونه سمع للأقوال الكاذبة والمختلفة التى بلغته عنكم ، والذى يثبت لكم ذلك هو أن جلالته أمر بأن أحرر هذا لكم وأوضح لكم فيه الخواطر الآتية :

لا أهمية فيمن يكون خديو مصر ، ويجب أن تكون افكار والى مصر ومقاصده وسيرته خالصة من الشوائب بحيث أن جميع حركاته تكون متجهة لصيانة مستقبل مصر ولتوطيد عرى العلاقات الوثيقة مع عرش الخلافة ، وفى الوقت نفسه يجب عليه أن يظهر الغيرة التامة والاخلاص فى تأييد حقوق البلاد ويلزم أن يتصف بهذه الصفات كل من يتربع من الولاة على الاريكة الخديوية.

اسماعيل باشا واسلافه أولئك رشوا غالى باشا

(١) كذا « احمد عرابى بك » فى مذكرات عرابى وفى كتاب بلنت .

وفؤاد باشا ومدحت باشا ونائبيهم الخائنين فى الباب العالى ، وبعد أن اغمضوا عيون أولئك الموظفين المذكورين اجترأوا على ظلم المصريين وفرض الضرائب الثقيلة عليهم ومعاملتهم بالضغط والقسوة ، وزيادة على ذلك فانهم تداينوا ديونا ثقيلة وجعلوا المصريين يئنــون تحت نير العبودية . واليوم حالتهم فى نظر الدنيا تستدعى رأفتنا الخاصة بهم ، فالمركز بأكمله فى غاية من الضعف ويحتاج الى البحث الدقيق وراء الدواء الشافى العاجل ، وعليه يهمكم قبل كل شيء منع ماعساه أن يؤدى الى التدخل الاجنبى وألا تحيدوا عن الطريق الحق القويم ولا تصغوا الى الخلافات التى تسبب الخدعة ، بل يجب عليكم فى كل الاحوال منع حدوث المؤامرات الاجنبية التى يقصد منها اثارة الفتن بكل يقظة وهذا هو غاية جلالة السلطان العظمى ...

وبما اننا سنكاتب بعضنا فى المستقبل يلزمكم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لعدم وقوع خطاباتنا فى أيدى الغير، واسهل طريقة وآمنها يمكنكم اتخاذها الآن هى أن تعطوا رسائلكم الى الرجل الصادق الامين الذى يحمل هذا ، وآخر من الشيخ محمدظافر ، وازيد على ذلك انه من الضرورى ارسال ضابط سرا يكون عالما بأحوال مصر ويكون بين احد أصدقائكم الذين تضعون ثقتكم فيهم ليقــدم الى أعتاب جلالة السلطان تقارير مسهبة حقيقية عن أحوال البلاد، هذا وأرجوكم رد هذا بمعرفة الرجل الذى يحمل هذا الخطاب ... فى ٤ ربيع الآخر سنة ١٢٩٩ الموافق ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٢ ، ياور جلالة السلطان أحمد راتب » ...

من هذا يتبين لنا أن الصلة كانت وثيقة بين عرابى والسلطان قبل مجىء بعثة درويش، وهو أمر له خطورته

البالغة ، فقد كان عرابى فى نظر من يعلمون هذه الصلة من شيعته المدافع عن حرية المصريين وعن حقوق السلطان ضد انجلترا وفرنسا ، فى حين ظهر الخديو بمظهر الناقم على المصريين ما يطلبونه من حرية والممالىء لسياسة الدولتين المتحدتين وخاصة انجلترا ... ولسوف تكون هذه الصلة أهم ما يدفع به محاميه عنه تهمة التمرد والعصيان يوم يساق هذا المجاهد السيىء الحظ الى المحاكمة ...

ولقد أشار عرابى الى أهمية هذه الصلة فى تقريره الذى كتبه فى السجن قبيل المحاكمة فقال بعد أن أتم تاريخ هذه الصلة الى ما بعد بعثة درويش : « لم يستنكر السلطان أبدا ما فعلنا ، لا فى أثناء تلك المفاوضات ولا فيما بعدها حتى وقتنا هذا ، بل ان السلطان أيد أفعالنا بالقول وبالعمل ، فكيف أكون مع ذلك متمردا ؟ ! أليس يعد السلطان فى نظر الامة الانجليزية صاحب السيادة على مصر ؟ !

وانا لا نجد فى بيان أهمية هذه الصلة خيرا مما كتبه بلنت فى صددها قال : « ان هاتين الرسالتين وثيقتان لهما من عظيم الاهمية التاريخية أنه اذا قدر لمذكراتى ان تطبع يوما فيجب أن تلصقا بها بنصهما وحروفهما ، وانهما لتفسران كثيرا مما سيحدث بعد ذلك فى يونيو أثناء بعثة درويش ، وكذلك تقيمان الدليل على أنه اذا كان عرابى أخذ على عاتقه وقتئذ وأثناء شهور الحرب مسئولية حكم مصر حكما ديكتاتوريا فان ذلك لم يكن بغير مبرر قوى من وجهة النظر الاسلامية ، وهذا المبرر هو أوامر الخليفة امام دينه فى أن يدافع عن القطر فى وجه الدول الاوربية . وترينا الوثيقتان كذلك لماذا لم يكن عبد الحميد ميالا فى شهر أغسطس الى أن يطلق على

عرابى لفظ المتمرد ، وكيف بلغ من السخف نعته بذلك عند المحاكمة ...

وعلى اى حال فينبغى الا يؤخذ من ذلك أن عرابى قد جعل من نفسه أداة للسلطان فى أى شىء يتصل بالادارة الداخلية المستقلة لوطنه ، ان موقفه فى هذه المسألة كان ثابتا لايتزعزع ، فقد كان يكره الترك وكان على وجه اليقين يرد بقوة السلاح أى تدخل حربى من جانب القسطنطينية ، وان كتاب الشيخ محمدعبده لدليل قوى على صحة هذا الذى أقول (١) ، وهو يشاكل جميع ما أفضى به الى عرابى نفسه ... لهذا كان موقفه من بلاط الخليفة موقفا متقلبا عرضة للتغيير ، ولقد كان له صديقان هناك فى شخص أحمد راتب ومحمد ظافر ، ولكن كان له كذلك أعداء أشداء »

نعود بعد ذلك الى بعثة درويش لنبين مبلغ ما كان فيها مما نحن بصدده من صلة بين عرابى والسلطان ثم لننظر فى الغرض منها وأثرها فى مجرى الحوادث بوجه عام ...

لخص عرابى علاقته وعلاقة أشياعه بدرويش فى هذه الفقرة التى جاءت ضمن تقريره الذى كتبه فى سجنه قال : « وكان أن وصل درويش باشا عند ذلك الوقت ، وبعد أن أجرى تحرياته عن مسلك الجيش أعلن انه يرى أن الجيش كان مطيعا دائما وأنه حافظ على النظام العام وأنه لا ملامة توجه اليه وبناء على ذلك فقد طلب من السلطان نحو مائتى وسام للضباط وللمدنيين ، وطلب لى الوسام المجيدى من الطبقة الاولى »

(١) يقصد الكتاب الذى ارسله اليه الشيخ محمد عبده بتاريخ ٥ ابريل يقص عليه فيه حادث المؤامرة الشركسية ، وفيه أظهر الشيخ مبلغ كراهية المصريين للاتراك .

وقد أنعم فعلا على عرابى بهذا الوسام الجليل الشأن ابرق مستر كارتريت وكيل قنصل الاسكندرية الى اللورد جرانفل فى اليوم الخامس والعشرين من يونيو يقول (١) : « سيدى اللورد ... أخبر الخديو السير أوكلند كلفن أن السلطان منح سموه منحة من الجواهر علامة على الرعاية وحسن النظرة الى مقامه ، وأضاف سموه أن السلطان مع الاسف قد أنعم على عرابى بالوسام المجيدى الاكبر ، وانه أنعم على سلطان باشا بوسام روميلى بيلربى

ولكن الخديو يقرر أن جميع جهود درويش باشا فى تسكين ثائرة عرابى باشا بالملاينة أو بالقوة قد منيت بالفشل التام ، وأن درويش نفسه يتخذ المسألة لهوا وهزرا ، ويتمسك عرابى الآن بأن ما يتضمنه هذا الانعام الاخير عليه من الرضا والعفو لايدع ثمة ضرورة لان يتخذ خطوات أخرى يبرر بها سلوكه» ويبدو من درويش باشا انه يتراجع عن أن يبذل أية محاولات أخرى للتأثير عليه»

ويتضح من هذه البرقية مبلغ ما وصل اليه توفيق من الحقد على عرابى والخوف من نفوذه ، وأنه ينظر الى المسألة كلها نظرة شخصية

ولاريب أن توفيقا على الرغم مما أنعم به عليه ، يفطن الى معنى الانعام على عرابى ، فهو تأنيب عملى لتوفيق على صلته بالدولتين ، وهو فى الوقت نفسه دليل على أن السلطان يريد أن يقول انه يرى فى عرابى المدافع عن حقوقه فى مصر ...

وقد وصل الوسام ومعه فرمان من السلطان فى اليوم الرابع من يوليو وسلمهما الخديو بيده لعرابى ، معبرا

(١) مجموعة الكتاب الازرق الانجليزى الخاصة بمصر وهى تحت يدى وقد وردت هذه البرقية فى Egypt No. 17, «1882» P. II

له عن رضائه عنه وثنائه عليه لاخلاصه فى اداء خدماته وانتباهه الى واجبه ، وشكره عرابى شكرا حارا على هذا العطف ، كما أبرق عرابى الى الآستانة يرفع شكره الى السلطان ، وجاءته برقية تتضمن رضاء السلطان عنه وثناءه على حسن سلوكه واخلاصه لواجبه ...

وقد أظهر عرابى كياسة ولباقة فى أستلام الوسام ، وذلك أنه أبى أن يتسلمه الا من الخديو حتى لا يكون فى تسلمه من مندوب السلطان معنى التحدى للخديو(١)

ولم يستشر توفيق فى الانعامات جميعا ، وقد وزعها درويش مباشرة على أصحابها باسم السلطان (٢)

ظن السلطان انه يستطيع أن يستعيد نفوذه فى مصر بالتفرقة بين الفريقين المتنازعين فيهما : توفيق ومن يشايعه ، وعرابى وأعوانه ...

لهذا جعل رئاسة الوفد لدرويش المعروف بالقوة وبكراهية العناصر الحرة ، وجعل فيه أسعد مشيره فى شئون من يتكلم العربية من رعاياه ومرجعه فى دعوة الوحدة الاسلامية ، واتفق الباب العالى وأسعد على « شفرة » خاصة للمكاتبات لايعرفها درويش ، وأفهم أسعد أن يلاين عرابى ويلقى فى روعه أن السلطان راض عنه وعن حزبه كل الرضاء ، فلا بأس عليه مما عسى أن يجد من غلظة من جانب درويش ، وطلب كذلك الى أسعد أن يطلع السلطان على حقيقة شعور المصريين وخاصة علماء الازهر ، فكان أسعد فى الواقع رقيبا على درويش الذى لا يأمن السلطان أن تصله هدايا توفيق..

ويذكر جون نينيه فيما كتبه عن مذبحة الاسكندرية وقد مهد لها بالكلام عن بعثه درويش أن درويشا كانت

---

(١) محضر التحقيق مع عرابى اثناء محاكمته

(٢) Blue Books E. No. 17 — P. 48

لديه أوامر سرية بأن يعمل على خلع توفيق اذا أمكنه ذلك توطئه لتعيين حليم ...

وأرسل الخديو مندوبا يستقبل الوفد فى الميناء وهو ذو الفقار باشا ، وأرسل عرابى رسولا بصفته المهيمن يومئذ على الحكومة اذ كان وصول الوفد بعد سقوط البارودى بعشرة أيام ، وقد احسن درويش لقاء المندوبين جميعا ، الامر الذى أسخط الخديو أشد السخط ...

وخرج درويش من الميناء يقصد سراى راس التين ، فاذا بالشوارع التى مر بها هو ووفده ملأى بالمصريين وقد جاءوا يحيون الوفد ، وترجمت لدرويش بعض الهتافات مثل قول المنادين (١) : « اللايحة انلايحة » ، ورد الباقين : « مرفوضه مرفوضة » .. ومثل قول المتظاهرين : « أبعدوا السفن الاجنبية » ..

ووقعت فى نفس درويش ووفده موقعا مهيبا هذه المظاهرة القوية ووجدوا أنفسهم أمام دليل قوى باهر على قوة الحركة الوطنية فى مصر ...

وكان عبد الله نديم قد سافر الى الاسكندرية قبيل وصول الوفد فخطب فى الناس خطبا حماسية ، كانت عظيمة الاثر فى اذكاء الروح الوطنية واثارة شعور الوطنيين على المذكرة المشتركة والسفن الاجنبية ...

وزار الوفد ضريح السيد البدوى بطنطا وهو فى طريقه الى القاهرة . وقد سافر اليها فى اليوم التالى بقطار خاص ، وفى القاهرة نزل الوفد بسراى الجزيرة ...

ومما يذكره جون نينيه عن هذا السفر قوله : ان أعوان الخديو ارادوا أن يحولوا بين مندوب عرابى وبين الركوب صحبة درويش فى عربته ، فأخذه درويش

(١) يقصدون المذكرة المشتركة .

بذراعه وأدخله معه فى العربة ، وكذلك يذكر نينيه أن جماعات من المصريين حيث الوفد فى كل من دمنهور ، وكفر الزيات وطنطا ...

وتلقاهم الخديو بسراى الاسماعيلية مرحبا مظهرا عظيم الحفاوة بهم ، ثم رد الزيارة لدرويش باشا بسراى الجزيرة وهناك أظهر له استياءه من حسن لقائه مندوب عرابى ، ومن جفاء لهجته فى مخاطبته اياه فى سراى الاسماعيلية فطيب درويش خاطره مظهرا أنه ما جاء الا لتثبيت سلطة الخديو ...

واظهر درويش فى القاهرة عظيم دهشته وشديد نفوره مما رأى من تحمس الناس وجراتهم وخاصة علماء الازهر الذين اظهروا عطفهم الشديد على عرابى ومبادئه ولم يستثن منهم الا الشيخ الامبابى شيخ الجامع الازهر والشيخ العباسى والشيخ البحراوى والشيخ السادات(١) الذين آثروا الانحياز الى الخديو ...

وذهب وفد كبير من العلماء الى درويش باشا ، يحملون مكتوبا موقعا عليه منهم ومن عدد عظيم من الناس يطلبون فيه رفض الانذار الاجنبى وخاصة ماجاء فيه عن ابعاد عرابى ...

واغلظ درويش فى مخاطبة الشيخ الذى تكلم باسم العلماء وهو الشيخ محمدخضير وانتهره قائلا: « أمسك لسانك فما جئت هنا لاستمع الى النصائح من أحد ، وانما جئت لآمر أوامرى » ، ثم صرفهم فى جفاء وخشونة وفى الوقت نفسه أعطى الحلة العثمانية لشيخ الاسلام ولبعض العلماء ...

وحسب درويش أنه بذلك أخاف العلماء ، ولكن ما لبث أن تبين له خطأه ... فقد اجتمع طلاب الازهر فى

---

(١) S.H Blunt P. 307

اليوم التالى بسبب ما علموا من اهانة علمائهم ، وتعددت الاجتماعات فى جهات من المدينة ، وبدأ الناس يظهرون خوفهم وسخطهم على الوفد التركى ، وخاصة ان عددا كبيرا من الاعيان أرسلوا اليه يحتجون على مسلكه نحو رجال الدين ...

ورأى درويش أن عليه أن يصلح ما أفسد ، وأيقن أن لهجة الامر والنهى لم تعد تجد فى مصر جوا ملائما لها ، وفطن الى انه تلقاء أمة جادة ، خلعت منذ يوم عابدين عن اعناقها أغلال العبودية ومضت قدما فى سبيل الكرامة القومية ...

وكان الرجل غافلا يظن أنه كفيل – وهـو مندوب السلطان – أن يلقى الرعب فى قلب كل امرىء مهما علا مقامه ، وفاته أن مصر اليوم غيرها بالامس ، لان فيها حركة وطنية تغلغلت فى أقاليمها وشملت جميع طبقاتها ..

وفى يوم السبت الموافق اليوم العاشر من يونيو ، أرسل درويش فى طلب عرابى ومحمود سامى ، وكان حتى ذلك الوقت يظهر انه لا يحب أن يراهما ...

وقد اورد جون نينيه حديث هذا اللقاء وأخذه عنه بلنت قائلا انه يثق فى صحته كل الثقة ، أما نينيه فيذكر أنه أخذه عن عرابى (١) ، وأنه سمع مثله من البارودى على أن الشيخ محمد عبده قد ذكر عن هـذا اللقاء ما لا يختلف فى جوهره عن حديث جون نينيه .

قال جون نينيـه : « أظهـر درويش المودة لعرابى ولسامى وأجلسهما بجانبه تكريما لهمـا ثم قال : نحن هنا جميعا أشبه باخوة ونحن أبنـاء السلطان ، وأنا بلحيتى هذه البيضاء أقوم منكم مقام الاب ، وهدفنـا

---

(١) اهمل عرابى الحديث عن بعثة درويش اهمالا ملحوظا فلم يشر اليها الا فى عبارة مقتضبة فى مذكراته المخطوطة

جميعا واحد وهو مقاومة الدخيل والعمل على رحيل الاساطيل ، التى هى اهانة للسلطان وتهديد لمصر ، ثم ذكر أنه يجب عليهم أن يعملوا جميعا لهذه الغاية وخاصة عرابى والوزارة ليظهروا حماستهم نحو مولاهم وان خير ما يفعل فى ذلك هو اعتزالهم مناصب الجندية ولو فى ظاهر الامر فقط ، ولكى يرضى عرابى السلطان ينبغى أن يسافر الى الآستانة ليقيم هناك بعض الوقت وأجاب عرابى على ذلك بقوله : انه مستعد لان يعتزل ولكن الظرف دقيق ولما كان قد أخذ على عاتقه تبعة عظمى هى حفظ النظام والامن فانه لايرضى بأنصاف الحلول ، وأنه اذا اعتزل فانما يعتزل حقا ، ولكنه لن يفعل ذلك الا اذا أخلى كتابة من كل تبعة ، لانه لا يقبل أن يكون مسئولا عن أشياء لم تكن له يد فيها ، لقد اتهم باساءة التصرف والاستبداد والارهاب وغير ذلك ، ولذلك فهو لا يدع منصبه الا اذا أبرئت ذمته كتابة من جميع هذه التهم ، وسوف يذهب الى القسطنطينية بعد هدوء الحال فردا عاديا ليقدم ولاءه للسلطان ... ولم يكن درويش يتوقع هذه الاجابة ولذلك فقد كرهها ، وتغير وجهه ، ولكنه قال : دعنا نعد المسألة منتهية ولتبرق فى الحال الى محافظة الاسكندرية وقائد حاميتها أنك اعتزلت ما أنت مكلف به ووضعته فى يدى وانك وكيلى منذ اليوم ، وعندما يجتمع القناصل والخديو يوم الاثنين فى عابدين سأعطيك ما يعفيك من كل تبعة ...

ورفض عرابى رفضا باتا أن يجيبه الى ذلك قائلا : انه ما لم يصل اليه هذا الاخلاء فانه محتفظ بمنصبه وبمسئوليته ...

ولم تقدم فى هذا الاجتماع قهوة أو سجائر ، وقد أكد لى محمود سامى بعد ذلك هذا الذى أورده عن الاجتماع » ...

نجد فى هـذا الحديث شواهد جديدة على بسالة عرابى وصراحته فى القول ، وعدم فراره من المسئولية، وحضـــور ذهنه وحسن تخلصه ، وفطنته الى ما يدور حوله ، وما أبعد ذلك عما يرميه به الجاهلون والمبطلون من سذاجة وجهل وتهور وعدم دراية بالامور ...

ولقد شك الخديو فى نيات درويش وأوجس فى نفسه خيفة منه ، فمنحه خمسين ألفا من الجنيهات فضلا عن جواهر تساوى نصف هذه القيمة ، وقد أبدت كثير من المصادر نبأ هذه الرشوة ، وما كان أغنى توفيقا عنهـا فان درويش لم يكن فى وسعه أن يصنع بالخديو شيئا ولم يستطع أن يزحزح عرابى من مكانه ...

وقد أرسل صابونجى (١) رسالة من القاهرة بتاريخ اليوم الحادى عشر من يونيو الى بلنت فى انجلترا ، وجاء فى هذه الرسالة أنباء لها أهميتها عن الحال يومئذ بوجه عام ...

فمن ذلك الذى ذكره صابونجى ، ان الشيخ عليش أحد علماء الازهر أفتى بأنه لا يصح أن يكون توفيق حاكما للمسلمين بعد أن باع مصر للأجانب باتباعه ما يشير به القنصلان ، ولذلك وجب عزله ، وان مصر تؤيد عرابى، الأقباط والمسلمون على السواء ، وليس يخرج على عرابى من المديرين وعددهم أربعة عشر الا ثلاثة ، وان الشيخ الامبابى شيخ الاسلام ، تمارض كيلا يحرج فى حضور درويش بين الخديو والحزب الوطنى ... وكذلك ذكر صابونجى أن عرابى يصمم على الجهاد والمقاومة الى آخر رمق من حياته قائلا : « اننا اذا متنا جميعا فسوف

---

(١) هو القس لويس صابونجى ،كان سكرتيرا وصديقا لبلنت ،وكا· يسرق الانجليزية وقد رافقه الىانجلترا ثم ارسله الى مصر قبا[illegible] يوم سفر درويش الى القاهرة .

يدخلون بلدا خربة وسوف يكون لنا مجد الاستشهاد في سبيل وطننا » .

***

ويشير صابونجي الى موقف سلطان فيقول انه اعتزل عرابي وانحاز الى توفيق منذ مجيء السفن ، وليس مع سلطان من النواب الا تسعة وهم جميعا ومعهم الخديو يتهمون بالخيانة ويطلق عليهم اسم الخونة ...

والازهر علماؤه وطلابه ما عدا أربعة من شيوخه في جانب عرابي والحركة القومية ، ويخطب فيهم نديم خطبا حماسية مستشهدا بالقرآن والحديث وأحداث التاريخ

والناس جميعا يستنكرون المذكرة المشتركة حتى ان الصبية في الازقة والنساء في نوافذ المنازل يرددون الهتاف الذي بات مألوفا وهو : « اللايحة .. اللايحة .. مرفوضة .. مرفوضة » ...

ولندع الكلام الآن عن درويش ، فسوف تتبين لنا قاصده ونواياه فيما يأتي من الحوادث حتى يرحل هو وفده من مصر في اليوم التاسع عشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ، أي بعد ثمانية أيام من الاعتداء الغادر على البلاد ...

مأساة الاسكندرية

بدات هذه المأساة فى يوم الاحد الموافق الحادى عشر من شهر يونيو سنة ١٨٨٢ فى صورة مشاجرة بين أحد الوطنيين واسمه السيد العجان وبين مالطى من ساكنى الثغر ، هو من رعايا الانجليز ...

كان الوطنى صاحب حمار ركبه المالطى وقتا طويلا متنقلا من مقهى الى مقهى حتى انتهى به المطاف فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر فى حانة قريبة من « قهوة القزاز » على بعد خطوات من مخفر اللبان بآخر شارع « السبع بنات » ، وظهر منه أنه لاينوى دفع أجرة ركوبه ، فلما طالبه صاحب الحمار ، لم يدفع له الا قرشا واحدا فاختلفا على الاجر واستل المالطى سكينا وطعن به صاحب الحمار عدة طعنات فأرداه قتيلا ...

وخف رفاق القتيل ليمسكوا بالقاتل ولكنه هرب الى بيت قريب ، وسرعان ما رأى الوطنيون الذين تجمعوا عقب الحادث ، طلقات الرصاص تتهاوى عليهم من بعض النوافذ والابواب القريبة ، فسقط بعضهم بين قتيل وجريح ، واجتمع الوطنيون للانتقام ، فأخذوا ما اتفق لهم من العصى والحجارة والكراسى وانهالوا على كل م يصادفهم من الاجانب ضربا لايخشون أى عاقبة ..

واستمرت المعركة حتى الساعة الخامسة مساء

وكان الوطنيون يستنفرون اخوانهم للقتال صائحين : « جاى يا مسلمين ! جاى ! بيقتلوا اخواننا » (١)

ونهبت بعض الدكاكين ، وامتدت الفتنة الى الشارع الابراهيمى والى شارع الهماميل وشارع المحمودية والى جهة الجمرك والمنشية وشارع الضبطية (٢) وسقط فى هذه الشوارع جرحى وقتلى من الاجانب والوطنيين .

وقد ذكر جون نينيه ، الذى شهد المعركة بنفسه ، أن عدد القتلى بلغ ٢٣٨ ، منهم ٧٥ من الوطنيين و ١٦٣ من الاجانب ...

كان لهذه المأساة خطر أى خطر فى الظروف القائمة حينذاك ، وقد حاول كل حزب أن يتهم الآخر بتدبيرها ، فالانجليز والخديو يعزونها الى الوطنيين ، وهؤلاء يعزونها الى الانجليز والى عمر لطفى محافظ المدينة ومن ورائه توفيق ...

وظل الحال كذلك حتى قدم عرابى للمحاكمة بعد التل الكبير فما استطاع خصومه أن يثبتوها عليه وهم أصحاب الجاه والنفوذ ..

ورمى محاميه مستر برودلى بالتهمة خصوم عرابى من المصريين وألح فى ذلك ولعله انما أراد به أن يبعد الشبهة عن بنى جنسه من الانجليز ...

وفى سنة ١٨٨٣ ، تجددت قضية هذه المأساة فى مجلس العموم البريطانى ، اذ تقدم اللورد راندلف تشرشل يحمل حملة عنيفة على وزارة جلادستون ، فاتهم الخديو ومحافظ الاسكندرية عمر لطفى بأنهما المدبران للمأساة ، وقد جمعت أدلة اتهامه فى كراسة من كراسات الكتاب الازرق الانجليزى هى الكراسة « مصر

(١) أثبت هذه العبارة جون نينيه فى كتابه بنطقها العربى
(٢) رأس التين .

رقم ٤ سنة ١٨٨٤ » .

ويجدر بنا أن نتبين وجه الحق فى هذه المأساة ، لما كان لها من عظيم الخطر فى مجرى الحوادث ، فننظر هل كانت مبيتة ؟ واذا كان الامر كذلك فمن بيتها ؟ وماذا كان غرضه من هذا الفعل الاثيم ؟ ..

كان اجماع الانجليز عقب المأساة على أنها مبيتة ، وذلك لانهم أرادوا ان يلصقوها بالحزب الوطنى ، فلما عجزوا عن ذلك راح كتابهم ومؤرخوهم ومنهم كرومر يقولون ان الحادث من الحوادث التى تقع فى المدن كل يوم وانه ابن وقته فلا تبييت هناك ولا غدر من أحد...

أما ان هذا الحادث فى ذاته ابن وقته فذلك ما يقبله العقل فى غير صعوبة بل ما يرجحه على الفرض الثانى ، وأما ان الفتنة على الصورة التى ذكرناها كانت كذلك بنت وقتها ، فذلك ما يصعب تصوره ، على أن المسألة ليست مسألة تصور ، انما هى مسألة حقائق ، فلننظر فيما يحيط بها مما يصح أن يساق مساق الحقائق أو مساق الادلة الصحيحة ...

قرر مستر جويس المهندس الانجليزى ، أن أحد باعة الخضر قال له صباح السبت : اشتر وكل فان النصارى سيذبحون غدا ، ويقول هـذا المهندس أن مثل هـذه العبارات قيلت لغيره من الاجانب ...

وقال انجليزى آخر يدعى هيوارت : « أعتقـد كل الاعتقاد بناء على ما لدى من معلومات استقيتها من عدة مصادر أن مذبحة ١١ يونية كانت نتيجة لخطة مدبرة».

وقال ثالث يدعى الكسندرفيس : « بناء على معلومات تلقيتها تباعا ، كونت رأيا قاطعا هو أن المسألة قد دبرت من قبل وقد بدات فى عدة أماكن فى وقت واحد تقريبا .

وقال مستر جورج بلافاتشى : « ان معركة يوم الاحد

مع المالطيين تلك المعركة التى دبرها من قبل أعوان البوليس قد أدت الى تلك المناظر العنيفة المرعبة منـاظر الفتك والقتل التى كنا نحن شهودها وضحيتها ، وان هـذه الحقيقة الا وهى انبعاث الاضـطرابات من ثلاثة أمكنة مختلفة لدليل على أنها كانت مدبرة من قبل » ...

ويقول فيلبوليس : « كنت فى السوق يوم ٨ يونية الساعة الثالثة بعد الظهر فشاهدت كثيراً من البـدو يحملون بنادق ، وكانوا يضعونها فى مخازن لتحفظ فيها كما يبدو ، وفى اليوم التالى بينما كنت جالسا فى مقهى اقترب منى احد العرب وهو صديق لى وطلب الى أن آخذ حذرى ، لان العرب كانوا سيقتلون الاجانب اما فى ذلك اليوم أو فى اليوم الذى يليه » .

وكتب لورد جرانفل الى نائب قنصـل الاسكندرية مستر كارتريت يقول : « أنبأنى مسيو سينادينو أحد أعضاء مصرف يونانى بالاسكندرية ان كل ما لديه من المعلومات يميل به الى الاعتقاد بأن الاضطرابات الاخيرة بالاسكندرية كانت من قبل مدبرة » ...

وكتب اليه بعد ذلك يشير الى هذه الرسالة مضيفا اليها قوله : « لقد ذكر أن رسالة أرسلت الى كل قنصل من الاجانب كى يحضر الى بيت المحافظ ، وانهم بناء على ذلك اخترقوا المدينة فى وقت الاضطرابات ، وقد تبين من البحث بعد ذلك أن رسالة كهذه لم يرسلهـا محافظ الاسكندرية »

ويقول دكتورجويس : « انى أرى ان هـذه المذبحة دبرت من قبل ، وليس هذا شأنها فحسب ، بل لقد نفذت فى مهارة ، وان الذين خاضـوا غمارها كانوا فى الوقت نفسه يبحثون عن أسلاب ، ولقد جمعوا فى الواقع بين العملين فى وقت واحد »

ويقول مستر ستونتون : « عنـد نزولى الى البر ومرورى فى عربة بشوارع المدينة رأيت الناس فى الطرقات المؤدية الى الحديقة العامة هادئين جدا لايبدو عليهم شىء من الشر ، ولما بلغتنا أنباء الاضطرابات بعد ذلك بثلاث ساعات وشهدت مئات من الوطنيين مسلحين جميعـا بالعصى والمدى ، استقر رأيى على أن الفتنة مدبرة »

وقرر مستر جروسجيان ، ذلك الذى اختاره اللورد جرانفل ليجمع أدلة تفضى الى ادانة عرابى باشا ، أنه وصل الى أن الحوادث مدبرة ولكنه لم يصل الى شىء يلصقها بعرابى (١) ...

نورد بعد ذلك بعض ما قاله جون نينيه ، وهو رجل سويسرى أقام بمصر أكثر من أربعين سنة منذ أن قدم فى عهد محمد على فى عمل يتصل بزراعة القطن ، وقد خالط أهل مصر من جميع الطبقـات وعرف أحوالها معرفة وثوق كأنه من أهلها ، وقد شهد مأساة الاسكندرية وكان يتنقل فى أركان شوارعها أثناء القتال متباعدا حذر الفيلة ، قال بعد أن وصف ما أحدثه مجىء السفن من هياج : « لقد نظر الاوربيون الى ذلك كأول عمل من أعمال الحرب وأصبح سلوكهم نحو الوطنيين ينطوى على التهديد . . . وقد أزعج الهياج الاوربيين وخاصة الانجليز والمالطيين فاتصلوا بقناصلهم يسألونهم عن الوسيلة التى يحمون بها أنفسهم اذا وقع الاضطراب ؟ وقد أخبرهم مستر كوكسن بأن عليهم أن يحموا أنفسهم ، وقد علم فى أواخر مايو أو فى أوائل يونيو أن أسلحة أرسلت من اليونانيين فى الاسكندرية » . وقال جون نينيه يصف

(١) وردت هذه الاقوال جميعا فى كراسات الكتاب الازرق الانجليزى وقد ذكرها اللورد تشرشل أثناء اتهامه الخديو وعمر لطفى مستخرجا اياها من مجموعة الكتب الزرق الخاصة بمصر .

القتال : « ولكن على بعد نحو مائتى ياردة كان الدهماء يتحركون كالبحر ورأيت طلقات نارية تنبعث من بعض النوافذ، واتجه القتال سريعا الى حيث كنا نقف ، ولذلك تراجعنا حتى اذا كنا على مقربة من مدرسة لازارست ، رأيت أمام أحد المقاهي عددا من اليونانيين مسلحين بالفدارات وقد أخذوا يطلقونها على الناس فى غير تمييز عقب مرورنا بهم مباشرة ... وعند ذلك رأيت عربة فى داخلها أحد رجال المستحفظين جريحا أو ميتا ، ولعله هو الذى طاف بالنذير . ذلك لانى رأيت فى أثره عددا من المسلمين وبعضهم من السود والبدو قادمين من عدة جهات يحملون عصيهم ... ثم اتسع نطاق القتال واطلاق النار واتخذت طريقى الى بيتى »

ويقول أحمد رفعت بك ، وهو من كبار الموظفين وقد كان السكرتير العام لمجلس الوزراء فى وزارة البارودى : « ان هناك شيئا واحدا يحمل على اليقين وذلك أن هذا الحادث كان مدبرا من قبل ، فقد قام الدليل على أن عددا من «النبابيت» قد وزع على الدهماء قبل يوم ١١ يونية بأيدى بعض العناصر الخفية ، وان هذه النبابيت ظهرت فى وقت واحد فى عدة أماكن فى المدينة فى نفس اللحظة التى قتل فيها أحد المالطيين حمارا لسبب تافه (١) » ويقول الشيخ محمد عبده : « فى هذه الحالة رؤى مستر كوكسن نازلا من بيت أحد المالطيين بلباس ملكى ومعه قواصه فتبعه المتشاجرون وضربوه ضربا خفيفا عندما أراد أن يركب » (١)

يضاف الى ما سلف برقية مالت فى أواخر مايو التى

(١) أثبت لورد تشرشل تقرير أحمد بك رفعت فى اتهامه ، وقد أكد رفعت كلامه فى محضر استجوابه عند محاكمته .

(٢) ذكر ذلك جون نينيه كما ذكره بلنت ..

سبق أن أشرنا اليها وهى قوله : ان تصادما سوف يقع قريبا بين المسلمين والمسيحيين (٢) ، ولقد أشار الشيخ محمد عبده الى هذه البرقية فى تلك الورقة التى كان يدون بها بعض ملاحظاته بقوله : « مسألة تسلح الاجانب وايهام مستر كوكسن أن حوادث ستحدث » ...

هذه كلها أدلة نقطع معها أن هذه المأساة كانت مبيتة قبل وقوعها ، وانه لو لم يكن حادث السيد العجان ، والمالطى ، لوقعت المأساة عقب أى حادث من نوعه أو من أى نوع آخر ...

واذا كانت المأساة مدبرة على هذه الصورة فجدير بنا أن ننظر من دبرها ، وسبيلنـا فى ذلك أيضا أن نورد الحقائق التى تنهض أدلة على ما نذهب اليه ...

ولما كان عمر لطفى باشا هو محافظ المدينة وقت وقوع المأساة فخليق بنا أن نبدأ به فنستعرض ما كان من مسلكه أثناء ذلك الحادث ، فمن هذا يتبين لنا مبلغ ما يقع على كاهله من تبعة ، ان كان الامر فيما يتصل به أمر خطأ أو تقصير ، ومبلغ نصيبه من الجريمة ان كان أمر اجرام وتدبير ...

وان أول ما نذكره عن عمر لطفى أنه كان بصفته محافظ المدينة المسئول عن الامن والنظام فيها كما نذكر أنه منذ استقالة الوزارة لم يكن لاحد عليه من سلطان الا الخديو ، وذلك حسب الامر الذى أصدره الخديو عقب استقالة الوزارة بعرض ما كان من اختصاص وزارة الداخليـة على القصر ...

ونذكر بعد ذلك أن عمر كان من أنصار الحزب الوطنى حتى منتصف شهر مايو ، ثم انحاز الى الخديو فيمن انحازوا اليه بعد ذلك ، والدليل على ذلك أن الخديو

(1) Blue Book, Egypt, No. 8; P. 60

عرض عليه منصب وزير الجهادية بعد سقوط وزارة البارودى .. على أنه ظل الى ما بعد سقوط الوزارة يتظاهر بالولاء للحزب الوطنى فيحضر حفلات هذا الحزب بالاسكندرية ويحرص على الصلة بكبار رجاله ...

وتذكر بعض المصادر الهامة نبأ برقية من الخديو الى عمر لطفى على أعظم جانب من الخطورة نعربها فيما يأتى « لقد ضمن عرابى الامن العام ونشر ذلك فى الجرائد ، وقد تحمل مسئولية ذلك أمام القناصل ، فاذا نجح فى ضمانه ، فان الدول سوف تثق به وسوف نفقد بذلك اعتبارنا ، يضاف الى ذلك ان أساطيل الدول فى مياه الاسكندرية وان عقول الناس فى هياج وان الحرب قريبة الوقوع بين الاجانب وغيرهم ... والآن فاختر لنفسك هل تخدم عرابى فى ضمانه أم هل تخدمنا » (١) .

وكان عرابى فعلا قد أخذ على عاتقه مسئولية الامن بعد اعادته الى وزارة الجهادية وأعلن ذلك رسميا فى الصحف بعد الاتفاق عليه مع الخديو ...

ويذكر عرابى باشا فى تقرير كتبه لبلنت قوله : «قبل كل شيء أرسل الخديو الى عمر لطفى محافظ الاسكندرية ليحضر الى القاهرة بقطار خاص يوم ٩ يونية ، وقد تحدث معه الخديو عقب وصوله مدة طويلة ، وأعطاه ما يلزمه من التنبيهات لاحداث فتنة فى الاسكندرية» .

وكانت شرطة المدينة تحت رئاسة عمر لطفى ، وقد اشترك هؤلاء فى الجرائم بدل أن يعملوا على القضاء عليها

(١) أكد أحمد رفعت هذه البرقية وقد ذكرها رندلف تشرشل فى اتهامه ، كما أكدها بلنت فى كتابه ، وذكرها الشيخ محمد عبده ويذكر برودلى فى رد منه على كتاب من تشرشل أن اثنين من المسجونين السياسيين أثناء المحاكمة ذكرا له هذه الصلة وأن أحدهما عرفها من أحد موظفى التلغراف بالقصر نفسه ..

كما يقضي بذلك أول واجب عليهم ، واشتراك الشرطة فى المأساه ثابت من تقارير أشخاص لهم خطرهم ومن هؤلاء مستر جروسجيان السالف ذكره ، وقد كانت مهمته كما اختاره مالت باشارة من جرانفل أن يجمع الادلةعلىاشتراكعرابى فىالجريمة، وقد قالجروسجيان ان الشرطة اشترت قبل الحادث بأيام قليلة عددا كبيرا من النبابيت وانها وزعتها على عدد من سفلة البدو ، وكان توزيعها من بيت قريب من مقر الضبطية ، ولم تتخذ اجراءات ضد موزعى تلك النبابيت...كما يذكر جروسجيان أن عشرة من الاطبــاء الاجانب قرروا أن جراح المصابين جميعا كانت اما من النبابيت ، واما من الحراب ، وكانت هذه هى أسلحة الشرطة ...

وقرر مستر جويس المهندس بالاسطول الانجليزى : « ان المستحفظين أو الخفراء قد أخذوا بنصيب فعال فى الفتنة ، فكانوا يقتلون المسيحيين حين لا يفعلالوطنيون ذلك ، وينظرون فى سكون فى حالة اعتداء الوطنيين » .

وذكر مسترهيوارت وهو من رجال المــال وقد أقام سبعة عشر عاما فى الاسكندرية : « ان الشرطة بدلا من أن تقضى على الفتنة عملت على زيادتها ، وان معظم الجراح كانت من أيديها ، وانها كانت توزع النبابيتعلى العرب وان بعض الأوربيين كانوا يلجأون الى الضبطية ، فكانوا يذبحون على مقربة منها أو بداخلها ، وانه لولا حضور الجيش فى النهاية لتفاقم الخطب وان الاجانب يدينون بأرواحهم لرجال الجيش ...

ولقد وقف عمر لطفى موقفا سلبيا من هذه الاحداث يتضح ذلك فى قول جون نينيه : « تصادف أن قابلت عمر لطفى فى الساعة الثالثة ، وكان يمشى بملابس عادية ومعه بعض رجال الشرطة فسألته : لماذا لم تفعل شيئا

لايقاف الفتنة ؟ فقال : انه كان مع القنصل الانجليزى وقد اعتدى عليه ، فقلت : ولماذا لم تذهب بملابسك الرسمية وتستصحب نحو خمسين رجلا من رجال الشرطه الفرسان لتقضى على الفتنة ؟ فأجاب بأنه لم يعثر على قنديل رئيس الشرطة ، فسألته : ولماذا لم يفعل الجند شيئاً ؟ فقال : انهم لم يتلقوا أوامر فلايستطيعون التحرك فسألته : وماذا فعل القناصل ؟ فقال : انهم عقدوا اجتماعا ، فقلت : ولماذا لم تبرق بما حدث الى الخديو والى عرابى باشا ؟ فأجابنى فى خشونة قائلا : « وما شأنك والمسألة عن هذا ؟ » .

ويقول روثستين : « ابتدأت الفتنة حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر واستمرت حتى الساعة الخامسة .. حدث هذا كله ورجال البوليس كانوا تارة لايفعلون شيئا وتارة يشتركون فى الفتك والقتال ، أما عمر لطفى فكان فى أثناء ذلك قد استحوذ على مكتب التلغراف ليكون على اتصال بالخديو ، ولم يخبر سليمان سامى قائد الحامية بشىء عن الفتنة الا بعد مضى الساعة الرابعة . وحتى فى هذه الساعة قد أمر بأن يقود الجنود عزلا من السلاح على أن الرجل تولى الامر بنفسه فبرز فى الساعة الخامسة وأخمد ثورة المذبحة »

ويقول عرابى : « ان عمر باشا وهو المحافظ لم يرسل الى أى نبأ عن الحادث مع انه يعلم انى أخذت على عاتقى حفظ الامن والنظام فى البلد كله »

وفى الوقت نفسه كانت الصلة بين عمر لطفى وتوفيق مستمرة أثناء الحوادث كما يشهد بذلك أحمد رفعت بناء على ما وصل الى علمه من موظفى التلغراف بالقصر ولقد كتب وهو فى السجن انه يستطيع أن يثبت ذلك لكنه بالضرورة لم يتمكن من شىء ...

وقرر كذلك جون نينيه أن مصلحتي التلغراف في الاسكندرية والقاهرة قد شغلتا طوال الوقت بالاتصال بين الخديو وعمر لطفي .

ويقول الشيخ محمد عبده في تقرير له كتبه في منفاه بسوريا : « حقا ان أكثر من اتهموا ومن قبض عليهم بعد الحادث بيوم كانوا يصيحون بقولهم : « لا لوم علينا فان سعادة المحافظ نفسه هو الذى كان يأمرنا بأن نضرب وأن نسرق » (١)

وجاء كذلك في تلك الورقة المرقمة التى كان يثبت بها ملاحظاته قول الاستاذ : «وعلى القرب من زيزينيا رؤى عمر لطفي فسأله سائل : كيف تكون هنا والمذابح على خطوات منك ؟ فقال : لست بقائد وهذا لايعنيني... فسأله : ولماذا لم تحضر بلباسك الرسمى على حصانك شاهرا سيفك في حراسة خمسين من عساكر المحافظين وبذلك كان ينتهى الامر ؟ فأجابه : انصرف ليس هذا من شأنك وهل أنت محافظ البلد ؟ » ..

وجاء فيها أيضا قوله : « لم يصل الخبر عرابى الا الساعة الرابعة والربع بعد الظهر مع ان القليل من موظفى التلغراف الذين يشتغلون بعد الظهر لم يكن عندهم وقت للعمل الا في تلغرافات المحافظ ، حتى ان رسالتين هامتين من أحد الميرالايات في الاسكندرية لم تقبلا لاشتغال الكثرة بتلغرافات المحافظ »

وقوله : « ذهب نينيه عند قنصل روسيا وحدثه بما رآه من المحافظ فتعجب وقام للمخابرة مع اخوانه القناصل ، وبعد ذلك كتب للخديو ودرويش وعرابى ، وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر » .

---

(١) عثرنا هذه العبارة من كلام الشيخ عن تقرير تشرشل الذى احتواه الكتاب الازرق رقم ٤ سنة ١٨٨٤ مصر .

وقوله : « سليمان سامى كان مستعدا لارسال العساكر اذا ورد له الامر من نظارة الجهادية ولكن لم يكتب أحد بذلك الى النظارة لان الامر بيد المحافظ » .

وقوله : « عمر لطفى باشا طلب انزال جند انجليز لعجز عرابى عن حفظ الامن » .

وقال أحمد رفعت : « ولما كنت فى الاسكندرية بعد الحادث باثنى عشر يوما سمعت الناس يقولون فى صوت واحد : ان المحافظ عمر لطفى هو الذى أدى بتفاقم الامر الى هذا الحد لانه كان حاضرا ولم يصدر أى أمر لايقافه »

هذا ما يتصل بموقفه السلبى من الاحداث ، ذلك الموقف الذى ينطوى على أشد الريبة ، وانه ليصعب على المرء أن يتصور أن محافظا فى مدينة ما يرى القتال بين الناس ثم يقف منه مكتوف اليد كما وقف عمر لطفى من حوادث الاسكندرية ، ثم لا يتهم بأنه ان لم يكن مدبر الجريمة ، فهو على الاقل راض عنها لانها جاءت وفق ما يريد ...

على ان جون نينيه يذكر نبأ عظيم الخطورة عن هذا المحافظ ويقول انه سمعه من سكرتير سيمور أدميرال الاسطول ومؤداه ان عمر لطفى ذهب الى ذلك الادميرال فى قارب بعد المأساة بأربعة أيام وطلب اليه أن ينزل جنودا بالاسكندرية لان عرابى لن يقوى على حفظ الامن

وقد رأينا أن الشيخ محمد عبده يشير الى شىء مثل هذا فى مذكرته ، كما ان أحمد رفعت بك يذكر مثل هذا النبأ فيقول : ان الخديو وقت الحادث أبرق الى لطفى أن يستعين بجنود من الاسطول لا بفرق من الجيش المصرى ، كأنما يستعجل توفيق الاحتلال ويخشى أن تفلت الفرصة من يده .

ومن أخطر ما يتصل بموقف عمر لطفى أنه كان يعلم قبل المأساة ان الاجانب يسلحون أنفسهم ، ثم لم يتخذ اى اجراء احتياطى لما عسى أن يؤدى اليه هذا التسليح، ولا هو ابلغ عرابى بشيء من هذا أو أبلغ الخديو ليتصل بعرابى ، وكان علمه بهذا التسلح حقيقة ثابتة ، فقد ذكر كوكسن فى رسالة منه الى مالت فى اليوم السادس من يونية انه يعد العدة للتسلح ، ثم قال : « ويصح أن أذكر أن محافظ المدينـــة زارنى منـــذ أيام وكان معى بعض زملائى وأبلغنى أنه علم انالاجانب يسلحون انفسهم» (١)

ولننظر بعد ذلك فى موقف الخديو من هذه المأساة ، ولنبين ماعسى أن يكون من صلة بينه وبين عمر لطفى ، وما عسى أن يكون من مغزى لهذه الصلة بينهما ...

ذكر اللورد راندلف تشرشل فىقرار اتهامه الذىأثاره فى مجلس العموم البريطانى فى سنة ١٨٨٣ ، ان الخديو توفيق ، اتصل ببعض البدو فى مديريه البحيرة وخاصة قبيلة أولاد على ، وذلك عن طريق مدير الاقليم ابراهيم توفيق ، وكان الخديو يرمى الى غرضين : اتخاذ هؤلاء البدو قوة له يقاوم بها قوة الجيش ، ثم الاعتماد عليهم فى احداث فتن وقلاقل تظهر الوزارة بمظهر العجز أمام دول اوربا ، وقد أنفق الخديو على ذلك نحو عشرينألفا من الجنيهات وزعت على مشايخ هؤلاء البدو، واستقبل توفيق هؤلاء الشيوخ فىمقره وأكرم مثواهم واتفقمعهم على أن يدخلوا عددا من أتباعهم القاهرة عن طريقالجيزة وكان يريد أن تقع الفتنة فى القاهرة ، ولكن هؤلاء البدو تخاذلوا عن القاهرة لما رأوا من يقظة الحكومة ، على أن عمر لطفى قد استعان ببعض هؤلاء البـــدو فى مأســـاة

---

(١١) مصر رقم ١١ ٠ ص ٥٢٠

الاسكندرية (١) ...

وذكر بلنت فى كتابه هذه المؤامرة وأكدها ، وكذلك ذكر احمد رفعت بك فى تقرير كتبه فى سجنه ...

ويقول روثستين : « فى هذا اليوم وقعت بالاسكندرية مذبحة الاجانب التى دبرها الخديو ومحافظ المدينة عمر باشا لطفى ، وقام بها رجال البوليس وجماعة من الفتاك المستأجرين ، وهى مثل صحيح لما يقع فى زمننا هذا من مذابح اليهود المدبرة ...

لقد كان الخديو يعلم حق العلم أن هيجة صغيرة تقع بمصر انما هى ضالة السياسة البريطانية التى ما برحت تنذر بأشد الويل للاجانب اذا لم يقض على «الفوضى» التى يؤيدها حزب سامى وعرابى بنفوذه «العسكرى». وفى ٣١ مايو ، وليس قبل ، أنهى السير ادوار مالت الى اللورد جرانفل أن المسلمين والمسيحيين قد يصطدم بعضهم ببعض وقتا ما ، وقد رأينا أن ذلك ادى الى تعزيز الاسطولين ...

ومع هذا فان الخديو باطلاع مستشاريه الاجانب ، أو بغير اطلاعهم قد عقد العزم على أن يتعجل تلك الفتنة المنشودة بشىء من الكياسة ولطف الحيلة اذا كان سير الحوادث الطبيعى لا يعجل وقوعها . ولكن ترى أين تقع هذه الفتنة ؟ انها اذا وقعت فى القاهرة فلا تؤمن عاقبتها على الاطلاق . ففى القاهرة عرابى ورفاقه ، وفى القاهرة الجيش الذى يستطيع أن يقطع دابر الفتنة فى طرفة عين ، أما اذا وقعت فى الاسكندرية فانها يكون لها شأن آخر . فمحافظ المدينة هو عمر باشا لطفى الذى كان

---

(١) الكتاب الازرق . مصر رقم ٤ – ١٨٨٤ ص ٢ ، وجاءت الادلة على استعانة الخديو بالبدو فى رقم ٧ ص ، ٧٨ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٤١ .

وطنى الميل زمنا ما ، والذى رشحه الخديو لنظارة الحربية فى فترة اليوم التى أعقبت استقالة وزارة سامى فأصبح من مصلحته أن يعمل على سقوط عرابى » .

وقال اللورد تشرشل بعد أن أشار الى برقية توفيق الخطيرة الى عمر لطفى : « ان لدى أدلة على انه أثناء الاسبوع التالى ، أرسل حيدر باشا ابن عم الخديو مرتين الى الاسكندرية ، وكان يلقاه الخديو عقب عودته تحت ستار الليل ، وقد ثبت أن حيدر هذا نفسه كان حاضرا بالاسكندرية يوم الفتنة ومنها سافر الى القاهرة عقب الحادث مباشرة »

واورد أحمد رفعت بك مثل هذه الرواية عن حيدر باشا وزاد عليها أنه صحب الخديو بعد ذلك عند سفره الى الاسكندرية ...

ولا يفوتنا ونحن فى صدد الكلام عن صلة توفيق بالمأساة أن نشير الى برقيته الخطيرة الى عمر لطفى ، التى طلب اليه فيها أن يختار لنفسه ، هل يكون معه ، ام يكون مع عرابى ...

كذا لا يفوتنا ان نشير هنا الى ميله لانجلترا وقبوله المذكرة المشتركة الثانية والى رغبته فى التخلص من عرابى وحزبه بأى ثمن ...

وقد ذكر أحمد رفعت بك فيما ذكره عن المأساة بعد نفيه من مصر : « فى يوم الاحد الموافق ١١ يونية كان المندوب العثمانى درويش باشا ، الذى وصل الى مصر قبل ذلك بثلاثة أيام ، يقطع فى عربته الطريق بين قصر الجزيرة وجسر قصر النيل وكان قد لقى فى مقره عرابى باشا والوزراء المستقيلين لقاء طويلا ، وكان متجها الى قصر الاسماعيلية حيث كان يقيم الخديو ليفضى اليه باتفاق كان يؤدى كما قيل الى صلح بين الخديو والوزراء

وعلى مقربة من الجسر قابله طلعت باشا سكرتير الخديو ، وقد أرسله سيده ليبلغه بأن فتنة وقعت فى الاسكندرية وأنها استمرت ثلاث ساعات وان الأوربيين والمسيحيين كانوا يقتلون أينما وجدوا ، وقد أدى طلعت الرسالة فى مظهر المنتصر وظهر عليه سرور شديد ، وكأنما كان يريد أن يقول ان عرابى الذى عمل من أجله ما عمل كان سبب ما حدث ...

وأرسل درويش باشا أحد الضباط المرافقين له فى العربة ليعود من فوره الى عرابى ولما كنت حاضرا فقد أفسحت لرسول درويش مكانا فى عربتى وأخذته الى بيت محمود سامى حيث كان عرابى حاضرا فى ذلك الوقت . وشاعت الانباء سريعا فى المدينة ، وقد انزعج لها الناس جميعا ، واستولى الحزن على عرابى وصحبه أما فى قصر الخديو وحده فكان الفرح واضح المعالم »

وقدجاء فى تقريره وهو بالسجن ما لايخرج عن هذا ، وقد ذكر فى نهايته أنه يستطيع أن يثبت ما يقول بشهادة شهود لا يمكن أن تحوم حولهم شبهة ...

***

ومما هو جدير بالاعتبار أن الخديو عين عمر لطفى باشا على الرغم من سلوكه أثناء الفتنة رئيسا للجنة التحقيق التى كلفت بالبحث عن المسئولين ، وكان أول شيء يجب أن يعمل لو سارت الامور سيرا بريئا أن ينحى عمر لطفى لكى يستطاع سؤاله عن أسباب تقصيره ، ذلك التقصير الذى لا يستطيع أن يمارى فيه أحد ...

وكان الفرض من لجنة التحقيق الصاق تهمة المذابح بعرابى وحزبه ، فلما لم يتيسر ذلك بأى وجه انسحب الانجليز كما سنرى من لجنة التحقيق ، ونصح الخديو

لعمر لطفى أن يطلب اجازة بحجة السـفر الى خارج القطر للراحة

وبقى عمر لطفى بمصر حتى أعلنت الحرب ، ولمـا عزل عرابى فى اليوم السادس والعشرين من شهر يوليو عينه الخديو وزيرا للحربية مكانه

ومما يذكر فى صدد هذا أن حيدر باشا كذلك قد ظفر بمقعد بين الوزراء ...

***

ننظر بعد ذلك فيما كان من أمر عرابى وحزبه تلقاء هذه الفتنة ، ولنبدأ بما ذكره روثستين فى هذا الصدد قال : « واعجب ما يتصل بهذا الحادث وأغربه أنهم حاولوا فيما بعد أن يجعلوا لعرابى يدا فيه مع أنه قاسى من جرائه ما لم يقاسه غيره . فزعموا أنه ناسج برد المؤامرة لحمته وسداه ، والآمن بالمذبحة ، والناهى رجال الحامية عن التعرض لها . ولكن التهمة تطايرت بشكل يرثى له عندما أدركوا أن اللجاج فى الامر قد يزيح الستار عمن قاموا حقيقة بتلك الفظيعة المنقطعة النظير . ثم ظهرت الحقيقة على الرغم من ذلك كله ، وكان الفضل فى ظهورها راجعا الى جهود المستر بلنت . وفى سـنة ١٨٨٣ بسط اللورد رندلف تشرشل لاعضاء البرلمـان الامر بأجمعه » .

ونحسب أن المسألة واضحة كل الوضوح فى بعـد عرابى وحزبه عن هذه المأساة فمما لاريب فيه أنها موجهة ضدهم ، فقد ضمن عرابى الامن ولايمكن أن يطعن نفسه بنفسه فيأتى بما يهدم كل ما يدعى ، كذلك ما كان من الممكن ان يقف سليمان سامى قائدحامية المدينة مكتوف اليدين من المأساة لو انه أحيط علما بها وقد علم أن تبعة الامن ملقاة على عاتق عرابى ...

وقد أرسل كوكسن برقية الى مالت عقب اعادة عرابى الى الوزارة يصف الاسكندرية فقال : « كل شيء هنا هادىء ، والسلطات المحلية تؤكد لى أنه لا خوف من وقوع اضطراب ، وقد تلقت فرق الجيش ردا من القاهرة اتفقت بناء عليه أن تظل ساكنة فى الوقت الحالى»

ولم يكن لعرابى من سلطان على عمر لطفى اذ كان هذا بعد استقالة البارودى يتلقى الامر من الخديو مباشرة ، وقد ثبت أنه لم يتصل بعرابى عند وقوع المأساة حتى يمكن أن يقال ان عرابى تراخى فى الاشارة عليه بما يجب أن يعمل

هذا وقد أعاد الجيش الامن الى المدينة بأمر من عرابى بمجرد ان علم بالنبأ ، ومما هو جدير بالنظر أنه لم يحدث بعد ذلك فى المدينة حتى وقعت الحرب أى شغب منذ أن تدخل الجيش وفطن الحزب الوطنى الى الدسيسة

ولقد كان وقع النبأ أليما فى نفس عرابى ونفوس أصحابه ، حتى ان عرابى ظل صامتا مكتئبا يضغط بيده على قلبه ويتنهد تنهدات طويلة (١)

واهتم عرابى بالتحقيق اهتماما كبيرا يتضح ذلك فيما أرسله الى سليمان سامى اذ يقول : « لست تجهل أهمية مركزك فى الوقت الحالى فيما يتصل بلجنة التحقيق ، وذلك لان أعضاء اللجنة ليسوا كما تعلم مساوين فى العدد لاولئك الذين يهمهم شرف الجيش والامة ، وهذا يجعل من الضرورى أن تتخذ كل الحذر أثناء التحقيق وأن تعمل على كشف الدافع الحقيقى الى هذه الفتنة »

والامر كما نذكر لايحتاج الى كثير من القول ولا الى

(١) مما كتبه صابونجى الى بلنت عقب الحادث .. (٢)

قليل لبيان موقف عرابى وحزبه ، فاذا أراد المرء أن يبحث عمن ارتكب جريمة ما فلينظر من له مصلحة فى اقترافها ، ولقد كان فى هذه المـأساة الضرر كل الضرر على عرابى وعلى قضية الحزب الوطنى

***

يأتى بعد ذلك الكلام عن موقف الانجليز من المأساة ، وأول ما نذكره أن ذلك المالطى الذى قتل السيد العجان كان أخا لخادم مستركوكسن ، وقد يكون ذلك من قبيل المصادفات ، ولكنه لايمنع من القول بأنه تجرأ على الطعن لما كان يعلمه من نية مبيتة بينه وبين أشباهه من المالطيين

وكذلك نذكر أنه كان بين القتلى رجل يدعى ستراكت وكان يعمل خادما للسير بوشمب سيمور أدميرال الاسطول وقد أقسم هذا الادميرال العظيم الذى جاء لضرب الاسكندرية أن يثأر من أهل المدينة لمصرع خادمه(١)

على أن هناك من الشبهات والقرائن ما هو أهم وأقوى من هاتين القرينتين ، وحسب المرء أن يقلب صفحات الكتاب الازرق ليرى أنه تلقاء يقين لا يخالطه شك ...

ولقد أشرنا الى بعض ما كان يدبره مالت وكوكسن وأشياعهما ، ونكرر هنا الاشارة الى برقية كوكسن الخبيثة بأن تصادما سوف يقع بين المسيحيين وبين المسلمين ، وكذلك نعيد الاشارة الى ما أرسله مالت الى جرانفل فى اليوم السابع من مايو ومؤداه أنه لابد من حدوث ارتباكات قبل تسوية المسألة المصرية وان الاصوب استعجال هذه الارتباكات لا تأجيلها (٢) .

ونعود بالقارىء الى ما سقناه من أدلة على ان المأساة

(١) S. H. Blunt, P. 317

(٢) Blue Book, Egypt, No. 7; P. 107

مدبرة ، وخاصة تسليح الاجـــانب أنفسهم ، ولنبسط القول بعض البسط فى هذه المسألة ، فنقول انكوكسن كان دائب السعى فى تسليح الاجانب وخاصة الانجليز كما هو ثابت صراحة فى الكتاب الازرق ، وقد اتصـــل بالسيرسيمور أكثر من مرة كما اتصل بالســير ادوارد مالت مرات ، وكان يقول لمالت كل مرة انه يحرص على سرية هذا التسليح مخافة أن يحدث ذعرا اذا عرف ، والواقع ان الغرض منه كان تبييت الغدر حتى تحين الساعة المقصودة ...

وليس يخفىماينطوىعليه هذا التسليح من تحريض على الفتنة بطريق الايحاء ، ولعل ذلك ما دعا مالت الى شىء من التحفظ ليفلت من التبعة ويتضح هذا التحفظ فى برقية منه الى اللورد جرنفل يوم الفتنـــة بالذات اذ يقول : « لى الشرف أن أذكر لفخامتكم أنقنصلالسويد العام وصل اليوم من الاسكندرية وعرض على مشروعا للدفاع العام عن الاجانب ورغب فى موافقة ممثلى الدول عليه ، وقد أجمع الممثلون على أن تسليح ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف تمهيدا لهذا الدفاععمل بالغ الخطورة ، وانه بجانب ذلك عمل فى ذاته يفضى الى التصادم فى أى وقت ، وعلى ذلك فقد اتصلوا بقناصلهم كيلا يشاركوا فى شىء من هذا ، وبناء علىذلك أبرقت الى مستركوكسن ألا يشارك بعد الآن فى شىء منه ، وفى حال ما اذا خيف الخطر على البريطانيين فعليه أن يعتمـد على مساعدة الادميرال وأن يعمل حسبما يشير به من نصائح ، ولما وجدت الامر يقضىأن تبقى تعليماتىسرية اذ أنها تتصل بالرجوع فجأة عن خطة بانت معلومة الى حد ما ، فقد أشرت على مستركوكسن بأن يجعل ما سلف من الامور السرية وفى الوقت نفسه عليه أن يحاول أن يقضى على

المخاوف بأن يذيع أنه ليس ثمة نزاع بين الوطنيين والاجانب ، وان المفاوضات في الوقت الحالي في يد درويش باشا المندوب العثماني الذي يعمل باسم السلطان . وطلبت الى مستر كوكسن أن يطلع على هذه التوجيهات الادميرال السير . ب . سيمور ».

وأدعى من هذا التسليح الى اثارة الشبهة موقف الانجليز من التحقيق الذي أزمعت وزارة راغب باشا اجراءه عقب تأليفها ...

أراد الانجليز أن يعزوا هذه المأساة الى عرابي ، ولم يعنوا بالبحث عن الحقيقة في ذاتها ، وقبلت ضمائرهم أن يتجهوا هذا الاتجاه وهم الذين طالما عابوا على الشرقيين انحطاطهم وتفاخروا عليهم بمدنيتهم ، أرسل جرنفل الى مالت يقول له : « أطلب اليك أن تتخذ الخطوات التي تؤيد هذا الدليل وخاصة ما يتصل منه بمسلك نديم ووكلاء عرابي وعلاقة قنديل بعرابي »

ثم تلقى كارتريت نائب قنصل الاسكندرية من جرنفل برقية بتاريخ ٢٤ يونية وفيها يقول : « لقد ذكر في الصحف العامة أن راغب باشا أمر باجراء تحقيق في الاضطرابات التي وقعت بالاسكندرية يوم ١١ الحالي ، واذا كان الامر كذلك فان حكومة جلالة الملكة ترغب منك أن تقف بمنأى عن هذا التحقيق، وعليك أن تخبر قنصل جلالتها بما تلقيت من توجيهات في هذه المسألة »

ونفذ كارتريت ما امر به وأغرى زميله القنصل الفرنسي بأن يسلك مسلكه وكان سبب انسحاب هذين من لجنة التحقيق أن اللجنة أرادت أن تفتش منازل الاجانب والوطنيين على السواء ، وكان أولى بهما لو أرادا انصافا أن يزدادا اطمئنانا الى عدالة اللجنة بهذا القرار وأن يجعلاه سببا لانضمامهما اليها لا لابتعادهما عنها ...

وعرض راغب باشــا على الاجانب أن يؤلفوا لجنة جديدة يحدد عملها فرفض كارتريت هذا العرض وأيده جرنفل فى رفضه • وفى الوقت نفسه طلب الى كارتريت أن يجمع المعلومات لحسابه هــو وخاصة ما يتصــل منها بمسلك وزارة الجهادية تجاه الحادث وبما حصل من تأخير فى ارسال الجنود الى أمكنة الاضطرابات (١)

علق اللورد رندلف تشرشل على ذلك بقوله : «وهكذا نرى ان الاضطغان المتعمق فى نفس اللورد جرنفل على الحزب الوطنى ، وأن الاعتقاد القائم على غير أساس منه ومن السير ادوارد مالت بأن المذابح كانت من صــنع الحزب العسكرى ، وبأن عرابى وأصــحابه أرادوا أن يطمسوا الحق بأى ثمن ـ وقد كانوا فى الواقع يعملون على ابرازه ـ •• نرى ان ذلك كان سببا فى صــــد التحقيق عن وجهه ، ذلك التحقيق الذى أجرى عقب الفتنة مباشرة وكان صنيعا فذا من عرابى باشا ، وفضلا عن ذلك فانه كان من الاهمبــة بمكان عظيم أن يعقب التحقيق الفتنة مباشرة لا ابتغاء الوصــول الى معرفة مدبرى الفتنة فحسب ولكن لمنع ما قد يعقبها من ظلم ، وكان التحقيق عقب الحادث هو الوسيلة فى ذلك الوقت فقط التى بها يمكن الوصول الى أدلة يوثق بها ، وليس من ريب فى أنه بناء على تعطيل التحقيق على يد اللورد جرنفل قد عوقب كثير من الابرياء ومن سيئى الحظ بالموت والنفى والسجن » •

وثمة حقيقة أخرى جديرة بكل اعتبار فى صدد الكلام عن سياسة الانجليز فى المأساة وهى خليقة بأن تثير أكبر الشبهات ، وذلك انه ما من برقية أو رسالة بين الخديو

(١) Egypt No. 17 P. 61

ومالت أو بين مالت وسيمور أو بين عمر لطفي والخديو، عما كان يحدث أثناء الفتنة ، ما من شيء من ذلك أثبت في مجموعة الكتاب الازرق ، ولا يعقل بأية حال أن المخابرات انقطعت بين هذه الجهات أثناء وقوع الاضطرابات

وحقيقة أخرى جديرة بالنظر ، وقد سبق الاشارة اليها في موضع آخر وتلك هي اطلاق النار من النوافذ على الوطنيين بمجرد مقتل السيد العجان على يد ذلك المالطي الذي هو شقيق خادم كوكسن ، فكأن الاجانب أعدوا هذا الحادث ايذانا ببدء ما سبق به الاتفاق ...

ويتصل بذلك ماذكره جون نينيه في قوله : « وفي طريقي قابلت مستر كوكسن في عربة وأخبرني أحد الواقفين بجانبي انه كان في بيت أحد المالطيين أثناء اطلاق النار ، وانه أعتدى عليه عند خروجه من ذلك البيت لان الدهماء عدوه مسئولا عن اطلاق النار » .

ولا يفوتنا كذلك أن نشير الى مساعي مالت وكوكسن بوجه عام ضد وزارة البارودي وضد عرابي منذ قامت هذه الوزارة ، ومزاعمهما عن تسلط الحزب العسكري ، ورغبتهما الملحة في اسقاط تلك الوزارة التي اعلنت الدستور وقضت على نفوذ الرقيبين الاجنبيين ، والتي زادت روح الوطنية تأصلا في نفوس المصريين بحيث بات يخشى الاجانب استعصاءها على المقاومة لو تركت وشأنها ولقد ازداد غضب مالت وكوكسن بصفة خاصة منذ عودة عرابي الى الوزارة بعد سقوطها والتجاء الاجانب والوطنيين اليه لحفظ الامن ، واعلانه أنه يأخذ ذلك على عاتقه ، وواضح أن نجاحه فيما تعهد به اسقاط لحجتهما من أساسها ، وقضاء على محاولتهما الشيطانية لتنفيذ السياسة المرسومة ، سياسة احتلال مصر ...

والآن بعد أن أثبتنا أن المأساة مدبرة ، وبعد الذي

عرضناه من مسلك عمر لطفى ومن ورائه الخديو ، ومسلك الانجليز قبل المأساة وبعدها ، يمكننا القول فى غير أدنى شعور بالحرج أن المأساة كانت من تدبير مالت وكوكسن وقبيلهما من شياطين الاستعمار ، وأن عمر لطفى كان شريكا لهما فيما دبرا ، ان لم يكن بالتواطؤ الصريح فبالموافقة الضمنية ، كمن يعلم سلفا أن نارا سيشعلها بعض الجناة فيظل يرتقبها لأن له مصلحة فى اشعالها ، حتى اذا اندلعت ألسنتها تركها تأكل كل شىء ، ويزيد فى تبعته أنه كان بحكم منصبه المسئول الاول عن الامن فى المدينة

والحق عندى ان كوكسن ولطفى كانا فى الشر سواء ، ولا يقل أحدهما تبعة عن صاحبه فى تدبير هذه المأساة

ولايستطيع منصف أن يبرىء عمر لطفى الا اذا استطاع أن يبرىء كوكسن ومالت ، ولن يبرأ هذان الا اذا أدين عرابى وأصحابه ، وهو ما لم يستطع أعداء عرابى بكل ما وسعهم من جهد أن يصلوا اليه ...

قال الشيخ محمد عبده : « وفى يوم هذه الحادثة توجهت الى السراى فرأيت موظفيها فى جذل عظيم مما حدث وكانوا يبالغون فى رواية الاخبار ويضحكون من عهد عرابى بالمحافظة على الامن العام ، ومن المعلوم أن موظفى السراى لا يقولون الا ما يسر الخديو ، فاذا كانت الاخبار سارة تكلموا وضحكوا ، والا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم (١)

وبعد اثنى عشر يوما من هذا التاريخ كنت فى الاسكندرية فسمعت الناس جميعا يقولون ان المحافظ عمر لطفى سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد لانه كان مقيما فى

(١) ذكر أحمد رفعت بك شيئا كهذا عن موظفى السراى .

البلد ولم يصدر أمرا بتوقيفها ، ولم يذهب الى مكان الفتنة الا بعد مضي وقت ، ولم يطلب مساعدة العسكر النظامى مع انهم كانوا على مقربة منه ، وأجمع الناس على أن عمله هذا موعز به من الخديو ، وعلمنا أيضـا أنه لما كانت المذبحة على وشك النهـاية وكان المحافظ يتجول من مكان الى آخر واذا بأجنبى فى شباك وفى يده مسدس فقال أحد البدو : اأرمى هذا الرجل يا باشا ؟ فقال له : ارمه ، فأطلق البدوى عليه الرصاص فقتله ، وكثير من المنهوبات دخلت بيته وبيوت اقربائه فى ذلك اليوم الاسود .. وقد سمعت أيضـا انه حرض بعض الناس أثناء المذبحة وشجعهم على ذلك ، وانه أشـار الى البوليس ألا يتدخل قائلا : دعوا أبناء الكلاب يموتون .

ولم تسأل اللجنة التى تألفت للنظر فى أسباب هذه الفتنة عمر لطفى عن شىء مما حدث مطلقا بل كان الخديو أوعز اليه بأن يستقيل بحجة المرض .

كان عمر لطفى محافظ الاسكندرية زمن الفتنـة ، وقد أهمل أمر القيام بحفظ الامن العام على انه هو الشخص الوحيد المسئول عنه . هذا اذا لم نقل انه هو المحرض عليها ، فاذا كان فعل ما فعل اطاعة لامر عرابى كما ادعى ، مع أن وظيفتـه تابعة رأسـا الى الخديو — لان الخديو أصدر أمرا خاصا صرح فيه انه بعد استقالة وزارة سامى أفضت أمور الداخلية وشئونها الى السراى — فكيف نعلل تعيينه وزيرا للحربية جزاء لطاعة عرابى وعصيانه لسيده الخديو ؟ واذا كان الامر اهمالا منه فكيف يصح مع اهماله وعدم كفاءته تعيينه وزيرا للحربية ؟ ولماذا لم يسأل سؤالا واحدا عما جرى مع انه كان يجب أن يكون أول من يسأل ؟

لاريب فى أن استقراء سير الحوادث يظهر أتم الظهور

ان الخديو بالاشتراك مع عمر لطفى كانا سبب هـذه الفتنة ، أى مذبحة الاسكندرية » (١) .

ويعتقد برودلى اعتقادا جازما بادانة عمر لطفى، فقد كتب اليه اللورد تشرشل يسأله رأيه عقب عودته من مصر ليقدم هذا الرأى الى جلادستون ، فكتب برودلى اليه ، بأنه سأل فى السجن اثنين من كبار السياسيين النابهين لا ترقى اليهما شبهة ولا تخفى عنهما حادثة (٢) فتوافقت روايتاهما بما يدين عمر لطفى وكانا كل فى معزل عن صاحبه فى السجن بحيث لايمكن التقاؤهما .

اما كوكسن فقد لعب فى هذه الفتنة دور الشيطان ، ويقينى انه لو سار التحقيق كما أراد عرابى لأخذ بجريمته ، ولكن توفيق بادر بتعيين عمر لطفى رئيسا للجنة التحقيق ، ولم يعارض عرابى فى هذا رغبة منه فى المحافظة على المودة بينه وبين الخديو ، وقد أقسم كل منهما قبل ذلك بأيام على أن يحمى الآخر كما يحمى نفسه ، ثم أحبط الانجليز عمل اللجنة بانسحاب مندوبهم منها فنجا كوكسن من الاتهام ...

أما الفرض من تدبير هذه المأساة فيتبين لنا فى تتبع سير الحوادث صوب الهدف المقصود، وحسبنا أن نذكر الآن انها كانت من أقوى الضربات التى نزلت بالحركة الوطنية القومية وكانت فاتحة المآسى التى سوف يأتى بعضها فى اثر بعض حتى تقع المأساة الكبرى يوم التل الكبير

---

(١) تعرب ما ذكره الشيخ للمستر برودلى المحامى أثناء المحاكمة حسب ما أورده الشيخ رشيد رضا وهو يطابق الاصل الانجليزى .

(٢) كان يقصد الشيخ محمد عبده وأحمد بك رفعت وقد حذف اللورد اسميهما وقتئذ خوفا عليهما .

تم الجزء الاول

فهرس

	صفحة
مقـــدمة	٧
الصبى القروى	١١
فى صفوف الجيش	١٨
يقظة ونهوض	٣٣
الجندى الثائر	٥٣
الفلاح الزعيم	٧٠
الوطنيون والعسكريون	٧٧
دسائس ومخاوف	٩٦
يوم عابدين	١٠٧
رجل أمه	١١٩
توفيق والثورة	١٢٧
بين عرابى وبلنت	١٣٥
الثعالب وبنات آوى	١٤٣
غضبة جديدة	١٦١
عرابى الوزير	١٧٠
وطنية لا نزق	١٧٨
أمانى مصلح	٢٠٢
مراوغة وتربص	٢٠٨
اعنات واحراج	٢١٦
بغى وعدوان	٢٤١
عرابى ملاذ البلاد	٢٦٦
بين عرابى والسلطان	٢٨١
مأساة الاسكندرية	٣٠٣

العدد القادم :

الجزء الثانى والأخير

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



هذا الكتاب

«احمد عرابى الزعيم المفترى عليه» هو كتاب من أهم الكتب التى صدرت فى المكتبة العربية الحديثة ، وقد صدر هذا الكتاب فى طبعته الاولى المحدودة قبل الثورة ، واثار غضب الملك فاروق والسلطة الحاكمة آنذاك ، فقد اثارهم أن مؤلف الكتاب : الشاعر والمؤرخ والناقد المرحوم محمود الخفيف دافع فيه دفاعا علميا وعاطفيا مجيدا عن أحمد عرابى حيث جعل شعار كتابه « أما آن للتاريخ أن ينصف هذا الزعيـــــم الفلاح ؟ » ، ولذلك اتجهت السلطات الحاكمة فى ذلك الحين الى تشريد مؤلف الكتاب محمود الخفيف، وكان موظفا كبيرا فى وزارة المعارف ، فصدرت قرارات عديدة بنقله من مكان الى مكان بقصد ازعاجه وارباك حياته ، كما كان معروفا لدى الجميع أنه من « المغضوب عليهم » من السلطات مما جعله يعيش فى ظروف معنوية ومادية صعبة . ولقد كان محمود الخفيف كاتبا لامعا ، ولعله أبرز كتاب التراجم التاريخية والادبية فى مكتبتنا المعاصرة كلها ، فقد كتب عن « تولستوى » و « ملتن » و « لينكولن » وكتب هذا الكتاب الرائع الذى نقدم اليوم الى القراء العرب فى كل مكان القسم الاول منه على أن نقدم القسم الثانى فى الشهر القادم . ولكن محمود الخفيف لم يأخذ حقه الادبى الكامل بسببيه الحرب التى واجهته فى حياته وبسبب انصرافه الكامل للعمل الفـــــكرى والثقافى وانصرافه عن الحياة الاجتماعية والعلاقات العامة . وكتابات محمود الخفيف ـ كما سوف يظهر للقارىء بوضوح من خلال هذا الكتاب الهام ـ تتميز بالثقافة الواسعة وبالاسلوب الممتع فقد كان الى جانب ثقافته العلمية والتاريخية شاعرا ، كما يتضح لنا أيضا من هذا الكتاب بالذات : يقظة ضميره القومى بصورة رائعة ، ففى هذا الكتاب وثيقة هامة من وثائق الدفاع عن عرابى بل لعلها الوثيقة الوحيدة فى المكتبة العربية ، وعرابى زعيم ظلمه الكثيرون ، وعلى راسهم المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى .. فجاء كتاب محمود الخفيف لينصفه بالحق والعلم ، وليقدم نموذجا رائعا للـــــكتابة التاريخية ... كيف يمكن أن تصبح هذه الكتابة علما راقيا وادبا رفيعا فى نفس الوقت .

١٥ قرشـــا